المشرق

السنة الخامسة والثلاثون

نيسان – حزيران ١٩٣٧

الاب هنري لامنس

١٨٦٢-١٩٣٧

بقلم الاب فرديناں توتل اليسوعي

الى رحمة الله تعالى، انتقل الاب لامنس في الساعة التاسعة من مساء الجمعة ٢٣ نيسان. فنعته الجامعة اليسوعية الى اهله واخوته . ووردت الصحف نعيه الى الشرق والى الغرب . فحركت في النفوس لوعة الأسف على فقده راهباً فاضلًا ، وكاهناً عالمًا ، وواسع المعارف ، متخصصاً في الدروس الشرقية العربية من جغرافية وتاريخية ، مسيحية واسلامية.

***

كتب الاب لامنس عن رجال الحملات الصليبية ، فذكر الفلمند اجداده ، مَن شدّوا الرحال الى الاراضي المقدسة جنودًا وامراء ، وخرجوا من سهول الشمال البلجكي ، فهجروا الآل ، وتركوا المال ، وتغرّبوا ، ووجهُهم الجهاد في سبيل الله واليوم الاخير.

وان تلك العاطفة النبيلة التي دفعت بالسواد الاعظم من رجال الغرب الى قبر المسيح انما هي التي دبّت في قلب الفتى ، واوحت اليه التضحية بحياته وبما فيها من مواهب منَّ بها الرحمان عليه ، ليسيرَ جندياً ، لا بالسيف والرمح ، شأنَ الصليبيين ، ولكن بالقلم ، فيفتح فتوحات العلم . في الخامسة عشرة من عمره ترك مدينة غاند (Gand) ونورها المتضائل ما وراء الضباب ، وقد ابصره في حضن عائلة مسيحية كاثوليكية في ١ تموز سنة ١٨٦٢ واتى لبنان وطناً ثانياً له واحبه حب الولد لبيته ؛ أحب سكانه ولغته وتقاليده وكل ما اتصل به في الزمان الحاضر والغابر . ونال ايضاً محبته .

***

دخل هنري لامنس الكلية اليسوعية في بيروت تلميذاً . وفي ختام السنة ١٨٧٨ المدرسية ، في ٢٢ تموز ، في حفلة توزيع الجوائز ، سمع تراءة اسمه في ذكر كل مادّة من مواد الصف الثالث : التعليم المسيحي ، والامتياز ، والاجتهاد ، والترجمة اللاتينية ، واليونانية ، والتاريخ ، والجغرافية ، والحساب .

وفي ثاني ذلك اليوم ، في ٢٣ تموز ، كان في دير الابتداء في غزير سالكا في الشرق الطريق التي سلكها شقيقه اليسوعي في الغرب ، فنشأ الاخوين من اسرة واحدة على حبّ الزهد والتضحية ، ونبتا غصنين نضيرين على أرومة واحدة . فانتج كل منهما ثماره في حينه ، وفي البلاد التي اختارتها له العناية .

قضى الاب لامنس سنتين في الابتداء . ومن بعدها خمس سنوات في درس البيان والخطابة واللغات . وهناك كان الاب فونشر ، استاذ اليونانية ، غيوراً على تقدم تلامذته . فشروحات وشروحات من مؤلفات هوميروس وسوفوكل وديموستين ... وغيرهم من ائمة الكتبة ممن يثقل درسهم على الطلاب ! اما الفتى لامنس فينكب عليهم ، ويتعمق باليونانية فيقبض على ناصيتها ، وسوف يقرأ كتاباتها الاثرية على صخور لبنان وفي كهوف الشمال السوري ويفسرها ويناقش العلماء الاثريين في مواضيعها .

في السنة ١٨٨٦ ، عاد الاب لامنس الى الكلية في سلك المعلّمين . فقضى سنة في تعليم الصف الثالث ، واربعاً في تدريس البيان . وكان منذ دخوله لبنان قد صرف

جهوده الى تحصيل اللغة العربية فتعلّمها ، لا على النسق الجاف العقيم ، ولكن بطريقة علميّة اختطّها لذاته بوفرة ذكائه وقوة عزيمته ، فسارت به من معرفة المفردات وتراكيبها الى ضبط اصول فقهها ، الى تفسيرها في متونها عن أئمة المؤلفين . فمكنته ، وهو الافرنجي ، من القيام بمهمة تلقينها التلامذة اللبنانيين في الكلية . وقد حفظوا للاب لامنس من ذلك العهد ذكرى الاديب المتوقّد ذكاء ، المتضلّع من المواد الموضوعة للدرس .

ولم يبلغ الثلاثين من عمره الا وقد نشر مؤلفات كانت نتيجة من نتائج اجتهاده ، اولها كتاب الفرائد في الفروق (سنة ١٨٨٩) وفيه مواد شهدت له بسمة المطالعة ودقة الملاحظة ، جمع شتاتها عن اللغويين ورتبها الترتيب العلمي وضبط احكامها اخذاً عن كليات ابي البقاء ، وتعريفات الجرجاني ، وعن مؤلفات نور الدين الجزائري ، والحريري ، والطوسي ، وابن قتيبة ، والسيوطي ، والفضل ، والليث ، والثعالبي ، وابن الاجدابي ، والتهاوني ، وابي بكر الخوارزمي ، والشرشي ، والهمذاني ، والاصمعي ، وابي زيد وغيرهم . فألّف من اقوالهم ١٦٣٩ بنداً كل بند حوى المترادفات وفروقها وعلّمنا من كتابه كيف نغربل الالفاظ فنحفظ منها ما يصلح لدقة المعنى وننبذ الحشو نبذ النواة .

وكان ذلك الكتاب آلة لوضع مؤلَّف غيره اتى به الاب لامنس على درس الالفاظ الفرنسية المشتقّة من العربية ، مقدّماً عليه بقواعد عامة في الاشتقاق ، معالجاً امر الالفاظ التي سبقه المستشرقون الى معالجتها فنقد اقوالهم وكملها ، واستنبط من سعية فوائد مكّنته من خوض المناقشة اللغوية مع ائمة علم اللغة المعاصرين . وقد يرجعون الى مؤلفاته حجة .

وطبع من ثم كتاب الترجمة بجزءيه . وهو خير ما يوضع بين ايدي تلامذة الصف الرابع والثالث ، توطئة للبيان وهو يفيدنا عن اسماء المؤلفين الذين اتخذهم لامنس نبراساً في طريقه الى علم الاستشراق . فكانت الجغرافية ، والتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، المادة التي انتخبها وعوّل عليها في تخريج العقول وتحصيل الالفاظ .

من السنة ١٨٩١ الى السنة ١٨٩٧ تنقّل الاب لامنس بين الشرق والغرب .

فدرس اللاهوت في انكلترة، وفي بيروت. وتولى ادارة البشير مرتين (١٨٩٤ و ١٩٠٠ — ١٩٠٣) فكبّر حجمه. وعكف على الدروس وحده في لوفان (١٨٩٥) وقضى الابتداء الثاني في ثينة ١٨٩٦، عاصمة النمسة، حيث اتقن اللغة الالمانية. وعاد الى بيروت سنة ١٨٩٧، فعُهد اليه بادارة الدروس والنظام في الكلية. لكن ضعف قواه البدنية حال دون بقائه في الوظيفة مدة طويلة. على ان تأثيره الطيب في التلاميذ دعا الرؤساء بعد الحرب الى اقامته مديراً لجمعية التلامذة القدماء.. ولا وصف افصح للوداد الذي حفظوه للاب لامنس من كلمات التأبين التي القاها، في مأتمه، السيد الفرد نقاش في ٢٥ نيسان، قال:

« لا كلام في ساعة الوداع الاخير الا كلام الفؤاد .

لقد حل الاب لامنس في محبتنا واحترامنا محلا رفيعاً. نذكر له مبرّاته ونبكي. كم من شبان ساعدهم في الاختصار، كم من امهات ثكالى، وآباء مكلومين، عزّاهم وقواهم في مرارة الاحزان والشدائد . . . لم يجاهر الاب لامنس بمواطنه. وحالت بصيرته وحسّه النقاد دون تكلفه التظاهر، فكانت ارشاداته ومحاضراته محدودة ضمن حدود الرزانة والمنطق. يسمعه السامعون ويودّون لو انه اطال فيها واسهب .

هو العالم المتضلع من تاريخنا، الدارس احوالنا وتقاليدنا، وقف الى جانب اللبنانيين في ساعات حياتهم السياسية المظلمة، فتلمس فيها الطريق، وهداهم اليها . وكانت نصائحه درر حكمة ضمت في سلك المنطق . »

وسنة ١٩٠٣ اقيم الاب لامنس معلماً للتاريخ والجغرافية . وسنة ١٩٠٧ دخل كاستاذ معهد الدروس الشرقية المؤسس حديثاً في الكلية. فتوفرت بين يديه وسائل الاختصاص في دور الكتب وفي مرافق التعليم والبحث والتأليف. فاحسن استعمالها ضمن دائرة محدّدة تطوّرت فيها جهوده واعماله، فرقته من مطالعة الى مطالعة، ومن علم الى علم، حتى تعمق في البحث والتنقيب والاستنتاج وصار حجة زمانه في اختصاصه .

***

بين يدينا مؤلفاته. لقد قرأنا منها الكثير واعدنا قراءته. واعملنا القلم في شيء منها، فوضعنا لها الفوارس، وعنها اقتبسنا . فما هي الغاية التي توخاها فيها صاحبها؟ وباي وسائل حاول البلوغ اليها؟ واية هي النتيجة التي استنبطها منها؟ وما كان تاثيرها في الدروس الشرقية عامة والاسلامية خاصة؟ عسى ان نوفق في الجواب

عن هذه الاسئلة فنقوم بواجب المعروف ذكرى للعالم وفضله ، ونؤدي صفحة لتاريخ الاستشراق.

غاية الاب لامنس : درس شخصية محمد

تنحصر اعمال الاب لامنس العلمية الاختصاصية في دائرة خاصة قد يحق لنا ان نسميها « المعضلة الاسلامية » . تقتضي جهوداً بذلها طيلة حياته ، وتشمل مؤلفات منها ضخمة ، ومنها رسائل وجيزة جال بها حول حلّ اللغز التاريخيّ الدينيّ الكبير ، وهو شخصية محمد وقضية انتشار الدين الاسلامي. اقبل على ذلك المشروع الخطير بهمة شماء نالت اقصاها من المواهب العلميَّة السامية ، ومن المبدأ الذي اتخذه مهمازاً لحياته الكهنوتية اليسوعية بألّا يكتفي بالنزر القليل حيث المجال واسع للعمل، والامل بالاستفادة عظيم ؛ وايّ مجال اوسع من درس الدين الاسلامي في علله ! واي امل اعظم من امل الساعي في سبيل النور ! وان ذلك الدين مجم في الوف المواطنين من سكان لبنان وسورية ومصر . نظر اليهم الاب لامنس لا نظرة الازورار، ولكن العين بالعين والودّ في القلب. وما كان اصفى نظره وما اودّ قلبه لمن ساروا طالبين الهدى من التاريخ !

مضى الاب لامنس في ابحاثه يلتمس حقيقة الدين الاسلامي فيميز بها النور من الظلام. لن يوفق الى ابراز شخصية محمد في صفحة التاريخ الوضاح ، لكنه قشع غيوماً تلبّدت مع الايام ، فوارت صورة من قلب جزءاً من العالم ظهراً لبطن.

ورب معارض يقول: وهل من حاجة الى اكتشاف الشمس في الهجيرة ؟ الا يذكر المسلمون من حياة نبيهم ما يروي الغليل ويشفي العليل ! اليست السيرة مستندة الى اقوال الصحابة والشهود ؟ واي حقيقة تاريخية اقوى حجة من حجة الرواة اذا اجمعوا على قول واحد وهم كثيرون ؟

فيجيب الاب لامنس : ان آراءهم واقوالهم مرجعها واحد وهو القرآن. وما دام القرآن يأتي مصداقاً لكلامهم فهناك اساس للتاريخ متين. اما الحديث فمادته وضعت اصلاً، لا للتاريخ، ولكن للتشريع والتعليم والفقه. وقد تتبين لنا هذه النظرية باجلى تبيان، بعد الكلام عن الوسائل التي تذرع بها الاب لامنس، وعن

الاسلوب الذي اتبعه في الوصول اليها.

وسائل الاب لامنس واسلوبه

ان العلامة نولدكه، بعد ان تحقق العقبات القائمة المتورة الطريق الى معرفة شخصية النبي، اجفل عن مواصلة البحث وقال انه قد عدل نهائياً عن محاولة كشف القناع عن سرّ محمد.

اما الاب لامنس، وهو في قلب الشرق، في لبنان، بالقرب من المكتبة الشرقية في الجامعة اليسوعية في بيروت، وغير بعيد عن القسطنطينية ومصر، فقد اقبل اولاً على درس الكتب الاسلامية في اصولها العربية، وفي مؤلفات المستشرقين، على اختلاف النزعات واللغات. وقد ذكرهم في مصادره واتخذ بعضهم مرجعاً خاصاً في المكتبة التي حفظها في غرفته الى آخر يوم حياته. واننا نذكر اسماءهم كما تتوارد الى الخاطر: ولهوسن، شنوك هرگرونيه، كايتاني، نولدكه، گويدي، هوار، مرگليوث، سپرنگر، وستنفلد. فاستوعب اقوالهم، واستقصى مباديهم، ونقدها. واقتبس منها ما رآه صالحاً لدروسه، موافقاً للحقيقة التي ينشدها. وقرأ الشعراء العرب الاقدمين، واعمل الروية في دواوين الاخطل، وعلقمة، وفي حماستي البحتري وابي تمام، وفي اشعار الخنساء، وامية ابن ابي الصلت، والقطامي، وزهير، ولبيد، وابن قيس الرقيات. اما كتاب الاغاني فقرأه، وقرأه، وقرأه، الى اثنتي عشرة مرة. واكتشف في قراءته الشعراء ما لم يكتشفه ابناء العرب انفسهم من تلميحات تاريخية وفوائد دبّجها في تأليفاته شهادات بيّنات على صدق حجته. فاثار اعجاب احد علماء الازهر، وقد وقف على تفسيره بعض الاشعار القديمة، فقال: لقد سبقنا هذا الاعجمي الى فهمها.

واعلم ان الاب لامنس بذل جهوده في استغلال الشعر العربي القديم في سبيل معرفة اصول السيرة النبوية، لا لكون الشعراء كتبوا التاريخ ولكن لان اقوالهم صارت مادة طارت منها سوانح. فكان يحطّادها الاب لامنس، وبها يهتدي الى معرفة الاخبار، يكشفها تأويلاً او استنتاجاً من عبارة او من بيت يشفّ عن تزييف في الاصل، او عن شعر هجاء، او حماسة او فخر، رجع بها الاب

لامنس الى اسبابها وفكّ لغزها، بموجب المبادئ التي توصل اليها. منها ان الشعراء كانوا ممقوتين من النبي، فان حفظ لهم المحدثون ذكرًا او قولًا فلم يحفظوه حبًا للشعر، ولكن لغاية سياسية. وتوصل الاب لامنس في تحصيله الى تحليل الظروف والعلل التي قيل فيها الشعر، فحفظه مادة تاريخية اكيدة صالحة لتوضع حجرًا في البناء التاريخي الذي اعده.

واذ حاول الكتابة في حياة محمد، كان لا بدّ من درس البيئة التي عاش فيها، والتعرّف الى الرجال معاصريه الكبار الذين اثّروا وتأثّروا بالدعوة، وبانتشار الاسلام. فعمد الى المؤرخين والجغرافيين العرب والافرنج وقرأ المقدسي، وابن حوقل، وياقوت، وابن جبير، وابن بطوطة، والطبري، والبلاذري، واليعقوبي، والمسعودي الخ. فاستقصى الاخبار، وقابل بينها وبين ما كتبه الروّاد المحدثون كوسيل، ووالتر. واستعان بتدريسه الجغرافية في المعهد الشرقي في الجامعة اليسوعية، فدوّن دروسه في الحجاز، وفي احوال الجزيرة الطبيعية من مناخ ومياه وآبار وغدران ومواسم ومراعٍ واشجار ونبات، ومحصولات، مع اختلاف المقاطعات بين جبال واودية ورمال وواحات؛ ودرس اخلاق البدو وعيشهم قبائل تحت سيادة الاسياد، وحالة المرأة بينهم اخذًا عما تعلمه في قراءاته.

ولم تكن المطالعات التي ذكرناها الا ساعدًا من نهر وخليجًا من بحر خاضه الاب لامنس في درس الحديث. ورُبّ قائل يقول: وما شان الحديث بينكم وقد وضع للفقه لا للتاريخ؟ فالجواب ان الصحيح، والمسند، او السنن، وسائر ما وضع من امثال ذلك آية نقه الفقهاء، كان الغرض منه تدعيم فتاويهم بركن غير متزعزع، في نظر المسلمين، اذا تحققوا نسبته الى نبيهم. فكانت من ثم جهود المحدثين ان يثبتوا سلسلة الشهادات وحلقاتها متصلة منهم عن اساتذتهم عن فلان عن فلان عن فلان ممن سمع او رأى محمدًا. فكان الحديث من قول او فعل، اذا صحت نسبته الى نبيهم، موجبًا على المسلم ذمة ان يرضى بفتوى المفتي او بفقه الفقيه. فكتبَ المحدثون ودأبهم الفقه لا التاريخ. نعم ولكن عدم اكتراثهم لسرد الحوادث وتعليلها

شأنَ المؤرخين هو الذي جعلهم في نظر الاب لامنس حقلًا واسعًا مفتوحًا يستفيد منه، لا باستغلاله غلات وافرة، ولكن بالتقاط ما يعثر عليه فيه من سقطات الكلام، ومن تعليمات صدرت عفوًا من قلم المحدثين وفي سياق التحرير عن غير قصد منهم. ذلك ما يسميه الافرنج سانحات الكلام (obiter dicta) ويحفظونه اثرًا مؤكدًا ومادةً حقيقة بالتاريخ.

وعليه ذهب الاب لامنس يطالع كتب الحديث ليلتقط فيها سوانح الفكر والخواطر. وما اوسع ما جرّده في تلك الناحية! بالامس دخلنا الغرفة التي لفظ فيها نفَسه الاخير، فاعترتنا هيبة المقام، اذ رأينا على راس سريره مكتبته الاختصاصية وفيها من جملة ما فيها سنن ابي داود، وجامع الترمذي، واللآلي المصنوعة، وسنن النسائي، واتقان السيوطي، وميزان الذهبي، وتيسير الشيباني، وصحيح مسلم، ومصابيح السنة، ونهاية ابن الاثير الخ.

قرأ الاب لامنس وقرأ وقد طالما روّض النفس على القراءة[١]. فنهبت ساعاته وايامه. قرأ الحديث، وقرأ ما كان لا بد من مطالعته للكشف على غوامض اللغة العربية القديمة وهي الكتب اللغوية. وكانت دروسه السابقة قد مهّدت له السبيل اليها، فساعدته على فهم ما يعتاص فهمه على كبار الادباء من المتون. فجرد من المؤلفات المذكورة ما رآه مفيدًا لدروسه، واستعان بالمجموعات الادبية الكبرى كمؤلفات النويري، والقلقشندي، وابن عبد ربه، والجاحظ، على المقابلة والتمحيص. وبعد ان جمع تلك الغلّة الوافرة رتبها الترتيب العلمي في قاموس ألفه لنفسه. وهذا القاموس موجود بين يدينا، وهو الشاهد المصداق على كلامنا. فلم نغالِ فيما وصفناه من سعة مطالعاته. وما ان تراجع صفحةً واحدة من الوف الصفحات التي كتبها في كتبه العلمية حتى ترى كثرة المراجع التي يرجع بالقارئ اليها، ويسند اليها اقواله، فيدهش. وان يكن من العلماء من يرى غير آراء الاب لامنس في التاريخ، فكلهم لسان واحد في الثناء على ثروة معارفة ووفرة قراءاته.

---

١) كان ولعه فيها شديدًا منذ حداثته. قيل انه قرأ مؤلفات جول فرن الافرنسية، وهو ولد صغير في الصف السادس، وفيها اكتشف دعوته « الجغرافية ».

وزد على ذلك ان الاب لامنس كان اديباً لا تفوته رواية عربية او افرنجية ظهرت في مجلة او في نشرة حديثة. وان اخلاقه الراقية وشهرته واسفاره وصلت بينه وبين كبار المستشرقين في المكاتب والمعاهد العلمية والمؤتمرات ، فتذرّع بكل هذه الوسائل في الوصول الى غايته: كتابة التاريخ على اساس جديد.

النتيجة

اولاً : تجديد الدروس الاسلامية

كان الاب لامنس قد علّل نفسه ان يشيّد لشخصية محمد بناية تاريخية على ذلك الاساس. ولكن حراجة المقام، ومراقبة الطباعة على ايام الاتراك، حالت دون معالجته الموضوع مباشرةً. فأجّل العمل الى ان يكون الجو قد صفا للعلم والعلماء. ولم يأسف في التأجيل لادراكه سائر ما يتطلبه ذلك التأليف من الاستعداد من جانبه ومن جانب القراء.

فلم ينشغل عنه ساعةً واحدة. واهم مؤلفاته كانت بنايات كاملة بمفردها ، وممهدات للبناية الفخمة الكبرى التي ضحّى في سبيلها جهوده ، على امل ان يكملها بحياة محمد. لكن المتاعب التي احتملها ، والامراض التي اعترته مترجبة العملية الجراحية ثلاث مرات ، استعجلت شيخوخته وحلّت قواه ، واوهت ذراعه عن القلم ، فيسوت والسيرة النبوية مفصّلة مطوية في دفاتره.

على ان المشروع ، وان لم يبلغ الى الغاية التي توخاها له صاحبه ، فقد يسير بمراحل في التقريب اليها ، وذلك في الكتب التالية :

١ً « الحكام الثلاثة : ابو بكر وعمر وابو عبيدة » . وهم الذين خلفوا محمد مباشرةً ، وكانوا اركان الاسلام في اول فتوحاته.

٢ً « البادية والحيرة » . وكان الاب لامنس قد قرأ مقالاً عنها في مؤتمر المستشرقين في كوبنهاغ سنة ١٩٠٨ .

٣ً «اخلاص محمد في اعلانه الدعوة».

٤ً «عمر محمد».

٥ً « فاطمة وبنات محمد».

٦ً « مهد الاسلام ».
٧ً «الطائف المدينة العربية قبيل الهجرة».
٨ً « مكة قبيل الهجرة » .
٩ً « المعابد في غربي الجزيرة قبل الهجرة».

هذه المؤلفات قدم عليها الاب لامنس بمقال نشره في مجلة الابحاث العلمية الدينية ·فوضع اركان المبادئ التي استنتجها من دروسه،وهي كحجر الزاوية في مشروعه·وقد صارت هدفاً لاقوال ومناقضات العلماء الاسلاميّين·ومهما يكن من صوابها او عدمه ، فقد فتحت باباً للبحث جديداً وساعدت على ترقّي الدروس الاسلامية ·

ان اساس السيرة، في نظر الاب لامنس ، انما هو القرآن وحده ، كما قلنا سابقاً·اما مادة الحديث فليست مكملة لتعليمات القرآن كما اعتبروها الى عهد قريب منا ، بل هي تعليقات عُلقت عليه وشروحات وحواش زيدت على متنه لغايات ، منها سياسية ، ومنها دينية · فالسياسية متصلة بالانقلاب الاسلامي العظيم الذي حوّل مركز الخلافة من دمشق الى بغداد ، وشاد اركان الدولة العباسية على انقاض الدولة الاموية·وللاب لامنس ابحاثه الخطيرة في هذا الفصل الداخل في تاريخ سورية·اما الغايات الدينية فقد عبّر عنها المستشرق الالماني بكَر في كلامه على آراء الاب لامنس، ولم يخطئ في تعبيره ، واليك معناه :

لما فتح المسلمون بلاد الشرق المسيحي واتصلوا بالمسيحيين ، وتعرفوا منهم الى شخصية المسيح الالهية العجيبة ، والى مصادر حياته التاريخية ، وقابلوا بين تلك المصادر وتلك الحياة وبين ما كان لديهم من وثائق ثابتة عن حياة وشخصية نبيّهم محمد ، ساءهم ما رأوه من فرق بين اصول واصول · فذهبوا ينقّشون عن آثار نادرة مفقودة الّا في بعض الاحاديث الفقهية التي لم توضع تاريخاً لترجمة النبي، ولكن خططاً للاشتراع·فاتخذوها على علّاتها مادة للسيرة،مرتّبينها الترتيب الزمني الموافق لحياة النبي قبل الميلاد ، وفيه ،وبعده ، مقتبسين من القرآن التنويهات التي بها استضاءوا لينيروا طريقهم في تلك المجاهل·فخرجت السيرة من ذلك الاجتهاد مؤلّفاً لا اساس فيه ثابت لدى الحقيقة التاريخية الّا ما كان في القرآن·

وقد يساعدنا على فهم نظرية الاب لامنس في هذا الصدد التشبيه بين هؤلاء المحدّثين وبين مؤلفي الاناجيل الاسطورية كانجيل برنابا . فان هؤلاء لم يكتفوا بالتعليمات التاريخية الثابتة عن حياة المسيح ، كما هي في الاناجيل القانونية ، بل اضافوا اليها من عندياتهم ، ظنّاً منهم انهم يخدمون الدين ، ولكنهم اساءوا اليه بتشويههم وجه الحقيقة .

وكذلك رواة السيرة فانهم نسجوا الاساطير على منوال المتن الاصلي ، مخترعين اسماء الرواة ، مطوّلين ما كان قصيراً في الاصل .

اما قيمة اقوالهم في تمحيص الحقيقة التاريخية فتقدر على قدر اتصالها بالقرآن . ولا بد من التفتيش عن الاقوال والاعمال التي اتخذها المحدّثون مادة لبنايتهم ، وفكها ، ودرسها حجراً فحجراً ، لا لهدم البناية ، ولكن لاختبار متانتها والتفريق فيها بين ما كان ناتجاً عن تطويل القرآن وبين ما كان مستقلاً عنه . وان هذه المادة ذاتها قد تصطبغ بصبغة النزعة التي قسمت المسلمين منذ البدء الى السنة والى الشيعة . فلا بد من عرض اقوال الفئتين على محكّ البصيرة ، والمقابلة بينها وبين ما يعرف من اوضاع التاريخ الثابتة لتحصيل الخطوط التي منها تتصور صورة محمد بملامحها الاصلية التي لا سبيل الى الشك فيها[1] .

كانت تلك النظرية الجديدة ، ولم تزل ، موضوعاً لمناقشة العلماء المستشرقين ، فتناولوها بالبحث في مجلات الاستشراق . وحسبنا ان نرسل اليها القارئ . على ان نتيجتها الاخيرة المخصبة كانت شحذ القرائح في الاجتهاد والدرس وترقية العلوم الاسلامية . هذا ما شهد به زعماء النهضة الفكرية في الجامعة المصرية خاصة .

وربما اجفل القارئ عن التعمق في هذا البحث لما يُخشى ان يؤدي اليه من الشك المذموم . ولكن هيهات ان يفكّ العالم الحقيقي البناية لهدمها ويشيد صرحاً للشك . فانه اعاد النظر في موادّها ، واقبل على وضع مؤلف يُعدّ من خيرة ما وضعه العلماء الاسلاميون في هذا الصنف اعني به كتابه في «الاسلام ومعتقداته ومؤسساته» . وصفه الاستاذ هرتمن في مجلة الآداب الشرقية الالمانية فقال :

[1] راجع Becker : *Prinzipielles zu Lammens' Sirastudien*, dans *Der Islam*, IV, 263.

«لم يكن بين يدينا على الديانة الاسلامية كتاب شامل متين. نعم ان مؤلفات گولدسيهر وشنوك هرگرونيه جديرة بالاعتبار لانها بينت التبيان الكافي مزايا تطوّر التاريخ الاسلامي ، لكنها لم تحاول تصوير صورة الاسلام بجميع خواصها الجوهرية. فاتى لامنس وملأ ذلك الفراغ.»[1]

وضع الاب لامنس ذلك الكتاب اولًا لشبان الرهبانية، وهم في بكفيا (لبنان) يستعدّون بدرس اللغة العربية ومُنشآت الدين الاسلامي لخدمة هذه البلاد العزيزة. فالكتاب قريب المنال لغير الاختصاصيين. وهو ايضاً، كما لفت النظر الى ذلك الاستاذ هرتمن، على جانب قوي من الشواهد والحجج، مما يجعله علمياً بحصر المعنى. فهل يُنقل الى العربية كما نقل الى الانكليزية والى الايطالية؟ ان ادباء المسلمين قد يقرأونه ويجدون فيه من الفوائد ما يحمدون الاب لامنس عليه.

قال انيس النصولي في جريدة «بيروت» (العدد ١٨١ في ١ ايار ١٩٣٧):

«وارحمتاه لك يا لامنس عدد حسناتك في كتابك الاسلام فقد اثرت لنا فصولاً عن الجزيرة العربية، ومحمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم، والمذاهب والتصوف والاصلاح والتجديد، ما يجعلنا مدينين لعلمك. وانا رغم مخالفتنا لك في كثير من آرائك لا يسعنا الا ان نكبر جهادك في هذه المواضيع».

النتيجة

ثانياً : تاريخ الدولة الاموية ، واحياء آثار سورية ولبنان

لقد منّ الله على هذه البلاد بمحاسن طبيعية وافرة، وتراث تاريخي جليل من بقايا آثار الامم التي مرّت بها. وهي مهد الاديان التوحيدية وموئل اديان غيرها، جعلتها محجة للشعوب، ومجذبة للعلماء خاصةً فيجدون فيها، ضمن اماكن محدودة قريبة المنال، مادةً للبحث لا نهاية لها.

وايّ درس احب الى الاب لامنس من درس هذه المنطقة التي عاش فيها منذ صباه. وفيه الاستعدادات التي ذكرناها ، وتضلعه من اللغات الشرقية ، فضلًا عن اللاتينية واليونانية القديمة ، وسائر اللغات الاوربية الحيّة ، ولديه من

(١ OLZ. 1927, 584

الوسائل التي تجود بها الرهبانية بسخاء على بنيها في سبيل بلوغهم النجاح في الخطة التي يسوقهم اليها ميلهم وفطرتهم.

عمل الاب لامنس بترتيب ورزانة واتقن اعماله، كما لو كان كل عمل غاية لذاته، واتقنها متسلسلة لغاية قصوى، مكتملة دروسه في الاسلام، ومستمدة من دروسه الاسلامية قوة على التخصص في تاريخ سورية ولبنان.

طاف، ايام العطلات المدرسية، مشارق بلادنا ومغاربها. من بلاد انطاكية والجبل العجيب الى بلاد حمص، حيث عيّن موقع قادش على العاصي، الى الحدود السورية الفلسطينية، حيث تتغنى آثار الصليبيين. فكتب عن تلك البقاع واخبرنا عن سكانها القدماء، وعن الخالين من نصيريين ويزيدية ومتاولة. ووقف واستوقف القارئ لا للبكاء على الانقاض والرثاء العقيم، ولكن لاحياء ذكر السلف، والاشادة بامجاد الاولين استحثاثاً على الشغل.

وكان يعود من جولاته كالفلاح من حصاده، متأبطاً حزمة التعليات، فيدرس سنابلها ويغربلها ويضيفها الى اهرائه، ومنها اخرج مؤلفاته في الدولة الاموية.

واعلم انه سلك، في السبيل اليها، الطريق الواصل بين الجزيرة والشام، اي ان دروسه الاسلامية استفادت من معارفه السورية وافادته في التنقيب على حقيقة تاريخ بني امية.

قال في كتابه «سورية» (١:١٠٥)

« لما انكسر الامويون في موقعة الزاب، في ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠، اقبل اعداؤهم بنو العباس يفتكون فيهم فتكاً، فطاردوهم في مصر، وفي العراق، وفي الشام. ومدّوا لهم الحبائل وعللوا بقاياهم بالعفو، فاخرجوهم من مخابئهم، وابادوهم عن بكرة ابيهم، وطرحوا اشلاءهم للكلاب. وشهروا الحرب على موتاهم، فنبشوا جثثهم من القبور واحرقوها. ودمروا قصورهم، وخربوا دورهم. وصار اسم بني امية لعنة ونقمة عليهم.»

وان هذا الوصف الوجيز خلاصة تدل على ما حدث تذكر بني امية في كتب من كتبوا، على العهد العباسي، متأثرين بنفوذه السياسي. ولما كانت نزعة تلك الكتب كلها، او تقريباً كلها، متشيعة للدولة المالكة، ففيها وجه الدولة العباسية

مبيضٌ، وذكر بني امية مسودّ، ووجه الحقيقة التاريخية مشوّه، حتى صارت افادتها عن تاريخ القرون الهجرية الاولى مكذوبة ، واوجبت على العلماء اعادة النظر فيها ودرسها الدرس العلمي ، تمييزًا بينها وبين الاخبار الصادقة . وقد استعدّ الاب لامنس لذلك الدرس بالعدة التي ذكرناها عند كلامنا على بحثه تاريخ الدين الاسلامي، فاقبل على معالجة تاريخ الدولة الاموية عن فهم وحسن تقدير . فوضع مؤلفاته في هذا الصدد واليك اهمها : خلافة معاوية الاول . وخلافة ابنه يزيد الاول . وترجمة معاوية الثاني آخر السفيانيين ومروان الاول . اضف اليها دروساً في زياد ابن ابيه ، والمحادثات الجغرافية في الاقطار السورية ، وغيرها مما نشره في المجلات وفي دائرة المعارف الاسلامية . ووضع سنة ١٩٢١ سِفره الجليل : سورية وخلاصة تاريخها . فبيّن بالاستناد الى اوثق المصادر محاسن السوريين ، وان لمعاوية الاموي الفضل في تأسيس الدولة العربية ، وفي تنظيم البلاد التي فتحها المسلمون . حتى استتب لهم الامر وبسطوا سلطتهم على الخافقين . وكان العنصر السوري فيهم كالخميرة من العجين . فمنه جيّش معاوية جيوش الفتوحات ، وعليه اعتمد لثقافته وذكائه وطاعته . وبه اوصى ابنه يزيد قبل الوفاة . وعامل اهل الذمة بالحكم والرفق ، واحسن السياسة .

ومسّ الاب لامنس في دروسه مواضع فتحت باب الجدل بينه وبين الادباء . فعالج اصلية الروم الملكيين في بلادنا ، وبيّن انهم آراميون اصلًا ، وكذلك قضية المردة او الجراجمة فاثبت انهم غير الموارنة ، وان الطوائف المسيحية كلها من اصل آرامي ، وسار الى ابعد من ذلك داعياً السوريين اجمعين الى القول باصلهم الآرامي الجامع بين عناصرهم . وكان من اكبر الدعاة الى الاتفاق والتآخي .

في ادارة المشرق

سنة ١٩٢٧ ، توفي الاب لويس شيخو ، مدير مجلة « المشرق » ، فعهد الرؤساء بادارتها الى الاب لامنس . كما كانوا عهدوا اليه منذ ثلاثين سنة بادارة « البشير » . وهذا المستشرق الكبير كان بوسعه ان يضع كتبه باللغة العربية . لكنه اتخذها لتكون آلة لثقافة واسعة فحررها بالفرنسوية وعوّل على قلم غيره في

ترجمتها. تولى شؤون المجلة باهتمام فلم تمضِ سنة من سنيها العشر الاخيرة الا وله فيها المقالات اللذيذة يذكرها القراء بالاعجاب والشكر. واكثرها تاريخية موضوعها مقتبس من ماجريات اليوم. منها ما يؤلفه جديداً، ومنها ما يجدّد اصله عن احدى المقالات العديدة التي نشرها في المجلّات الفرنسية وظلّت مجهولة من قراء العربية، يعيد فيها النظر ويعمل فيها القلم، ويقدمها طعاماً مستطاباً.

الى ذلك العهد تعود المقالات في «موتمر بال الصهيوني»، و«مسألة الابجدية في اللغات التركية»، وفي «بلاد الافغان وملكها الشاب» و«ابن سعود والوهابيين» وفي «واجب درس تاريخ بلادنا» وفي نقده «كتاب النكبات» وهو الاجنبي اصلاً احتج على ابن البلاد باسم العلم والكرامة على تحقير سمعتنا وتسويد صفحتنا. وكتب ايضاً في «بلاد العرب السعيدة» وفي «السوريين في فرنسة في القرنين السادس والسابع للمسيح» وفي «اسرة القديس يوحنا الدمشقي» وفي «انطاكية والسياحة» وفي «دمشق العاصمة» وفي «سورية زمن الفتح العربي» وفي «العناصر الفارسية في لبنان» وغيرها ... قدمها للطبع وكان كالعامل الجبار الذي بلغ غايته، وعجن المادة فلانت بين يديه فجبلها من غير عناء. ولا تعب. الى ان شلّت يده برجفة مرض الفالج، فكفّ عن التحرير ولكنه ظلّ مراقباً حركة النشر في المجلة.

***

وآخر كلمة سطّرها في حياته كانت يوم الخميس ٢٥ اذار ١٩٣٧، في عيد البشارة. حملوه على الكرسي الى موضع الحفلة التي اقيمت في الجامعة عند عتبة دار الكتب الكبرى التي اخذوا في بنايتها، فوضع السفير دي مارتيل صك التدشين في حجر الاساس موقعاً باسمه واسماء الاعيان الحاضرين من رجال الدنيا والدين. وتقدّم الاخ دلال اليسوعي، رفيق وممرّض الاب لامنس والمتفاني في خدمته، وسند يده الضعيفة. لقد وقع الاب لامنس اسمه في ماضي حياته على عشرات المجلدات والرسائل. وها انه يوقّع اسمه للمرّة الاخيرة على صكّ تدشين المكتبة، فيصل بين ماضي الجامعة التي نالت منه شهرةً وعزّاً، وبين عصرها الجديد المقبل برجاله واعماله على بركة الله!

ما اشد ما كان حرص العامل الجبار على ساعات ايامه، لما كان متمتعاً بقواه البدنية. اما الآن، وقد حبسه مرض الفالج عن العمل، فيقضي الساعات الطوال ساكتاً صبورًا لا يتذمّر ولا يتضجّر. وان له من حسن الذاكرة وتوقّد الفؤاد ما يجذب اليه الاخوة والاصدقا، فيستشيرونه؛ ونصائحه نور، وكلماته درر. اما سكوته ففيه هيبة العلم وجلال القداسة. الى ان وافاه الاجل.

لامنس في ادارة المشرق يذكرنا بشيخو. كلاهما يستريحان الآن في مقبرة الجامعة، تحت الكنيسة، في مصافّ الرهبان مؤسسي الجامعة وعمالها المنتقلين الى دار البقاء.

شيخو ولامنس كلاهما دخلا الرهبانية في عنفوان الصبا وضحّيا في خدمة الدين والعلوم الشرقية بزهرة الشباب، وقوى الكهولة ونضج الشيخوخة الوقور. شيخو اتى من الشرق، ولامنس من الغرب. وكلاهما تفانيا في خدمة النفوس بالوعظ والتعليم، واضاءا كالنبراس في ظلمات التاريخ الشرقي. شيخو كتب عن الاسلام متوسّعاً في الدروس النصرانية باللغة العربية. ولامنس كتب عن النصارى متخصصاً في الدروس الاسلامية باللغة الافرنسية. شيخو جوّاب المكاتب، غزا الغزوات في بلاد الفرنجة، والشام، وما بين النهرين، والهند، وعاد بالمخطوطات ونشرها. لامنس اقبل على تلك الوثائق فانعم فيها النظر ودقّق وغربل وجمع وألّف.

وكما ان الحكومة اللبنانية منحت الاب شيخو مدالية الاستحقاق اللبناني ذات السعف تقديرًا لفضله وخدماته، كذلك علقت على صدر الاب لامنس مدالية الاستحقاق اللبناني الذهبية. وكان الاب لامنس قد نال من حكومة بلاده البلجكية مدالية ليوبولد، ومن الجمهورية الافرنسية وسام جوقة الشرف.

عند ضريح الفقيد الوقور، اخينا العزيز، نركع طالبين له الرضوان، ولنا السير في تقفّي آثاره لمجد الله الاعظم !

من الخزانة الشرقية — بقلم حبيب زيات

هل كان
القس ابو البركات ابن كَبَر شاعرًا ايضاً ؟

للامير ركن الدولة بيبرس الدوادار المنصوري تاريخٌ جمع فيه اخبار العصور المتقدمة ، وانتهى فيه الى سنة اربع وعشرين وسبعمائة للهجرة ، ودعاه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » في احد عشر مجلدًا . ولا يزال مخطوطاً . ومنه اجزاء في الخزائن الغربية . وقد ذكره غير واحد من المؤرّخين وكتبة التراجم كالمقريزي ، وجمال الدين بن تغري بردي ، واشاروا الى ما اورده فيه احياناً من الكلام المسجّع وقالوا : « اعانه عليه كاتبه ابن كبر النصراني » . ولا تزال منزلة ابن كبر في الكتابة والانشاء تحتاج الى زيادة في التعريف والتحقيق . ولكن لم يتقدم لاحد وصفٌ له بقرض الشعر ايضاً . وقد وقفنا في شهر اذار (مارس) من السنة الفائتة على مجلد في خزانة ميلانو المعروفة بالامبروسيانية رقم C 45 (Nº 230 (Cat.) كُتب فيه بقلم غير قلم الكتاب « هــذا مختصر تاريخ المقر الركني بيبرس الدوادار تغمده الله برحمته . ويسمى مختار الاخبار عُني بجمعه القس الشمس بن كبر نيح الله نفسه » . ولكن يستدل من لهجة الكتاب وكثرة الخطإ فيه واللحن ، وشيء من الركاكة ، ان المختصر غيره من الاقباط ، لخصه وقدّم عليه تاريخ الانبياء واليونان والروم في ١٠٨ ورقات . وبأثنائه وبآخره خرم . وفي بعض صفحاته محو وكشط . لان احد من دخل في حوزته ، وهو علي بن محمد الصلاتي ، كان كلما مرّ به ذكر محمد دون الصلاة عليه والسلام ، او اسم بعض الخلفاء بغير عبارة يرتضيها له ، كان يحكّ بعض الالفاظ ، ويضع في مكانها كلمات اسلامية اليق بالمقام . وقد لعن المؤلف اذ لم يعظّم النبي . ولما وقعت عينه مرة على اسم الصليب ألحقه بقوله « المسخّم لعن الله عَبَدته امين » . واقتدى به قاسم

كمال الدين، احد مقتني الكتاب او قارئيه، فكتب في هامش الورقة ٢٣ عند ذكر صلب المسيح ابياتاً اولها:

ان صلب المسيح اعجب شيء زعمه اهل الضلال النصارى

ولا ننقل بقيتها لكثرة اختلالها ولحنها وانحطاطها

وفي المجلد، كما قلنا، نقص ظاهر، وخلل فاش، حتى في الرسم احياناً . ولكن فيه صفحات منقولة دون شك من الاصل «زبدة الفكرة» فهو لذلك جدير بالحفظ والاعتبار . ومن هـذه الصفحات ما كان كتبه بيبرس عن وقعة التتار سنة ٧٠١ للهجرة، على طرف مرج الصُفَّر مما يلي جبل غباغب في برّ دمشق . وذكر قبلهـا ان اهل دمشق لما رأوا تأخر العساكر المصرية وقدوم التتار، «ايقنوا ان لا قوة لهم ولا ناصر. فعجت اصوات الاكابر منهم والاصاغر. واعلن سوادهم بالشتم الظاهر.»قال «وبينا انا مفكر في هذا الامر مرّ بي بريد راكض فسألته عن السلطان فأخبر باقترابه . ووصوله في اطلابه. فقصدت تحقيق روايته والوقوف على كتبه فاخذتها منه غصباً .واوجعته ضرباً . لما كنت فيه من التحرق على الاسلام . والقلق الذي منع الاجفـان لذيذ المنام. فلما وقفت على الكتب. وتيقنت وصول السلطان عن كثب. قرأتها على الامراء. واخذت في رد العساكر التي قصدت التأخير . وعجلت الى الرجوع المسير . ليعودوا الى مرج الصُفَّر فتراجعوا اليه اولاً فاولاً. وسكن بعض من كان مُجفلاً.» (ق ١٥٤ ا)

قال المصنف (بيبرس الدوادار) :

« ووافى الينا من الديار المصرية جواب عن كتاب صدر منا بالبشرى الى نوابنا تضمن ابياتاً ارسلها سطر تاريخنا هذا لانه كان من ألزامنا . (حاشية : وهو القس الشمس بن كبر نيح الله نفسه امين) وهي

خُلقت مظفراً براً وبحراً وعزمك ماضياً شاماً ومصرا
وفكرك ثاقب في كل امر ورأيك اسعد الآراء طرّا
وما سارت ركابك في جيوش فشتتهم يد العدوان قسرا
ولا كنت المقدم في خميس فعاد بخيبة او خاف كسرا
ولا وليت عن حرب هزيماً ولو كان اللقاء بجيش كسرى

ولا صاحبت ركبًا في مسير　　فنال مشقة او ذاق عسرا
وجدّك سعده ابدًا جديد　　وسعدك جالب للترك نصرا.
نهدت الى الحجاز فكنت غيثًا　　فكم اطفأت حين أطفت جمرا
وسرت الى الشآم فكنت غوثًا　　رفعت مذلّة ووضعت إصرا
فعام فيه حجّ حاز اجرًا　　وعام فيه غزو كان اجرى
كذا كان الرشيد وانت حقًّا　　رشيد الامر في دنيا واخرى
واعتقت الخلائق من عدوّ　　شديد رام اخذ الملك قهرا
عدوٌّ غرّه امل كذوب　　فكان على الحقيقة فيه غِرًّا f° 107a
وغرّته السلامة عام تسع　　وتسعين فظن الريح زمرا
توغّل في البلاد وليس يدري　　بان امامه اسدًا هزبرا.
اتت بشراك مولانا الينا　　فكانت للخلائق خير بشرى
لأن الخلق كانوا في هموم　　كأن بهم من الأوجال سكرا
فاول قادم وافى بخير　　كتابكم الذي اسرى وسرّا
ومنه كان نشر النصر بديًا　　بمصر كلها بطنًا وظهرا f° 107b
اتى ظُهرًا من الاحد المهنّى　　فاظهر فرحة اذ جاء ظهرا
ومذ وافى نهارًا فهو شمس　　ولو وافى بليل كان فجرا
واخبر عن عدوّ الدين امرًا　　حقيقًا لا نزيد عليه خُبرا
بمرج الصُفّر اجتمعوا فراحوا　　لحينهم من الارواح صفرا
وامرهم به اضحى مريجًا　　وورِدهم المكدّر كان مرًّا
وجازوا في جموع ليس تحصى　　الوف طبقت سهلًا ووعرا
فصاروا كلهم للوحش قوتًا　　واشبع لحمهم في الجوّ نسرا
وشتّت شملهم ضربًا وطعنًا　　مليك ينشر الاعلام صُفرا
اذا ما اورد الرايات صُفرًا　　صَدَرن من الدماء الحمر حمرا
وقرّت اعين وهدت قلوب　　واكباد من الاشجان حرّى
فبادرنا السجود واي شكر　　يوازي هذه الالطاف قدرا
وجاءتنا البشائر مسرعات　　فاذهب بشرها كمدًا وفكرا

فندعو الله في قرب التلاقي لكي نوفي لرب العرش نذرا
كلاك الله بالأملاك حفظاً وصانك دائماً سفرًا وحضرا f° 108 a

والقصيدة في الاصل تبلغ ٤٨ بيتاً اخترنا منها ما تقدم. وهي، على جزالتها، تبعد جدًّا ان تكون من نظم ابن كبر. وهيهات ان يكون لقس قبطي مثل هذه القدرة على النظم. فلعله استعار لها لسان غيره من الشعراء. ولا يمكن البتّ في هذا الحكم قبل الوقوف على شواهد اخرى.

دفائن الخزائن

المقفّى لتقي الدين المقريزي

والتاريخ القصصي او الفكاهي

في خزانة جامعة ليدن في هولاندة ثلاثة مجلدات من هـذا المعجم النادر النفيس الذي جمع فيه الامام المقريزي تراجم من تقدمه وعـاصره من اعيان الاسلام. ومنه ايضاً مجلد رابع في دار الكتب الاهلية في باريس. وهـذه المجلدات الاربعة هي كل ما يُعرف من مسودات الكتاب التي انتهت الينـا بخط المؤلف. ولعلّه لم يتوفّر قط على تبييضها، او لم يمهله الاجل لانجازها. وفي عدة صفحات منها نقص ظاهر وبياض كثير. وتقديم وتـأخير. وبعض التشويش في التعليقات في الجزازات الملحقة بالاصول. وقلّ عـادةً ان تخلو مسودات كتاب من امثال هـذه الشوائب، او تتبرأ من شيء من اللحن او السهو في الرسم ككتابة المقريزي ألف بـلامين « اللف » . و« الأئمة » بلام واحدة بدلاً من اللائمة . و«لئن لا» في موضع لئلا . و« هناة» بالتاء المربوطة عوضاً عن هنات بالتاء المبسوطة . وهلم جرًّا من نظائر هذه الصغائر . ولا حاجة الى التنبيه على قيمة هذه المجلدات ورفعة شأنها وخطرها . وفيهـا من الفرائد والفوائد ما لم يجتمع في كتاب آخر . وقد استوقف نظرنا فيها خاصة بعض تراجم في اجزاء ليدن وردت فيها قطعة من اسماء الاحمـدين ، وطائفة كبيرة من المحمدين فقط . تجدر ان تُروى مثالاً على فضائل التاريخ القصصي

او الفكاهي لما امتازت به من الجدّة والنكتة والامتاع ، وهي التي ننوي نشرها هنا

ولا يخفى على احد من المتأدّبين ما في الكتب المصنّفة في السِيَر والوفيات من الضيق والفاقة والاملال ، لاطّرادهـا كلها على وتيرة واحـدة في القصّ والنصّ . والبعد عن كل استقصاء واغراب . وخلوّها من كل طرفة وملحة . واقتصارها ، في ما عدا شواهد النظم والنثر ، على ذكر الميلاد والحياة والوفاة ضمن دائرة حرجة من التقليد لا تكاد تتناول غير الاطوار المعروفة الظاهرة في كل بلد لكل احد . فليس هنالك شيء من الاشارة الى دِخلة المترجم وباطن سريرته وسجاياه . وما اتفق له او اشترك فيه من الحوادث والوقائع والنوادر الشائقة عن اخلاق عصره واحوال مجتمعه وعادات قومه ومصطلحات زمانه . فلا يجد الناظر فيها سوى ذكر الدروس والشيوخ والتقلّب في الرتب والمناصب بين ولاية وعزل وحلّ وترحال ، مما لا غناء كبير فيه للمؤرخ والمتأدب . ولعلّ اصحّ ما يُقال في الاعتذار عن نقص هذا الاسلوب وجفائه وتقليد الاواخر فيه ان الرواة والمصنّفين كانوا يتورّعون من حكاية بعض الاوصـاف والاخبـار لتخيُّلهم ان في ايرادها حطًّا من قدر الميت ومشاركة في تعييره والكشف عن نقائصه . واعتقادهم ان الراحل لا يجب ان يُشيَّع بغير الرحمة والثنـاء . ولا يُخلَّد ذكره الا باطراء المحامد والفضائل ، والاغضاء عن المساوئ والرذائـل . وهي الخطّة التي لا تزال متبعة مأثورة في الشرق في تأبين الاعيـان ولاسيما من رجال الدين . بحيث يتساوى عندهم الفاضل بالمفضول ويضيع على الخلف فرق ما بين المقصر والمجتهد من السلف . ومما يؤيد هذا الرأي ما حكاه المقريزي نفسه في مخطوطه المشار اليه في ترجمة محمد بن يزيـد المشهور بالمبرّد مؤلف كتاب «الكامل» قال : « قال ابو بكر التـاريخي ولولا اني اكره ان اكون عيّابًا للعلماء خاصة لاخبرتك عنهما (عن ثعلب والمبرّد) من الاخبار التي تزيد على اخبار محمد بن الجهم البرمكي . والكندي . وخالـد بن صفوان . والاصمعي في الامتاع .»

فهذا التحرّج اذن من « عيب العلماء » هو السبب الاكبر الذي كمّ افواه

النقلة والرواة ، وفاتنا من اجله معرفة سرّ اخلاق المتقدمين والوقوف على كل طريف وممتع من انبائهم وخصائص طباعهم . وحُرمنا بجريرتـه من فكاهة تاريخ العصور السالفة ، ونوادر حضارتها واحاديث انديتها واسمارها ، وشجون هزلها وجدّها . بحيث تجرد علم التراجم بدونها من لُباب الاخبـار والآثار ، واصبح علماً تافهاً لا طعم له ولا طلاوة الا في ما شذّ وندر . ومن هذا الشاذ والنادر ما اتفق للمقريزي نقله في التراجم الآتية التي يلذّ لنا جدّاً ايرادها هنا لما اجتمع فيها من غُرر الفوائد والمُلح . واطيبهـا دون مراء ترجمة « مزبلة العلم » . ولا نذكر اننا وقفنا في كل مطالعاتنا على احلى منها مذاقاً واخف على الروح . وهي حافلة بالغرائب والمضحكات . ونظيرها ترجمة القاضي ابي زرعة ، ولا تكاد تقلّ عنها في الاعجاب والاطراب . ومن مطالعة هذه التراجم التي اثبتنا عيونها يتضح لكل متأدّب ما يمكن اقتباسه من التـاريخ الفكاهي من التعليقات والاستدراكات على تاريخ الادب والحضارة واخبار الدول والمتغلّبين في الاسلام :

احمد بن محمد ابو الفرج بن كشاجم

(قراءته نقش فصوص الخواتم باللمس قبل اختراع قراءة العميان)

احمد بن محمود بن الحسين بن السنـدي بن شاهك بن زادان بن شهريار ابو الفرج ابن ابي الفتح كشاجم ... كان يقرأ نقش فص الخاتم باللمس خاصة دون الرؤية . وكان عند كافور رجل يعرف بالقـاضي الخرساوي وهو القاضي ابو عبد الله محمد بن عبدالله بن محمد بن الخصيب قاضي مصر بعد ابيه . اذا صُفع عرف من يصفعهُ بوقع يده على رقبته من غير ان يبصره . فيقول هذه يد فلان . فعمل ابن كشاجم

انّي الى القاضي امتُّ بحرمة هي بيننا نسب كفرض لازم
حسّ الطيف في قفاه وفي يدي هو آية بهرت عقول العالم
فقفاه يفتقـد الاكف بحسّه ويداي تقرأ نقش فصّ الخاتم

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 A)

محمد بن ابي بكر بن عباس بن ابي بكر الجزري فخر الدين ابو عبدالله المعروف بابن ممدود

(تسخير جماله)

كان محتسب الجزيرة ثم ولي حسبة ماردين وخرج تاجرًا الى الشام وسار منها الى مصر . فوجد الامير علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف شاد الدواوين بناحية العبّاسية يسخّر الجمال . فاخذ جماله للسخرة . فاتاه وسأله اطلاقها فلم يلتفت اليه . فقال تُطلق جمالي وهو جيد لك . فقال له تعاسيف ايش تُعاني . فقال الادب . فقال اعمل شيئاً في تسخير جمالك . فقال بديهاً :

أسكّان مصر لا استقرت نفوسكم بأمنٍ وطالت في الزمان الاراجيف
ولا برحت عمّالكم ترجف الورى بشرٍّ تولّاه المشدُّ تعاسيف

وشرع يتمّ فقام اليه المعلم تعاسيف وقال له بسّ . واعتذر اليه واطلق جماله وجمال اهل القفل وكتب له بالوصية في بلبيس والقاهرة . فلم يزن الدرهم الفرد . واقام بمصر مدة وعاد الى دمشق فسكنها حتى مات بها في سنة تسع وستين وستمائة . وقد جاوز السبعين سنة . وكان من الادباء الفضلاء . وله مشاركة في علوم

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 A)

محمد بن بركات ابو عبدالله السعيدي النحوي اللغوي مزبلة العلم وخُمس الاسلام

(غرابة خاتمه وخُلقه وزيّه، ودنس ثيابه . علمه وحبه للتقعير والتشدّق وتحفظه كل متكلف . نادرته مع بائع الرطب . ابتياعه نفائس كتب خزانة القصر بمصر بثمن بعض الارغفة . قبيّوّده للمثول بين يدي السلطان، وتطيّبه، لضعف بصره، بقنينة الحبر بدلًا من قنينة ماء الورد . بعض شعره)

محمد بن بركات بن هلال بن عبد الواحد . وقيل محمد بن بركات بن علي ابن هلال بن عبد الواحد ابو عبدالله السعيدي النحوي اللغوي الصوفي من ولد سعد بن شرحبيل بن النوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد . تلميذ ابن بابشاد النحوي وشيخ مصر في النحو واللغة . ولد في المحرم سنة

عشرين واربعمائـــة . وادرك ابا يوسف يعقوب بن خرزاد النجيرمي ورآه وهو حي ، ولم يهتدِ للاخذ عنـــه ... وادرك الشدة العظمى التي كانت بمصر في سني ستين واربعمائة وما بعدها . وكان اذ ذاك لـــه اربعون سنة . وهو يقرأ على ابن بابشاد النحو .

وكان يحضر مائدة متولي الشرطة بمصر وكان يعلم اولاده ثم يأخذ رسمه رغيفين فيدفع احدهما لشيخه ابن بابشاد . وكان منقطعاً في سطح جامع عمرو ابن العاص للعبادة . ويبيع الرغيف الآخر في سوق زقاق القناديل باربعة عشر درهماً ويأخذ الدراهم ويطلع الى القاهرة يدفعهـــا للفراشين الموكلين بالايوان بخزانة الكتب بالقصر . فيأخذ بكل درهم كتاباً . فيتخيَّر الكتب المنسوبة وخطوط العلماء وكل مستحسن . ويأتي بعد ذلك الى سقف بيت قـــد اغلق بابه ونقب السقف فيرمي تلك الكتب منه . كذا كل يوم . فلم تمض الشدة الا وذلك البيت ملآن كتباً من كل فن . فكانت سبب غنائه عن الناس الى ان مات .

و بن عجيب الخلقة مهيّج الوجه طُوالاً يتعمَّم على طرطور فيـــه طول . ويتحنَّك بشيء من عمامته . وثيابه دنـــة ابداً . وكان يكثر التقعير والتشدق في كلامه . لا يتكلم الا باعراب وخطابـــة وتفخيم . وكان اذا حضر في موضع يرتاع منه كل متكلم لانه يعتمد لتخطئة كل من تكلم وجهاً يخطئه ويلحنه فيه فلا يكاد واحد يسلم منه . واتفق انه وقف ذات يوم على بيَّاع رطب يشتري منه . فقال البيّاع يا شيخ ممك ما تأخذ فيه هـــذا الرطب او ادفع لك دَوْخَلة[1] . فقال له ابن بركات اخطأت لا يجوز دَوْخَلَـــة وانما هي دوخلَّة بالتشديد . فَوعَلَّة على وزن قَوصَرَّة . فرفع البياع وجهه اليـــه فرأى شيخاً عجيب الخلقة وحشيّ الثياب بطرطور وقد تعمم فوقـــه . فظن انهُ من الريف . فقال والله يا مولاي الشيخ انك دوخلة . فقال ابن بركات دوخلَّـــة العلم لا دوخلَّة الرطب . فقال البياع لا والله الا دوخلة النحس . فضحـــك

١) في اللسان ومعاجم اللغة الدوخلَّة مشددة اللام سفيفة من خوص يوضع فيهـــا التمر والرطب وهي الدوخلة بالتخفيف ايضاً

الناس وبلغ الخبر الى الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش سلطان مصر بشكوى ابن بركات ما جرى عليه الى الوالي الذي يعلم اولاده . فاستدعى الافضل البياع ووهبه دنانير وضحك من القضية . وانفذ الى الشيخ مع الوالي دنانير ايضاً .

وكان في آخر عمره قد ضعف بصره فعمل قصيدة وسأل ولد ابن ابي أسامة كاتب الدست ان يحضره قدام الافضل ويتوسط له في المجلس ويحسن السفارة في حقه ليثيبه عليها . فتقرر له يوماً وبعث اليه اولاده وكانوا يقرؤون عليه . فقالوا له يا مولاي الشيخ لا يجب ان تحضر قدام السلطان بهذه الثياب القطن الدنسة . نحن نأخذ لك ثوباً نُصافياً[1] وعمامة جيدة وعَرضيّاً من الشَّرْب[2] . وتتبخر وتتطيب بماء الورد فتعود الى سيما الناس . ربما يدنيك السلطان ويحادثك فلا يرى منك الا ما يعجبه . فان الملوك لا صبر لهم على ما لا يعجبهم . فقال يا قوم والله انكم تطلبون مني تعديل ما أماله القدر . كذا خلقني الله عزّ وجلّ . وكذلك قُدّر لي فتتعبون فيّ ولا يكون الا ما قُدّر لي . فقالوا لا بد . فقال اعملوا ما شئتم . ففصّلوا له ثوباً من النصافي السابوري . وغلالة من الغزل المعروف بالطلي ومعها عمامة من الصقلي وعرضي من الشرب الرفيع . وجاؤوا بعود ند وماء ورد في قنينة كبيرة ثم واعدوه الغد وقالوا له تلبس الثياب وتبخر وتطيب واجلس حتى تحضر لك بغلة وتمضي . فقال افعل .

فلما كان السحر قام الشيخ ولبس ثيابه التي احضروها له وتطيب . ثم اخذ قنينة ماء الورد ليرشّها على وجهه ولحيته . فغلط واخذ قنينة الحبر ورشّ منها على وجهه ولحيته وعمامته وثيابه فصار سخاماً من قرنه الى قدمه . فلما جاء .

---

١) النُصافي كذا بالضم جمع نُصفيّة وهي ثوب من الحرير والكتان . وقد تكون من القطن وحده ومنها النصافي الخزيّة نسبة الى حزّة بُليدة قرب اربل من ارض الموصل وهي ثياب قطن ردية (ياقوت : معجم البلدان . طبعة اوربة ٢ : ٢٦٢) ولبعضهم في النصافي

يا من نُصافيه ونسأل وده   اذ كان فينا دائم الانصاف

اقبل هدية اهل ودّك انهم   قالوا كما اهدوا اليك نُصافي

(كتاب بنيان المشى لمحمد بن الحكم الشافعي . خزانة اكسفرد 19 Marsh. 490 f°)

٢) العَرضي بالفتح وياء النسبة جنس من الثياب . كذا في التاج دون نعت ولا تبيين . والشَّرب نسيج في غاية الرقة والنعومة من الكتان تعمل منه الثياب والعمائم والاقمشة الفاخرة .

القوم ورأوه بهتوا لانهم رأوا شيخاً اسود مسخّم الوجه كأنما مرّغته في زفت . فقالوا اي شي، هذا يا مولاي الشيخ . قال عاندكم للمقادير . اني اقول لكم ان الله سبحانه لم يخلقني الا على ضد ما تطلبون وانتم تعاندون . اردت ان آخذ قنينة ماء الورد فاخذت قنينة للحبر وانا في الظلام وبصري كما علمتم . ويجتي لم يبق البارحة عندي — وكان له بواب يسمى يجتي وكان من الصالحين — ثم قال والله الذي لا اله الا هو . ان صبغت ثيابي وكل ما عليّ الا ازرق . فقالوا لا تفعل فقال قد كان ذلك وصبغ ثيابه وكل ما عليه عند الصباغ . وبلغ الخبر الافضل فاحضره وسمع قصيدته ومنها :

يا رحمة الله التي واسعها لم يَخِقِ
لم يبقَ الا رمقي فاستبقي مني رمقي
تسعون عاماً قُيدت وتسعة في نسقِ
وعن قليل لا أرى كأنني لم أخلقِ

فوهبه وانعم عليه وقرّر لهِ شيئاً في كل وقت يكفيه

وذكر بعضهم انه وقف للافضل وهو راكب في الطريق وانشده هذه الابيات . فسأل عنه الافضل فقيل له هذا بحر العلم ابن بركات . فقال له الافضل انت شيخ معروف وفضلك موصوف وقد حملنا عنك الوقوف . وامر له بشي. . والاول اثبت فقد حكاه الشريف محمد بن اسعد الجواني ومن خطه نقلت في كتابه الذي سمّاه الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون

وقال السلفي « ابو عبد الله محمد بن بركات ثقة فاضل » . وكان ابن القطاع يقول فيه « مزبلة علم » . وقال ابن ميسّر عنه « وله كتاب في خطط مصر اجاد فيه ولم اقف عليه » . قال كاتبه « وقفت عليه بخط محمد بن اسعد الجواني »

وقال صاحب الجنان[1] « كان عالي المحل في النحو واللغة وسائر فنون الادب . منحطاً في الشعر الى ادنى الرتب . الا ان علو قدره لم يُجز اهمال ذكره » . واورد من شعره :

١) كتاب الجنان ورياض الاذهان للقاضي الرشيد ابي الحسن احمد بن الزبير

يا عُنُق الابريق من فضة ويا قوام الغصن الرطب[1]
هَبْكَ تجافيتَ فاقصيتني تقـدر ان تخرج من قلبي
وهبك صمّت على هجرتي رضيتُ ان اتلف في الحب
والله لو عـذّبتني جاهـداً ما قلت من حبي اذاً حسبي

ويقال انه قال هذه الابيات في مسافر العطار

ومن مصنفاته كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن سماه الايجاز في معرفة ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ . الّفه للافضل ابن امير الجيوش . وتوفي في شهر ربيع الاخر سنة عشرين وخمسمائة بعد استتمام مائة سنة . وكان يقول انا مُخمس الاسلام

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 A)

محمد بن عبيد الله الكاتب

(بيتان له في الملوخية)

محمد بن عبيد الله بن جبريل بن عبيد الله ابو عبد الله بن ابي محمد العارف جبريل الاخميمي الاصل المعروف بابن عبيد الله الكاتب في الانشاء . ولد بمصر سنة اربع وعشرين وستمائة . . . وله في ناصر الدين محمد بن كمال الدين ابن الاعز بن شكر

لناصر الدين ملوخية ابصرتها في عمري مره
اقول للناس وهم حولها تنزهوا في الماء والخضره

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 b f° 77 b)

القاضي محمد بن عثمان ابو زرعة الثقفي

(قاض بغير سراويل يعطي الحشيشة لتسكين اوجاع الضرس . يمشي برئا يسب جار له سكران . وصف زمانه وعرض امر له)

محمد بن عثمان بن ابرهيم بن زرعة بن ابي زرعة ابرهيم ابو زرعة الثقفي مولاهم قاضي مصر ودمشق . كان جدّ جدّه ابرهيم يهوديًا فاسلم . . . قال

---

١) ويروى هذا البيت ايضاً
يا عنق الابريق من عسجد ويا قضيب البانة الرطب

ابن يونس ولي قضاء مصر . وكان محمود الاثر وكتب عنه وكان ثقة . وابو زرعة هذا هو اول شافعي ولي قضاء مصر ... وكان الغالب عليه السلامة . وكان له مال كثير وضياع كبار بالشام . وكان قد قام مع احمد بن طولون في خلع ابي طلحة الموفق بالله بن المتوكل ووقف عند المنبر بجامع دمشق يوم الجمعة وقال : ايها الناس أشهدكم اني قد خلعت ابا احمد كما خلعت الخاتم من الاصبع فالعنوه . فلما قدم الموفق الى دمشق وواقع ابا الجيش خمارويه احمد بن طولون خارج الرملة وعاد الى دمشق اخذ يزيد بن عبد الصمد . وابا زرعة الدمشقي المحدث . وابا زرعة هذا وغيرهم .(ورحل) بهم الى بغداد . فلما كان في اثناء الطريق احضرهم وقال ايكم القائل « قد نزعت ابا احمد » . فخرس يزيد . وأبلس ابو زرعة الدمشقي . وكان احدثهم ابو زرعة محمد بن عثمان هذا فقال :اصلح الله الامير . فقال له احمد بن محمد الواسطي كاتب ابن طولون وقد صار مع الموفق : قف يا هذا حتى يتكلم اكبر منك . فقال ابو زرعة الدمشقي : اصلحك الله . هو يتكلم عنا . فقال : تكلم . قال : والله ما فينا هاشمي صريح ولا قرشي صحيح ولا عربي فصيح . ولكنا قوم مُلكنا وقُهرنا . ثم روى احاديث في السمع والطاعة . واحاديث في العفو والاحسان. وقال : إشهدك ايها الامير ان نسائي طوالق وعبيدي احرار ان كان احد في هؤلاء القوم قال هذه الكلمة . ووراءنا حُرم وعيال وقد تسامع الناس بهلاكنا . وقد قدرتَ وانما العفو بعد المقدرة . فقال للواسطي : أطلقهم لا كثّر الله امثالهم . فسار ابو زرعة الى حمص ثم قدم الى مصر وولي القضاء بدمشق من قبل الامير ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون لانه كان في عهده ان القضاء اليه ...

قال ابن زولاق :حدثني عبدالله بن عبد الكريم قال كان ابو زرعة خبيثاً مَكِرًا .ولما قدم الى مصر لزم احمد بن طولون وجعل يتردد اليه ويبكي ويصل خبره في كل ذلك الى ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون فاعجبه ذلك . ثم دخل الى ابي الجيش ومعه رغيف حوّارى ومنديل فقال له ايها الامير هذا رغيف ختمت عليه عشر ختمات وقرأت عليه عشرة آلاف « قل هو الله احد» .فاخذه منه

ابو الجيش وحُسْنَ موقعهُ منهُ . وكان سبباً لولايته القضاء بالشام .

ثم ولّي الامير ابو موسى هرون بن خمارويه ابا زرعة محمد بن عثمان قضاء مصر وفلسطين والاردن ودمشق وغيرها . فاقام بمصر . وكانت ولايته في سنة اربع وثمانين (ومائتين) فلم يزل والياً حتى (مات) هرون ودخل محمد بن سليم الكاتب الى مصر آخر صفر سنة اثنتين وتسعين . ولما خرج منها حمل ابا زرعة في من حمل معه الى بغداد ليلة الاحد ثالث رجب منها . وكانت ولاية ابي زرعة القضاء بمصر ثمان سنين وشهرين . وتوفي بدمشق في شوال سنة احدى وثلثمائة . وقيل مات في سنة اثنتين وثلثمائة . . .

وقال الحسن بن القاسم بن دحيم الدمشقي . وُلد للقاضي ابي زرعة ولد سماه الحسن وكناه ابا عبد الله . ثم ولد له آخر فسماه الحسين وكناه بابي محمد . . . وكان مهد ولده الحسين الى جانب قِمَطْرِهِ والشهود حوله . فاذا تحرك صاح بالداية « إلحقي حسيناً » . فتأتي ترضعه وهو ينظر اليه

وكان ابو زرعة يرقي من وجع الضرس ويقرأ عليه ويدفع الى صاحبه حشيشة توضع عليه فيسكن . ويتمنى طالب الحشيشة بدخول داره عن الحشيشة ويهدأ ضرسه بدخول الدار ويكون اخذه الحشيشة فضلاً . وكان له ستور يمسحه وهو ينظر الى الخصوم . . .

وزوّج ابو زرعة ابنه الحسين من ابنة ابي زنبور (الحسين بن احمد المادرائي) وكان إملاكاً عظيماً وذلك ان ابا زنبور شاور كيف يصنع بالإملاك فاختلفوا عليه . فقال دعوني الليلة . ثم اصبح فقال ارسلوا الى هذه المائة — وكتبهم في درج — يكونوا عندنا قبل صلاة الصبح . فاذا حصلوا فأغلقوا الباب . فجاء المائة . وخرج اليهم مائة غلام بمائة مدخنة ومائة نضّاح ماء ورد . ومائة قدح غالية . ومائة مرآة . ومائة مشط . فتبخروا . ثم قُرئ الكتاب وعقد النكاح . وخرج مائة غلام . ومائة ابريق . ومائة طشت . ومائة منديل . فغسلوا ايديهم . وخرجت عشر . موائد فجلس كل عشرة على مائدة فاكلوا . ثم خرج مائة غلام بمائة طشت . ومائة ابريق . ومائة منديل . ومائة مجمع فغسلوا غسل رجل واحد . ثم خرج مائة

غلام بمائة مدخنة ومائة درج[1]. ومائة نضّاح ماء ورد. ومائة منديل. ومائة مرآة لا ادري أهي الاولى ام غيرها فتبخروا. وخرجت مائة صينية فيها الدنانير والدراهم والتماثيل[2]. فأُلقيت في اكمام الناس. واخذ واحد العروس وابوه (كذا) ابو زرعة. فأُدخلا حجرة وخُلع عليهما وبُخرا وحُملا على دابتين وشاكرين. ورزق منها بنتاً زوّجها باحمد بن حسين العقيقي

وكان ابو زرعة كثير الشفقة رقيق القلب كثير السلم بحيث انه كان يغرم عن الضعفاء واهل الستر في النفقات والديون. وربما اراد قوم نزهة. فيأخذ الواحد بيد الآخر فيطالبه بالشيء. فيقر له ويبكي. فيرحمه ويزن عنه بعد ان يسأل خصمه فلا يجيبه. وكان له جار سفيه بجوار داره بمصر. وكان مدمناً لشرب المسكر. فجاء ليلة وهو سكران فجعل يقيء ويصيح. فقالت له زوجته: اياك يسمعك القاضي فقال لها انت طالق ثلاثاً ان لم يغنيني (كذا) القاضي في هذه الليلة. فبكت المرأة واولادها حتى سمع جماعة القاضي رجّتهم فاستخبروهم فحدثوهم بما وقع. فمضت الجواري الى القاضي وحدّثنه بذلك على طريق التعجب. فقال لهم افتحوا الباب وجيئوني به. فلما دخل عليه قال له ما حملك على ما قلت وحلفت عليه. فقال الجاهل اعز الله القاضي. فقال له القاضي قد كان يقال (وغنّاه)

ليس للنرجس عهد انما العهد للآس
نقض النرجس عهداً وبقي العهد للآس (كذا)

قد خرجت من يمينك. والله لولا الجوار لارسلت بك الى السلطان حتى يؤدبك. ولئن عدت لأقومنك...

وقال ابو زرعة كنت ببغداد في مجلس عبيد الله بن سليمان الوزير. فقال لي يا ابا زرعة بلغني ان القضاة والشهود بالشام يركبون الدواب بالخفاف بلا سراويلات. فأنكرت ذلك وقلت هذا كذب أيد الله الوزير. وكنت بغير سراويل. فعاهدت الله ان سلمت وقمت من مجلسه الا افعله ابداً. وان أعتق كذا وكذا مملوكاً. فسلّم الله ان نهضت ولم يتحنى بالتفتيش

---

١) الدرج هنا هو ما يوضع البخور فيه (الملفى ص ٢٠٧)

٢) التماثيل هي شخوص وحيوانات كانت تصنع من الند والعنبر وتهدى في الاعياد والمواسم

وكان ابو زرعة أكولًا يأكل سل مشمش وسل تين وسل خوخ وما اشبه ذلك. وكان قد اختص بأبي الحسن علان بن سليم احد الشهود بمصر وقدمه واودعه. وكان يقال انما ولي ابو زرعة القاضي القضا. لعلان وحده

(خزانة جامعة ليدن 87–85 Arabe 1366 b fº)

قاضي القضاة شمس الدين بن الحريري

(كان له نقيبة في داره تتلقاه من الباب وتمشي امامه بين صفّين من نسائه وهي تنادي بنعوته والقابه بتفخيم وتفعير)

محمد بن عثمان بن ابي الحسن بن عبد الوهاب قاضي القضاة شمس الدين ابو عبدالله ابن صفي الدين ابي عمرو بن زكي الدين المعروف بابن الحريري — نسبة الى الحرير فان اباه كان يعاني بيعه — الانصاري الدمشقي الحنفي. ولد بدمشق في عاشر صفر سنة ثلث وخمسين وستمائة... وصار إماماً في الفقه مشاركاً في علوم كثيرة. ودرَّس في عدة مدارس بدمشق كالظاهرية والصادرية والخاتونية ثم ولي قضاء القضاة الحنفية في سادس جمادى الاخرة سنة احدى وسبع مائة... واستدعي الى القاهرة فخرج من دمشق يوم الاثنين العشرين من ربيع الاول سنة عشر وسبعمائة وقدم القاهرة في اول ربيع الاخر فخلع عليه وباشر الحكم. ودرَّس... وسار سيرة جميلة... وتشدد في ولايته على ارباب الجاه الا انه كان يبالغ في تعظيم نفسه حتى انه كان له امرأة جعلها نقيبة في دار حرمه فاذا دخل عليهنَّ تلقته النقيبة من الباب ومشت بين يديه وهي تقول: بسم الله. سيدنا ومولانا قاضي القضاة. ونعوت كثيرة فيها تفخيم وتفعير حتى ينتهي الى مرتبة عالية في صدر بيته فيجلس عليها وتقف نساء داره بأجمعهنَّ بين يديه بادب زائد وسكون؛ فيلتفت الى زوجته ويقول لها أكرمي النقيبة فانها تعظِّم بعلك...

واتفق له عزله عن قضاء مصر. وسببه ان الامير بكتمر الساقي لما انشأ له السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون دارًا في ارض الميدان المُطل على بركة الفيل وادخل فيه دار الامير سلار واخوته قصد توسعة اصطبل هذه الدار بادخال قطعة من البركة فيه. والبركة من اوقاف الملك الظاهر بيبرس البندقداري على ذريته. فتقدم الى القاضي ابن الحريري باستبدال ما يحتاج اليه من ارض البركة

بخير منه كما هو مذهب الحنفية في استبدال الاوقاف. فامتنع من ذلك وفاوض السلطان بسببه مفاوضة أدّت الى تنافس... وقام من مجلس السلطان وكل منهما قد امتلأ غضباً. وكان مع ذلك قد تقدم له غير مرة إهانة النصارى من الكتاب وغيرهم و إلزامهم الصغار. واذا وجد احداً منهم راكباً انزله وضربه ونكل به. واذا وجده ماشياً وعليه ثياب سريّة اهانه. فضاق ذرع الاقباط به ولم يجدوا سبيلًا الى الطعن عليه. وكان كبير الدولة وعظيمها يومئذ كريم الدين اكرم بن هبة الله ناظر الخاص. فلما قام ابن الحريري من مجلس السلطان وهو مغضب وجد القبط السبيل الى كيده...

ثم أُعيد الى قضاء مصر بعد ان أفرزت عنه ولم يبقَ معه غير قضاء القاهرة. ومات في يوم السبت خامس جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366 b f° 88–89)

عماد الدين الكاتب الاصفهاني

(حرصه على الدنيا ودناءة نفسه ووصف اخلاقه. حرّده على السلطان صلاح الدين وتعصب القاضي الفاضل له)

محمد بن محمد بن حامد... بن ألُه ابو حامد عماد الدين المعروف بابن اخي العزيز الاصفهاني الشافعي الكاتب. مولده باصفهان في يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة. وقيل في شعبان سنة تسع عشرة وخمس مائة. وتوفي بدمشق ليلة الاثنين في مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمس مائة. ودفن بمقابر الصوفية... وكان محل الثقة من القاضي الفاضل آمناً من توثبه عليه. ولهذا كان يطمئن اليه اذا غاب مع السلطان. وكان رحمه الله شديد الحرص على تحصيل الدنيا. وكان الفاضل يلومه ويعتبه ويعذله ويؤنبه على ذلك فلا يرعوي... وله في هذا حكايات. منها ان رجلًا من اهل حمص جاءه بطبق كيزان وتفصيلة كتان. قيمة ذلك كله نحو خمسين درهماً وسأل حاجة. فاخذ قصته وقرأها على السلطان وكان قد بلغه الخبر. فلم يُجبه. فاعاد العماد عرض القصة وقراءتها مرات في مجالس عدة والسلطان لا يأمر فيها ولا ينهى. ففطن العماد وعلم ان الخبر قد اتصل بالسلطان. فاعاد عرض القصة فلما لم يُجبه عنها. قال يا مولانا الطبق الذي احضره صاحب هذه

القصة باقر الى الآن لم اتصرف فيه. فان كان ما ينقضي شغله اعدت عليه طبقه. فضحك السلطان وعجب من دناءة نفسه وامر بقضاء شغل الرجل.

وكان شديد التهافت على اخذ الختوم الذهب التي تجي على كتب الفرنج. فوصل منهم كتاب بغير حضوره. ففتحه السلطان بيده واخذ بعض الحاشية الختم. فلما جاء العماد قيل له اكتب جواب هذا الكتاب فقال يكتب جوابه من اخذ الختم. فعزّ قوله على السلطان وقال له: قم اخرج. الوقت ما هو محتاج اليك. فاتى الى الفاضل وعرّفه ما كان. فقال له رُح الى الخانكاه واقعد بها مع الفقراء والبس زيّهم فاذا طلبك السلطان قل انا قد دخلت في امر لا اخرج منه. ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مترضياً. ثم لم يلبث الفاضل حتى اتته رسل السلطان في طلبه. فلما اتاه شكا اليه العماد . وقال لهُ اكتب جواب هـذا الكتاب فقال والله ما اعرف ما اكتب فيه لان العماد كان بصدد هذه الكتب ولا يعرفها سواه. ولم يزل يتلطف بالسلطان حتى قال: اطلبه. فبعث في طلبه فلم يحضر واعتذر فعظّم الفاضل الامر وكرّر الرسل في طلبه وهو لا يحضر. فقال الفاضل انا اروح خلفه واتلطف به. فوالله هذا باب ما يسدّه سواه. ثم ذهب واطال المكث وعاد الى السلطان وقال قد حرصت به ورأيته مقبلًا على ما دخل فيه اقبالًا ما اظنه بقي يخرج عنه. وما ضرّ السلطان لو زار الفقراء. وترضّى عبده. ولم يزل به حتى اتاه وترضّاه. ومن شعره . . . .

هي كتبي فليس تصلح من بعـ ـدي لغير العطار والاسكافي
هي اما مزاود العـقاقيـ ـر واما بطائن الخفاف

وكان ذا قدرة على النظم والنثر وشعره الطف من نثره لانه اكثر فيه من الجناس وبالغ حتى صار كلامه كأنه ضرب من الرقى والعزائم . . . وقال القاضي الفاضل لجلسائه بمَ تشبهون العماد . وكان عنـده فترة عظيمة وجمود في النظر والكلام. فاذا اخذ القلم اتى بالنظم والنثر. فكلهم شبّهه بشي. . فقال ما اصبتم. هو كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار. ولما فرغ من كتاب الخريدة جهزها الى القاضي الفاضل في ثمانية اجزاء. فقال: اين الآخران. لانه قال: خري دَهْ يعني «خري عشرة». فان دَهْ بالفارسية عشرة. ومن هنا اخذ ابن سناء الملك قوله فيها:

خريدهُ أنيهِ من نتنها كأنها من بعض انفاسهِ
فنصفها الاول في ذقنه ونصفها الآخر في راسهِ

ولما قدم دمشق سنة اثنتين وستين وخمسمائة تعرف بمدبّر الدولة القاضي كمال الدين الشهرزوري. وكان قد اتصل في طريقه بنجم الدين ايوب لمعرفة كانت بينه وبين عمه العزيز بتكريت. فاستخدمه كمال الدين عند السلطان نور الدين في الانشاء. فجبُنَ اولًا. ثم ترقت منزلته عند السلطان وبعثه في الرسالة الى الامام المستنجد بالله. وفوض اليه تدريس المدرسة المعروفة بالعمادية بدمشق. ورتبه في إشراف الديوان. فلما مات نور الدين وقام من بعده ابنه تنكّرت احواله فعاد الى العراق. فلما بلغه وصول السلطان صلاح الدين يوسف الى دمشق واخذها عاد الى الشام والسلطان على حلب. فمدحه ولقي القاضي الفاضل على حمص ومدحه بقصيدة. فدخل على السلطان وقال له غدًا يأتيك تراجم الاعاجم وما يحلّها مثل العماد. فقال له مالي عنك مندوحة. انت كاتبي ووزيري ورأيت على وجهك البركة فاذا استكتبتُ غيرك تحدث الناس. فقال: العماد يحلّ التراجم وربما اغيب انا فاذا غبت قام مقامي. وقد عرفت فضله وخدمته لنور الدين. فاستخدمه عند ذلك واطلعه على سره. . .

وكان يضاهي الوزراء. فاذا انقطع الفاضل بمصر لمصالح السلطان قام العماد مقامه. فلم يزل على ذلك حتى مات السلطان فاختلّت احواله ولم يجد في وجهه بابًا مفتوحًا فلازم بيته. واقبل على التصنيف بقية عمره وتأخرت وفاته بعد الفاضل سنة

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366c f° 99-101 b)

كمال الدين الدميري

(افراط نهمه في شبيبته واكله الثمار بنواها)

محمد بن موسى بن عيسى الشيخ المفتن الناسك كمال الدين ابو البقا الدميري الشافعي. برع في الفقه والوعظ ودرس في عدة اماكن وافتى عدة سنين ووعظ الناس زمانًا. وكان على وعظه قبول. واقبل في آخر عمره على النسك ورتب ليله ونهاره لوظائف العبادة حتى مات في ليلة الثلاثا ثالث جمادى الاولى سنة ثمان

وثماني مائة عن ست وستين سنة. وله عدة مصنفات منها . . . كتاب حياة الحيوان.
وكان حسن المعاشرة جميل المحاضرة كثير التواضع متوددًا الى الناس محبّبًا عندهم
غزير الدمعة مُعتَقدًا فيه الخير. وكان في شبيبته اكولًا الى الغاية مفرط النهمة. له
في ذلك اخبار عجيبة. منها ما اخبرني به الفقيه العالم صلاح الدين محمد بن الاعمى
الحنبلي رحمه الله قال كنت والكمال الدميري متجاورين بمدرسة الجمالي من
القاهرة. فجلسنا يومًا لنأكل برقوقًا فقلت له لا ترمِ نواه من ههنا لئن لا يقف
علينا الذباب ولكن ألقهِ هناك. فقال لي ما رميت قط نوى برقوق ولا خوخ ولا
مشمش ولكن آكل ذلك كله بنواه. فتعجبت من ذلك. ومرّ لي زمن فحدثت
بذلك صاحبنا ابا الطيب بن القوّي المدني رحمه الله فقال لي أحدثك عنه باعجب
من هذا. وهو انه جاور بالمدينة النبوية فاكل بحضوري صاع تمر بنواه. ثم انه
رحمه الله في آخر عمره لم يكن عنده من ذلك شيء. وكان يأكل اكلًا معتدلًا.
ثم اقام سنين يصوم الدهر. وكان له نظم جيد ومحفوظات كثيرة سيما في الحديث
واخبار الرواة. وبالجملة فلم يخلف بعده مثله في معناه

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366" f° 113)

الشيخ نجم الدين ابو البركات الخبوشاني الصوفي

(سبّه الدولة الفاطمية قبل انقراضها وقطعه الخطبة باسمها. جرأته على السلطان صلاح
الدين ووكزه اياه بعصا اسقطت قلنسوته ودعاؤه عليه بالفشل وعدم النصر.
إنكاره بيع المزر وشتمه من اجله تقي الدين عمر ابن اخي السلطان
وضربه رسوله. صياحه في وجه القاضي الفاضل)

محمد بن موفق بن علي بن سعيد بن الحسن بن عبدالله الشيخ الزاهد نجم
الدين ابو البركات بن ابي المطهر الخُبوشاني الصوفي الشافعي. مولده باستوا خبوشان
في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة عشر وخمسمائة. وتفقه بنيسابور على محمد
ابن يحيى. وكان يقول اصعد الى مصر وأُزيل بني عُبيد. فقدم الى مصر سنة خمس
وستين وخمسمائة ونزل في بعض مساجدها. فاتفق ان الخليفة العاضد لدين الله
ابا محمد عبدالله بن يوسف رأى في منامه انه بمدينة مصر وقد خرج اليه عقرب

من مسجد معروف بها فلدغهُ . فانتبه مذعورًا واستدعى عابر الرؤيا وقص عليه ما رأى . فقال ينال امير المؤمنين مكروه من شخص مقيم بهذا المسجد . فالزم الوالي باحضار من في المسجد . فمضى اليه واحضر منه رجلًا صوفيًا . فسأله العاضد من اين هو ومتى قدم مصر وفي اي شيء جاء . فاجابه عن ذلك ولم يظهر منه للعاضد ما يريبه بل تبين منه ضعف الحال مع الصدق . فدفع اليه مالًا وقال له يا شيخ ادعُ لنا وخلّاه لسبيله . فعاد الى مسجده ولم يزل به حتى قدم شيركوه من دمشق وقام في وزارة العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب وشرع في إزالة الدولة واستفتى فقهاء مصر فكان اشدَّهم مبالغة في الفتيا وعدد مساوئ القوم وسلب عنهم الايمان واطال القول في الحط عليهم . وعندما عزم صلاح الدين على قطع اسم العاضد من الخطبة لم يتجاسر احد ان يأمر الخطيب بذلك الا الخبوشاني فانه قام يوم جمعة وفي يده جريدة وامر الخطيب بقطع اسم العاضد فانقطع اسمه من يومئذ وصدقت رؤيا العاضد . فلما استبد السلطان صلاح الدين بمملكة مصر قرَّبه واكرمه وبالغ في اعتقاد دينه وعلمه . فاشار على السلطان بعمارة المدرسة بجوار قبر الامام الشافعي . فامتثل ذلك وتبتل الخبوشاني بعمارتها حتى كملت ودرَّس بها وسكن فيها الى ان مات هناك في يوم الاربعا الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٨٧ . . .

وخبوشان بليدة بناحية نيسابور . وكان من ورعه اذا ركب الحمار يجعل تحته اكسية لئلا يصل اليه عرقه . واتاه السلطان الملك العزيز عثمان ليزوره وصافحه . فاستدعى بماء وغسل يديه وقال يا ولدي انت تمسك العنان . ولا يتوقى الغلمان النجاسة . اغسل وجهك فانك بعد المصافحة لمست وجهك . فقال نعم وغسل وجهه . ولما خرج السلطان صلاح الدين الى الفرنج نوبة الرملة جاء الى الخبوشاني ليودعه . والتمس منه امورًا من المكوس ليسقطها عن الناس فلم يفعل . فقال له قم لا نصرك الله . ووكزه بعصا فوقعت قلنسوة السلطان عن رأسه . فوجم السلطان ثم توجه الى الحرب فانكسر وعاد الى الشيخ وقبل يده فظن ان ذلك بدعوته واذعن لكلامه .

وكان لتقي الدين عمر ابن اخي السلطان مواضع يباع فيها المزر . فكتب

الشيخ ورقة الى السلطان فيها: ان هذا عمر لا جبره الله يبيع المزر . فسيّرها الى عمر وقال لا طاقة لنا بهذا الشيخ فأرضه. فركب اليه. فقال له حاجبه قف بباب المدرسة حتى اسبقك اليه واوطّي لك . ثم دخل وقال تقي الدين يسلّم عليك فقال بل شقي الدين لا سلّم الله عليه. قال انه يعتذر ويقول ليس لي موضع يباع فيه المزر. فقال يكذب. فقال ان كان هناك موضع مزر فأرناهُ . فقال ادنُ. وامسك ذؤابتيه وجعل يلطم وجهه وخديه ويقول لستُ مزّارًا فاعرف مواضع المزر. ثم تركه وخرج الى تقي الدين فقال فديتك بنفسي

واتاه القاضي الفاضل يوماً وهو يلقي الدرس على كرسي ضيق . فجلس على طرفه وجنبه الى قبر الشافعي. فصاح فيه قم. ظهرك الى الامام . فقال ان كنت مستدبره بقالبي فانا مستقبله بقلبي. فصاح فيه ما تعبدنا بهذا. فخرج وهو لا يعقل

وقال انه كان يصرّح بسبّ الدولة المصرية قبل انقراضها. فبعثوا اليه باربعة آلاف دينار. فنهض الى الذي احضرها وهو بذاك الزي الهائل وقال له وقد اشتد غضبه ويلك ما هذه البدعة. فالقى اليه ما معه بين يديه. فضربه على رأسه حتى تحلقت عمامته في حلقه. وانزله ورمى بالدنانير على رأسه وسب اهل القصر

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366^c f° 118-119)

القاضي محمد بن مسروق الكندي الاعور قاضي مصر

(تشدّده في الحكم وإنصافه من السأّل. شدة تجبره وانقطاعه عن حضور مجالس الامراء. شتمه اهل مصر وضربه وكيل زيدة امرأة هرون الرشيد. كان اول من ادخل النصارى المسجد وقضى عليهم فيه. واول من اتخذ القمطر للكتب)

محمد بن مسروق بن معدان بن المرزبان . . . بن معوية بن كندة. القاضي ابو عبد الرحمن الكندي الكوفي الحنفي الاعور قاضي مصر . . . وليَ قضاء مصر من قبل امير المؤمنين هرون الرشيد بعد المفضَّل بن فضالة. فسار من بغداد الى مصر وقدمها في خامس صفر سنة سبع وسبعين ومائة. والامير يومئذ عبدالله بن المسيب الضبي وباشر القضاء. فتشدد في الحكم وأعدى على العمال وانصف منهم. واظهر تجبرًا عظيماً وباعد الخصوم. وكانت عادة امراء مصر يحضرون القضاة الى

مجالسهم. فبعث اليه عبدالله بن المسيَّب يامره بحضور مجلسه. فقال لو كنت تقدمت اليك في هذا لفعلت وفعلت يا كذا يا كذا. فانقطع حضور القضاة مجلس الامراء من يومئذ. واتخذ ايضاً قوماً من اهل مصر للشهادة رسمهم بها واوقف سائر الناس فوثبوا به ووثب بهم. فشتموه وشتمهم. وكانت منه هِناة (كذا) الى اشرافهم. وخوصم هاشم بن حديج اليه فقال له انما انت من السكون ولست من الاملاك. فقال له هاشم ليس لهذا حضرنا. والله لا حضرت لك مجلساً ابداً ومن تظلم اليك مني فأعدِه علي واقض له في مالي بما يرغبه. وكانت اموال اليتامى والاوقاف والغيب ترد الى بيت المال منذ زمن ابي جعفر المنصور الى ايام الرشيد. فلما ولي محمد بن مسروق وتحامل على الناس اساؤوا عليه الثناء والذكر واشاعوا عليه انه عزم على حمل ما في بيت المال من هذه الاموال الى هرون الرشيد ببغداد. فقام ابو اسحق الحوفي فنادى في المسجد الجامع ودعا على محمد بن مسروق فاحضره ابن مسروق وناله بمكروه. فزاد اهل مصر في مقته. فعندما اكثر اهل المسجد في ذمه. وقف على باب المقصورة ونادى بصوته اين اصحاب الاكسية العسلية. اين بني (كذا) البغايا. لِمَ لا يتكلم منهم متكلم بما شاء. حتى يرى ويسمع. فما تكلم احد بكلمة.

وكان القضاة بمصر لا يقضون على النصارى بالمسجد وانما يجلسون لهم يوماً في منازلهم. واول من ادخلهم المسجد محمد بن مسروق...

ولم يكن قبله لقضاة مصر قِمَطْر. انما كان كاتب القاضي يحضر ومعه الكتب في منديل. فاول من جعل له القمطر بمصر محمد بن مسروق. وكان يختم القمطر ويودعه فاذا جلس احضره. وكان يروح من الموقف الى المسجد ماشياً. وخوصم اليه عبد الرحمن وكيل السيدة زبيدة بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور امرأة هرون الرشيد فامر باحضاره فجلس مع خصمه متربعاً. فامر به فَبُطِح وضرب عشراً. فنماه الى مولاته زبيدة. وتشدد ايضاً على عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز ابن عمر بن عبد الرحمن بن عوف فشخص من مصر الى الرقة ونماه ورفده القرشيون هناك وكلّم فيه ابا البختري حتى عزله. فلما بلغه العزل خرج من مصر قبل ان يقدم الذي استقضاه ابو البختري واستخلف على مصر اسحق بن الفرات

غضباً عليهم وذلك سنة اربع وثمانين وقيل سنة خمس وثمانين ومائة . ويقال انه مات فيها . . .

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366ᶜ fᵒˢ 121-122)

محمد بن يزيد ابو العباس المبرّد

(افراطه في البخل واحتجاجه له . استثاره في بيته لتناول الطعام . قدومه بغداد واحتياله في المسجد لجذب الناس اليه . إرسال ثعلب له من تلاميذه من يفاتشه وانقطاع الزجّاج منهم اليه . اختلاف القول في تلقيبه بالمبرد)

محمد بن يزيد . . . ابو العباس الازدي ثم الثمالي المعروف بالمبرّد . . . كان من ابخل الناس بكل شيء . وبلغه ان ابا عبيدة بن المثنى قال لا يكون نحوي شجاعاً . قيل له وكيف . قال ترونه يفرق بين الساكن والمتحرك ولا يفرق بين الموت والحياة . فقال وانا اقول لا يكون نحوي جواداً فقيل له وكيف ذلك . قال ترونه يفرق بين الهمزتين ولا يفرق بين سبب الغنى والفقر . يريد ان الإمساك سبب من اسباب الغنى والعطا سبب من اسباب الفقر . وقال ما وضعت بجذاء الدرهم شيئاً قط الا رجح الدرهم في نفسي عليه . هذا مع سعة كان فيها ووجد . وكان ثعلب على مثل ما كان عليه المبرد في الامساك وفوقه في السعة . غير ان المبرد كان يسأل سؤالاً صراحاً . وكان ثعلب يعرّض ولا يصرّح

قال ابو بكر التاريخي ولولا اني اكره ان اكون عيّاباً للعلماء خاصة لاخبرتك عنهما (عن ثعلب والمبرد) من الاخبار التي تزيد على اخبار محمد بن الجهم البرمكي والكندي وخالد بن صفوان والاصمعي في الإمتاع . وهو من لم يأكل عند احد في عصرنا شيئاً قط ولا رآه احد يأكل ولا يشرب ولقد كان عفا الله عنه وعنا معه في المنزل من اقاربه سكان . فسألناهم عن خبره في ماكله ومشربه فذكروا انه كان اذا اراد الأكل دخل البيت ورد الباب في وجهه او طرح الستر فلا يعلم احد منهم بشيء من امره

قال لما قُتل المتوكل بسرّ من رأى رحل المبرد الى بغداد فقدم بلداً لا عهد له باهله . فاختلّ وادركته الحاجة . فتوخى شهود صلاة الجمعة . فلما قُضيت الصلاة

اقبل على بعض من حضر وساله ان يفاتحه السؤال ليتسبب له القول. فلم يكن عند من حضر علم. فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفتر. يوهم بذلك انه قد سُئل فصارت حوله حلقة عظيمة وهو يصل في ذلك كلامه. فتشوَّف ثعلب الى الحلقة. وكان كثيرًا ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوي النظر فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم. فاذا بصر بهم ثعلب ارسل من تلاميذه من يفاتشهم فاذا انقطعوا عن الجواب انفض الناس عنهم. فلما نظر ثعلب الى من حول المبرد امر ابراهيم بن السري الزجاج وابن الخائك بالنهوض. وقال لهما فُضّا الحلقة. ونهض معهما من حضر من اصحابه. فلما صاروا بين يديه. قال له ابرهيم السري اتأذن لي اعزك الله في المفاتشة. قال المبرد سل عما احببت. فساله عن مسألة فاجاب فيها بجواب اقنعه. فنظر الزجاج في وجوه اصحابه متعجباً من تجويد المبرد للجواب. فلما انقضى ذلك قال له ابو العباس اقنعت بالجواب فقال نعم. قال فان قال لك قائل في جوابنا هذا كذا ما انت راجع اليه. وجعل ابو العباس المبرد يوهن جواب المسألة ويفسده ويعتلّ فيه. فبقي الزجاج سادرًا لا يحير جواباً. ثم قال ان رأى الشيخ اعزه الله ان يقول في ذلك. فقال فان القول على نحو كذا. فصحح الجواب الاول واوهن ما كان افسده به. فبقي الزجاج مبهوتاً. ثم قال في نفسه قد يجوز ان يتقدم له حفظ هذه المسألة واتقان القول فيها. ثم سأله عن مسألة ثانية ففعل المبرد فيها بنحو فعله في المسألة الاولى حتى والى بين اربع عشرة مسألة يجيب على كل واحدة منها بما يقنع ثم يفسد الجواب ثم يعود الى تصحيح الجواب الاول. فلما رأى ذلك الزجاج قال لاصحابه عودوا الى الشيخ فلست مفارقاً هذا الرجل ولا بد لي من ملازمته والاخذ عنه. فعاتبه اصحابه وقالوا تأخذ عن رجل مجهول لا يُعرف اسمه وتدع من قد شهر علمه وانتشر في الآفاق ذكره. فقال لهم لست اقول بالذكر والخمول ولكني اقول بالعلم والنظر. قال فلزم المبرد وسأله عن حاله فاعلمه برغبته في النظر وانه قد حبس نفسه على ذلك الا ما يشغله عن صناعة الزجاج في كل خمسة ايام من الشهر فيتقوَّت بذلك الشهر كله. ثم اجرى عليه في الشهر ثلاثين درهماً. وامره المبرّد باطراح كتب الكوفيين. فلم يزل ملازماً له وآخذاً عنه حتى برع بين اصحابه. فكان المبرد لا يقرئ احدًا كتاب سيبويه

حتى يقرأه على الزجاج ويصحح به كتابه. فكان ذلك اول رئاسة الزجاج ...
وقد اختُلف في تلقيبه بالمبرد فقيل سببه ان صاحب الشرطة طلبه للمنادمة والمذاكرة فكره ذلك فدخل الى ابي حاتم السجستاني فجاء رسول الوالي بطلبه. فقال له ابو حاتم ادخل في هذا يعني غلاف مزمّلة فارغاً. فدخل فيه وغطى رأسه. ثم خرج الى الرسول فقال ليس هو عندي. فقال أُخبرت انه دخل اليك. فقال ادخل الدار وفتّشها. فدخل وطاف في كل موضع في الدار ولم يفطن لغلاف المزملة. ثم خرج فجعل ابو حاتم يصفق وينادي على المزملة: «المبرَّد. المبرَّد» وتسامع الناس بذلك فلهجوا به. وقيل ان الذي لقبه بهذا شيخه ابو عثمان المازني

(خزانة جامعة ليدن Arabe 1366c)

لغة الحضارة

نعني بلغة الحضارة مجموع الالفاظ والعبارات والمصطلحات التي طرأت على لغة البداوة بعد الاسلام. بين معرّب، ودخيل، ومولّد، ومستحدث، ومستعار. كالتي عُني العالم الهولاندي دوزي بجمعها في كتابه الذي دعاه « تكملة المعاجم العربية ». وقد دلّنا طول البحث والتنقيب في كتب الادب والتاريخ على ان لها هنالك اشباهاً جمة ونظائر فاته استدراكها. يجدها اليوم كل من شآء ان يتتبعها في مصنّفات السلف، ولا سيما ما لا يزال مخطوطاً منها حتى سقوط دولة المماليك. ومع اننا لسنا من المتخصصين لمثل هذه الدروس، رأينا من باب المشار كة في الخدمة ان نتقرّب الى القرآء — وما اكثر عشاق اللغة بين الكتاب عندنا! — ونذكر لهم مرّة بعد أخرى ما يمرّ بنا عفوًا اثناء مطالعاتنا من امثال هذه الالفاظ الطارئة. نوردها على هيئتنا رجآء الإصابة في ما نختاره منها؛ مع الاقتصار على ما نرى فائدة وامتاعاً في الاشارة اليها. لصلاحية قسم منها للاستعمال بالمعنى الذي دلّت عليه قبلاً؛ او الإمكان سدّ عوز جا من حاجات الاقلام في هذا العصر؛ او لاعانتها على وصف اطوار الحضارة العربية السابقة. ونميّز كل رواية منها بشهادة الكتّاب والشعراء والمؤرّخين. وغنيّ عن البيان ما في مثل هذه التنبيهات والاستدراكات من المادّة والمؤونة لتذييل داووين اللغة؛ وتأريخ الدخيل والمولّد من اوضاعها؛ تمهيدًا لجمع معجم شامل لكل الكلمات والعبارات المستحدثة في حضارة الاسلام.

التحايا

(فصل مقتطع من كتابنا المخطوط « الديارات النصرانية في الاسلام »)

التحايا جمع تحيَّة بمعنى التحفة والطرفة. وهي غير واردة على هذا الوجه في معاجم اللغة. وفي الشابشتي في كلامه على دير رومالس (رومانس) « حضر من احداث الموضع من كان يقضي لنا الحاجة ويحيينا بالطرفة والتحية »[1]. واكثر ما تطلق على الطاقة من الازهار والرياحين والفواكه التي يُحيَّا بها الندماء، وتُزيَّن بها مجالس الشراب، ومنها بيت الثرواني:

وان انتما حيّيتماني تحيّـة   فلا تعدُوا ريحان قلّاية القس[2]

---

١) كتاب الديارات للشابشتي، ص ٧٦، نسخة برلين

٢) معجم البلدان لياقوت، طبعة ليبسك، ٤: ١٥٦

ونظيره قول ابي الفرج الببَّغاء في النرجس:

ونرجس لم يعدُ ميقته الـ كأس، ولا اصفره الراحا
كأنما تُهدي التحايا بـه لطفًا الى الارواح ارواحا (١

وفي هذا المعنى لابي اسحق الصابي يصف مجلس انس شبَّهه بالمعركة:

كأن رجوم تحاياهم سهامٌ على الجيش منها نِثار (٢

وفي الاغاني لابي الفرج الاصبهاني « قالت ريّق: كنت يوماً بين يدي الرشيد وعنده اخوه منصور وهما يشربان. فدخلت اليه خلوب جارية لعليَّة (اخت الرشيد) ومعها كأسان مملوءتان وتحيَّتان. ومع خادم يتبعها عود فغنتها قائمة، والكأسان في ايديها، والتحيتان بين ايديها »(٣).

ولمحمد بن بشير يهجو يوسف بن جعفر بن سليمان:

ريحانهُ بدم الشباب ملطَّخ، وتحيّة الندمان لطم العين (٤

ولما خرج المأمون ونزل الدير الاعلى بالموصل، وجاء عيد الشعانين، « زيَّن الدير في ذلك اليوم باحسن زيٍّ وخرج رهبانه وقسّانه الى المذبح وحولهم فتيانهم بايديهم المجامر، قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة. فرأى المأمون ذلك فاستحسنه. ثم انصرف القوم الى قلاليهم وقربانهم. وعطف الى المأمون من كان معهم من الجواري والغلمان بيد كل منهم تحية من رياحين وتبهم وبايدي جماعة منهم كؤوس فيها انواع الشراب. فادناهم وجعل يأخذ من هذا ومن هذه تحيَّة. وقد شُغف بما رآه منهم »(٥).

ومن شواهد اطلاق التحايا على هدايا الفواكه والتفـاح قول ابي خالد الكاتب، وقد اجتاز بدير محلّى، ومعه ابو زرعة الدمشقي الشاعر: « ثم اتانا الرهبان بتحايا الورود والياسمين والتفّاح واخرجوا الينـا شراباً عتيقاً في نهاية الصفاء والرقة »(٦). ومثله ما رواه ابن عبد ربّه عن الفضل بن يحيى ان طفيلياً من

١) اليتيمة للثعالبي، طبعة مصر، ١: ٢٢٨
٢) اليتيمة للثعالبي، طبعة مصر، ٢: ٢٢٧
٣) الاغاني، طبعة بولاق، ٩: ٨٧–٨٨
٤) الاغاني، طبعة بولاق، ١٣: ١٢٤
٥) الديارات للشابشتي، ص ٧٦ ٦) مسالك الابصار للعمري، ص ٣٢١

اهل المدينة دخل عليه وبيد الفضل بن يحيى تفاحة « فالقاها اليه وقال : حيّاك الله يا مدنيّ . فلزمها واكلها . فقال له : شؤم عليك يا مدني أتأكل التحيات ! »[1].

وكان في الحيرة غلمان يرتزقون من حمل الفاكهة وبيع التحيّات . منهم حنين ابن بلّوع المغنّي المشهور « قيل كان لطيفاً في عمل التحيّات فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطرّبين الى الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قدّه وحلاوته وخفة روحه استحلوه واقام عندهم وخفّ لهم »[2].

وقد يراد بالتحيّة مجرد الهديّة من الطرائف والنفائس : « حدّث سعيد بن يوسف قال : كنت اتقلّد خزائن الكسوة . وكان اذا امر المعتز ليونس (بن بغا) بشيء اخذت له اجلّ ما في الخزائن واحسنه . . . فقلت له يوماً : يا سيدي انا عبدك وموفر لمالك وانت تشرّف مسروراً المتصبي بالتحيّة الحسنة مما يكون بين يدي امير المؤمنين . وانا فلا تشرفني بمثل ذلك ؟ فقال الليلة نوبتك »[3]

وكان يقال قديماً لمثل هذه التحيّات التي يُزيّن بها مجالس الشراب العمارة والعمار . وفسّروا بها في احد الوجهين قول الاعشى :

فلما اتانا ، بُعيد الكرى ، سجدنا له ورفعنا العمارا[4]

قال ابن منظور : « العمار هنا الريحان يُزيّن به مجلس الشراب وتسميه الفرس ميوران . فاذا دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منه بايديهم وحيّوه به »[5]. ومن هنا يعلم ان عادة اتخاذ الورود والرياحين للشرب عليها والتحيّة بها كانت في الجاهلية وسبقت الاسلام . ومنها قول النابغة الذبياني في مدح آل جفنة النصارى :

رقاق النعال ، طيّبٌ حُجزاتهم ، يُحيّون بالريحان ، يوم السباسب

اي يوم الشعانين . وللاعشى قيس في قصيدته « ودّع هريرة ان الركب مرتحل » ابيات ذكر فيها غدوه الى الحانوت اي بيت الخمّار :

في فتية كسيوف الهند قد علموا ان ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل

١) العقد الفريد ، المطبعة الازهرية ، مصر ، سنة ١٣٢١ ، ٣ : ٣٧٦

٢) الاغاني ، طبع الدار ، ٢ : ٣٤٥

٣) الديارات للشابشتي ، ص ٧٣

٤) نكت الهميان للصفدي ، ص ٧

٥) لسان العرب ٦ : ٢٨٣

وقال:

نازعتهم قُضُب الريحان، متكئاً، وقهوة مزّة راووقها خَضِل (١

وله ايضاً يصف مجلس الشراب:

وشاهدنا الورد، والياسمين، والمسمعات بقصابها (٢

وفي حديث حسّان بن ثابت انّ جبلة بن الايهم كان «اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والورد والياسمين واصناف الرياحين»(٣).

ولابن سيحان من شعراء الاغاني:

أُسقي أُعاطيه كأساً لذّ مشربها، كالمسك حُفّت بنسرين وريحان (٤

ولم يكن مثل هذا التجمّل بالرياحين والازهار، وطرحها على بساط المدام، نصيب الاغنياء والمترفين فقط، بل اصبح في الاسلام رسماً للفتوّة لا يخلّ به اشقى الفقراء والمعدمين. روى ابو الفرج الاصبهاني قال: «دعا الاخطلَ شاب من شباب اهل الكوفة الى منزله فقال له: يا ابن اخي، انت لا تحتمل المؤونة وليس عندك معتمد. فلم يزل به حتى اتبعه. فقال: يا شقراء. فخرجت اليه امرأة. فقال لامه: هذا ابو مالك قد اتاني. فباعت غزلًا لها واشترت له لحماً ونبيذاً وريحاناً. فدخل خُصّاً لها. فأكل معه وشرب وقال في ذلك شعراً»(٥).

وفي حديث علي بن امية قال: «دخلت يوماً على عمر الميداني وكان له بقّال على باب داره ينادمه ولا يفارقه ويقارضه اذا اعسر ... فقال لنا عمر: معي اربعة دراهم تعطوني منها لعليق حماري درهماً. والثلاثة لكم فكلوا بها ما احببتم. وعندي نبيذ وانا اغنيكم والبقال يحضرنا من الانقال اليابسة ما في حانوته. فوجهنا بالبقال فاشترى لنا بدرهم فاكهة وريحاناً وجاءنا من حانوته بجوانج السكباج ونقل»(٦).

١) الاغاني ٨: ٦٩

٢) التذكرة الحمدونية، باريس رقم ٣٣٢٦، ص ١٠٥

٣) التذكرة الحمدونية، باريس رقم ٣٣٢٦، ص ١٠٧

٤) الاغاني، طبعة الدار، ٢: ٢٦٠

٥) الاغاني، طبعة بولاق، ٧: ١٨٥

٦) الاغاني ٢٠: ٦٦

وقد بلغت عادة التحيّات في الاسلام الغاية من البذخ والترف. فكان الخلفاء والوزراء ووجوه الدولة يتفنّنون في تزيين مجالس شرابهم باطايب الفواكه ونوادر الرياحين والورود ، ويغالون في الانفاق والتبذير ، كما حكاه ابن حمدون ، وهو شاهد عياني ، قال : «كنا نشرب مع الراضي بالله يوماً في مجلس مغنّى بالفاكهة الحسنة الفاخرة . فنَهَض بالجلوس فقال : افرشوا لنا المجلس الفلاني واطرحوا فيه ريحاناً ونيلوفرًا فقط طرحاً فوق الحصر بلا اطباق ولا تعبية في مشامّ كما تفعل العامّة . وعجّلوا ذلك الساعة لننتقل اليه . قال فلم تكن الّا لحظة حتى قالوا له: قد فرغنا من ذلك . فقال لنا : قوموا . فقمنا معه . فلما رأى المجلس قال للشرابيّة غيّروا لون هذا الريحان بشيء. من الكافور يُسحق ويُطرح فوقه فليس هو مليح هكذا . قال : فاقبلوا يجيئون بصواني الذهب فيها الكافور الرباحي المسحوق ارطالًا ويطرح فوق الريحان وهو يستزيدهم الى ان صار الريحان كالمغطى ببياض الكافور وكأنه ثوب اخضر قد نُدف عليه قطن رقيق . او روضة سقط عليها ضرائب الثلج . فقال حينئذٍ : حسبكم . قال : فقدرت ما استعمل من الكافور كان اكثر من الف مثقال بشيء. كثير . فشربنا عليه . فلما قام امر بنهبه . فاخذ غلماني منه مثاقيــل كثيرة لانهم كانوا في جملة الخدم والفراشين والغلمان الذين نهبوا ذلك»[1].

وروى القاضي ابو علي التنوخي قال : «شاهدنا ابو محمد المهلّبي في وزارته وقد اشترى في ثلاثة ايام متتابعة وردًا بالف دينــار فطرحت في بركة عظيمة كانت له في دار كبيرة تعرف بدار البركة . وشرب عليه ونُهب . وكان في البركة فوّارة حسنة فطرح الورد فيها وفرشه في مجالسه . وكان لذلك شرح طويل .

وشرب ابو القاسم بن ابي عبدالله البريدي بالبصرة على ورد بعشرين الف درهم في يوم واحد على رخصه هناك واسترخاص السلطان لما يشتهيه»[2].

ومن اغرب ما كان يُتخذ من التحايا في مجالس الشراب والحانات تُخضب

---

١) نشوار المحاضرة للتنوخي ، ص ١٤٤–١٤٥

٢) نشوار المحاضرة ، ص ١٤٧

كانت تجعل خلف آذان السقاة والشاربين او تُعقد منها اكاليل توضع فوق رؤوسهم .
ولذلك قال ابو دلف العجلي يفتخر :

يوماً تراني على طِرْف ترهبني الأجبال الرواسي
ويوم لهو احثّ كأساً ، وخلف اذني قضيب آس (١

ومثله قول ابن المعتز في وصف ساقٍ :

وطاف بها ساقٍ اديبٌ بمبزل كخنجر عيّار صناعته الفتك
وحمّل آذريونةً فوق اذنه ككأس عقيق في قرارتها مسك (٢

وله ايضاً في الساقي المكلّل بالآس المرصّع بصنوف الريحان :

عليه اكليل آسٍ ، فوق مفرقه ، قد رصّعوه بانواع الرياحين (٣

وقد جمع ابو نواس بين « تحيّات الندامى » و « أكاليل الرياحين » فقال :

الذّ واشهى من قراع الكتائب مصافحة الطاسات من كل جانب
واخذ تحيّات الندامى ، وردّها بترحيب انس من حبيب وصاحب
ولبس اكاليل الرياحين بينهم وإنصات آذان الى شدو ضارب (٤

وله ايضاً في الاكليل او التاج :

كأن إكليله تاج ابن مارية ، اذ راح معتصباً بالورد والآس (٥

ومثله قوله في وصف ساقٍ :

يدور بها ظبيٌ غريرٌ منوّجٌ بتاج من الريحان مثل الفراطق (٦

وله في ريحانة الاذن :

أحسنُ عندي من انكبابك بالفهر ، منحنياً به على وتد
وقوفُ ريحانة على أذنٍ ، وسيرُ كأسٍ الى فمٍ بيدٍ (٧

ونظيره قوله في ورد الآذريون :

---

١) مروج الذهب ، بهامش نفح الطيب ، ٣ : ٤٠٢
٢) ديوان ابن المعتز ، باريس رقم ٣٠٨٧ ، ص ١١٣
٣) ديوان ابن المعتز ، باريس رقم ٣٠٨٧ ، ص ١١٧
٤) ديوان ابي نواس ، باريس رقم ٣٠٨١ ، ص ١٠٥
٥) ديوان أبي نواس ، طبعة مصر ١٨٩٨ ، ص ٣٠٧
٦) ديوان أبي نواس ، طبعة مصر ١٨٩٨ ، ص ٣٠٢
٧) ديوان ابي نواس ، خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦ ، ص ١٠٥

بِيَدَيْ ساقٍ عليه حلةٌ من ياسمين
وعلى الاذنين منه وردتا آذريون (١

ومن اصدق تشبيهات التحيّات في « اكاليل الرياحين » قول ابي عثمان الخالدي في وصف مجلس أنس حضره :

والخمرُ تُجلى على خطّاجا ، فترى عرائس الكرم قد زُفّت لازواجِ
وكلّنا من اكاليل البهار على رؤوسنا ، كانوشروان في التاج (٢

وفي لسان العرب ان مثل هذه الاكاليل التي اتخذها العرب عن العجم كانت تسمى العمار[٣] .

وقد اشتهر الواثق بالله بحبّ المواخير ، وعقده حانتين احداهما في دار الحُرَم والاخرى على الشطّ . فلما فرغ منهما امر باحضار المغنّين والجلساء . والدنان « وان يُوضع على رأس الحضور اكاليل الآس وما اشبه من الرياحين »[٤] .

ومما تقدّم تتبيّن حاجة الرهبان الى الإكثار من زراعة الورد والريحان والفواكه لبيعها في التحايا واصناف النقول في الحانات اللاحقة بالديارات .

---

١) ديوان ابي نواس ، طبعة مصر ، ص ٣٢٩
٢) يتيمة الدهر ، طبعة مصر ، ٢ : ١٨٦
٣) لسان العرب ٣ : ٤٣٠
٤) مسالك الابصار للعمري ، ص ٣٩٤

باب التنبيه والاشراف

للامام المسعودي بهذا العنوان كتاب معروف نبّه فيه على ما فاته الكلام عليه في سابق كتبه من المباحث والاشارات . واشرف فيه على بعض الحوادث والاخبار التي شاء ان يلحقها بالاصول المتقدّمة له في التاريخ . وقد رأينا ان نستعير هذه التسمية لهذا الباب من الخزانة ، حيثُ يتفق لنا درس بعض الكتب والمطبوعات التي نقف عليها في تاريخ الشرق وآدابه . وسنختار منها ما تتحقّق الفائدة في التنبيه عليه من المحاسن والمساوئ عملًا باحكام النقد العصري . ونلتزم في كل منها قول الحق بغاية الانصاف والنزاهة ، دون غيب ولا مجاملة .

تاريخ الشام للخوري ميخائيل بريك

نشره وعلّق عليه الخوري قسطنطين الباشا المخلصي

مطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) سنة ١٩٣٠

لا نعلم أنه قام الى اليوم في الكنيسة الملكية بين رهبانها وقسّانها ومرسليها وسائر رجال كهنوتها من انقطع للبحث والتنقيب ، ووقف حياته على الدرس والتصنيف في التاريخ الوطني بين ديني ومدني ، وتفرّغ لطبع كل ما تصل اليه يده من آثاره واخباره ، تفرّغَ الاب الفاضل قسطنطين الباشا الراهب المخلصي . فلا تكاد تمرّ له سنة دون ان يتحف القرآء فيها ببعض المقالات المفيدة ، او نشر بعض المؤلفات الخطية المكتومة . ولكن هذه الخدم الجلّى والمزايا السنية التي احلته محلًا رفيعاً بين اقرانه ، وخوّلته الحق الذي لا ينازع بان يعدّ نفسه « مؤرخ الطائفة وفخرها ورافع شأنها » ، لا تخلو من بعض هنات وشوائب يأسف من اجلها اشد الاسف كل طلّاب التاريخ . ولكل علم آفة . وآفة علم حضرة الاب قسطنطين قلّة مبالاته بتأدية الاصول التي يرويها بغاية الضبط والامانة ، وتصرّفه بمتونها بين تغيير وتحوير وزيادة ونقصان . اما السبب الغالب عليه في النقل والنسخ ، واما لغرض له او ولع في التصحيح والتنقيح . بحيث لا يتجرأ المطالع ان يركن غاية الركون الى ما يقرأه له من النصوص والتعليقات . وهو ، فوق ذلك ، كثير التأثّر والنفور من كل مناظرة له ، او انتقاد بلسان العلم والحق . ومن الغريب انه يرى نفسه دائمًا شديد المحافظة على الأصل

تامّ الوفاء بذمة النقل . وهو ما اقدم على التصريح به في مقدّمة التاريخ المشار اليه في العنوان فقال بكل جدّ :

« قد اخذنا على نفسنا ان نبقي هذا الكتاب على اصله ولا نبدل فيه شيئاً رعاية للذمة في النقل . وحرصاً على قيمته التاريخية بتمامها . كما يتحقق القارئ النجيب ذلك بمقابلته الصفحة الاولى من طبعتنا على الاصل الذي نقلنا منه الصفحة الاولى في صدر كتابنا ».

وهذا بعينه تكرار ما سبق له في طبع « النخبة ». بعد ان اجال فيها قلمه وفهمه[1]. وغنيّ عن القول ان « القارئ النجيب » لا يجوز عليه مثل هذا التمويه. ولا يعتقد ان الصفحة الواحدة ، على فرض سلامتها وضبطها ، تكفل سلامة سائر الكتاب . ومع ذلك فقد اردنا للمرة الثانية ان نمتحن ذمّة الطابع في النقل لنرى هل حالت بعد نيف واربع وعشرين سنة عمّا عهدناها في نقد « النخبة » . ومعلوم ان هذه الامانة تتناول لفظ الكتاب ومعناه ، اي تركيب عباراته ونصّ اخباره بالحرف . لان للغة ايضاً فائدة تاريخية لاختلاف اللهجات وطرق الانشاء في كل عصر . وانفراد كل كاتب باساوب في التعبير تتمثل فيه لغة زمانه وما داخلها من الضعف واللحن . والالفاظ العامية التي تتباين بحسب الامصار والمدن . فلا بد لمعرفة اصلها ومنشإها من نسبة كل لفظ واصطلاح منها الى مكانه وزمانه . وهو لا يتهيأ الا بالمحافظة على عبارة كلّ كاتب ومؤلف من ايّة طبقة كان ، حسبما صدرت من فمه وقلمه ، دون ادنى تغيير او تسديد لها. وقد غلبت على الخوري بريك اللهجة العاميّة كما كانت بين نصارى زمانه في القرن الثامن عشر بدمشق. وكثرت فيها ركاكة التعبير ، ومخالفة القياس ، وترك الاعراب. فاقلّ ما كان يجب على طابع تاريخه حكاية اسلوب المؤلّف في النسخة المصورة ، دون ان يمسّ شيئاً من اغلاطه ، ليعلم مؤرخو اللغة كيف كان يُكتب في ايامه . ونحن ، مع كل ما نجده من اللذة في تلاوة نفثات قلم الخوري قسطنطين ، يحق لنا ان نطالبه بابقاء كتابة سلفه الخوري بريك على علاتها . كما طالبناه قبلًا بالمحافظة على انشاء الشماس بولس الزعيم . ولا نظنّ ان الله ارسله

[1] راجع المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ٥٦١-٥٧٤

رسولًا مصلحاً للغة، يقوّم ما انآد منها بجهل رجال الدين. ولاسيا ان ليس في متن « تاريخ الشام » اقلّ غموض يحول دون فهم المراد منه ، ويدعو الى تبديل فيه او تنقيح . وزى من العبث المحض ، بل من الفضول ، ما تكلفه حضرة الاب من تحويره وتحريره. بعد ان نادى في المقدمة انه تركه وشأنه. ورهن قلمه بنقله كما ألفاه بغاية الامانة . وهذه هي المرة الثانية التي يَعِد فيها حضرة الاب ولا يفي . وما كان اغناه عن هذه التبعة لو اقرّ في توطئته انه نشر الكتاب بتصرّف قليل .

وقد عددنا في مقدمة المؤلف ، التي دعانا الطابع الى مقابلتها ، خمسة عشر موضعاً ونيفاً تصرف فيها بين تنقيح وتحويل ، وزيادة ونقصان. وهي ، على كونها كلها يسيرة غير ذات شأن ، لا تخرج عن انها عبث بالاصل واستباحة لحرمته ؛ ولاسيا ان المعنى قبلها كان جلياً بيناً . ومع ما تولّانا من العناء والملل ، وما اضعناه من الوقت الثمين ، لم نألُ جهداً في معارضة سائر الكتاب صفحة صفحة وحرفاً حرفاً. ولا نخشى ان نقول انه لا توجد فيه ورقة واحدة سلمت من آفات قلم الطابع ، لغير داعٍ موجب ، ولا حاجة ماسّة الى تغيير . لوضوح المعنى في الاصل دون اقلّ اشكال .

ولو اردنا ان نسرد كل هذه المواضع بالتفصيل لضاقت بنا الصفحات ، وغلب السأم على القراء . لان الخوري قسطنطين كلّف قلمه تهذيب عبارة المؤلف على عاميتها . فاكثر فيها من ردّ المهموز ، وفتح المنصوب ، وحذف الضمير من الفعل اذا اجتمع فيه مع الفاعل الظاهر ، على لغة « اسرّوا النجوى » ؛ وتتبع جانباً من اللحن والسقطات . فاطّرح ما شاء ، وقوّم ما عنّ له تقويمه بغير استيفاء . بحيث تغيّرت طريقة المؤلف وظهرت في حلّة اجدّ من ثوبها الاول . وسنذكر امثلة على كل ذلك ليظهر مقدار عبث الطابع بالاصل المصوّر لديه .

واول ما نحبّ ان نبدأ به وننبّه عليه تصرّفه الغريب بالعبارات والأدعية التي تتبع عادة اسماء الجلالة ، مثل قوله « تعالى » وجلّ جلاله » وقد عدّدنا عشرة مواضع أسقطها او ابدل جملة « الباري تعالى » بكلمة « الله » وحدها ، او اطّرح اسم الله بالمرة. وقريب من ذلك لفظة « آمين » حذفها اربع

مرار. ولا نفهم لِمَ ضاق صدره بهذه المصطلحات الدينية، وهو لا يكاد يُصدِّق من كاهن نظيره.

ومن الكلام العامية التي ابقى عليها كلمتان حَظيتا لديه وهما «مُقَدَّر» و «اِسأهم». بخلاف «هيك» و «ايش» (ص ٤٨ و ١٠٣) فانه غضب عليهما ووضع في مكانهما «هكذا» و «ماذا». وكان قبلًا في كتاب «النخبة» قد غيّر لفظة «ايش» لظنه انها عامية مبتذلة. ولا بأس ان نعرّف حضرته انها قد وردت مرارًا في الشعر والنثر. قال الحسن بن هانئ:

كيف اصبحتَ، لاعدمت صباحًا صالحًا، يا محمد بن قريشِ؟
أُنسَ نفسي، كيف استجزت اطّراحي فبمَ، سيدي، وذاك لايشِ؟(١

ولابن الخل يهجو واعظًا:

ويقول: ايشَ اقول من حَصَرٍ به لا لازدحام عبارةٍ وكلامِ(٢

ومن الابيات المنسوبة لمجنون بني عامر:

قالت: جُننتَ على ايشٍ؟ فقلت لها: الحب اعظم مما بالمجانين(٣

وليزيد بن الطثرية في احدى الروايات:

وكنتُ، اذا ما جئت، جئت لعلّة، وافنيت علّاتي فأيش اقول؟(٤

واما في النثر فقد كثر مجيئها في كتب الادب والتاريخ. قال في الاغاني «كان العتابي جالسًا ذات يوم. فمرّ به بعض جيرانه. فقال: ايشَ ينفع العلم والادب من لا مال له»(٥. وذكر سعيد بن زياد ان المأمون لما دخل دمشق أُتي بالكتاب الذي كتبه رسول الله (صلعم) فقال: «اشتهي ان ادري ايشَ هذا الغشاء على هذا الخاتم»(٦. وروى المقريزي ان الملك الجواد قلق من ملك دمشق. وقال: «ايش اعمل بملك؟ باز وكلاب احب الي من هذا»(٧ وهلمّ جرًّا.

١) ديوان ابي نواس، خزانة الفاتيكان رقم ٢٥٦، ص ١٤٦
٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ١:٥٠١
٣) الاغاني ١: ...
٤) عيون الاخبار لابن قتيبة ٤: ١٣٦
٥) الاغاني ١٢: ٦
٦) الكامل لابن الاثير ٦: ١٤٦
٧) السلوك للمقريزي، باريس ١٧٢٦، ص ٨٧

ومما اساء في اصلاحه، وهو في الاصل صحيح، بعض الاعلام؛ وطائفة غير قليلة من العبارات والكلم المفردة. نذكر منها المطبوع مع رقم الصفحة ونتبعه بالاصل المصوّر عن نسخة برلين:

فمن الاعلام:

ص٥ ابن جوبان ارغلي	في الاصل	اوغلي بالواو. اي ابن بالتركية
٧ عبدالله الايضلي	〃	الايضلي اي الايدينلي، من مدينة ايدين
٩ واحد نصراني كورجي	〃	كور كجي. وبيت الكور لجي كان معروفاً بدمشق، واليوم بالقاهرة. والكلمة تركية بمعنى الفرّاء
١٠ ابن القلانسي	〃	الفلاقنسي. وممن عُرف بهذا الاسم بدمشق احمد بن محمود الفلاقنسي الشاعر المتوفى سنة ١١٧٣ (١٧٥٩م) والفلاقنسي نسبة لفلاقنس قرية من نواحي بلدة حمص(١
١٨ محكمة الدهناتية	〃	الدهيناتية. وهذه المحكمة كانت بدمشق في السوق المعروفة قديماً بسوق الدهيناتيين بين سوق السلاح والبزوريين. كانت تعمل فيها اصناف الادهان من دهن اللوز وغيره. (٢
٢٤ قنصل الانكليز ريشاري	〃	ريشاردس
٤٤ ظاهر العمر	〃	ضاهر، وهو المشهور الشائع على الالسنة
١٠٠ حنا ابن موسى اقه وردة	〃	اقه ويردي. وهي جملة تركية، معناها: اقه اعطى. وهذا الاسم معروف بدمشق.

ومن العبارات والكلم المفردة، وهي كثيرة، نجتزئ منها بما يأتي على طريق التمثيل:

ص٦ لا تحصى	في الاصل	لا تعد
٨ سائر البلاد	〃	باقي
١٢ يعملوا	〃	يفعلوا
١٥ اعطاه شمعة وتقل وقرش	〃	وقرص
١٦ يعود	〃	يرجع
٢٤ رجال محملين تبناً (بالباء المفردة)	〃	تبناً (بالياء المثناة)
٣٠ يعتمد عليه	〃	يركن اليه

---

١) سلك الدرر للمرادي ١: ١٦٧

٢) نزهة الرفاق في شرح حال الاسواق ليوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد. من مخطوطات خزانتي

ص٢٢	اخدّت	في الاصل	اخدمت
٢٩	ما فعله الشعب	〃	الجمهور
٤١	البحث الثاني	〃	المطلوب
٥٤	لذانك الشيخين	〃	لاجل ذينك
٥٤	مهاب	〃	مرهوب
٦٤	غلا شديد	〃	عظيم
٦٧	هذه السنة كانت غزيرة المطر	〃	عزيزة، بزايين، اي قليلة. بدليل قوله فيا بعد:
		〃	« صار في الصيف احتراق من قلة المياه »
٦٦	النانارات	〃	الفنارات، جمع فنار، وهو مصباح من قرطاس او نسيج كالانبوبة يُستضاء به
٨٤	وقع من شرّاقة داره	〃	مِشراقة (بدلًا من مَشْرَقة) والمشراقة، في اصطلاح اهل دمشق، موضع السطح الذي تشرق عليه الشمس
٨٧	اربعة جباة وكُلّا (بالضم والتشديد)	〃	جباة وُكَلا، جمع وكيل
١٠٠	نطق بشهادة الاسلام	〃	اسلم . ولا ندري ماذا انكر حضرة الاب من هذا الفعل، وهو اوجز، واعرف، واشبه بقلم الخوري بريك .
١٠٢	قُنَع	〃	قِلاع
١٠٨	الاسرى	〃	الاسارى

وهلمّ جرًّا. وقد اعفينا القارئ من نظائر واشباه لها كثير.

ولا يخفى على احد ان كل هـذه التغييرات هي اعتباطية لغير علة داعية. وبعضها خطأ صريح . فما كان ضرّ حضرة الاب لو عدل عنها وابقى الاصل على حاله، وكفى نفسه مؤونة التبعة والملامة . ومن هذا القبيل عدم فهمه قول بريك : « شاهدته خوزق اثنين من العرب » فوضع مكان شاهدته « والشاهد لذلك » (ص ٧) وانما اراد بريك المشاهدة لا الشهادة . ومثله قول الاصل: « باب الكنيسة كان كُهنا وواطي » فكتب بدله « كهفا ». وما ندري كيف يكون الباب كهفا . والكُهنا، في اصلاح اهل دمشق، هو القديم الشنيع القبيح المنظر. واللفظة من اصل فارسي.

واماما صفحتان كاملتان استوفينا فيهما المواضع التي زاد فيها ونقص، دون اقل تحرّج. نكتفي منها بالتنبيه على موضع واحد لا يخلو من الفائدة التاريخية .

وهو قول بريك ، حين ذكر وصول منشور البابا بابطـال بطريركية اغناطيوس جوهر : « فبلغ الخبر الى البطرك فطاع رغماً » . فلم يتوقف الخوري قسطنطين، وضرب على الكلمة الاخيرة ، وطبع « طاع » فقط (ص ٨١) . لرغبته في تبرئة البطريرك جوهر من كل وصمة وتهمة ، غيرةً على نسبته المخلصية . وقد اشتهر حضرة الاب ، مذ امسك القلم بيده ، بشدة محبته لرهبانيته الجليلة ، وحرصه الدائم على الدفاع عن كل مَن نشأ منها ، والمبالغة في تعظيمه بالحق والباطل . ومن الحب ما يعمي ويصمّ . فربما قاده الهوى الى التصرّف احياناً بنصّ الآثار القديمة ليستعين بها على تمجيد اسلافه وابائه . كما سنذكر شاهده قريباً .

ومن الفوائد اللغوية التي اضاعها ، بولعه الدائم بتغيير النصوص الاصلية ، عدة الفاظ وعبارات عامية من لهجة دمشق . لم ترق له فاستبدل بها لقلة اكتراثه لشهادتها . نذكر منها بعضاً على وجه التمثيل . مع البدل المطبوع في مكانها :

ص٨	وفى دينه	في الاصل	سدّ دينه
١١	يا حيفه ينعزل	«	يا حينه
١٥	رجل مهاب	«	مهيوب
١٥	يتروج	«	يتجوز
١٨	آبار	«	ايار
٢١	حوائج وهدايا	«	حوايج وتحملات
٢٤	نصّرها	«	نَصْرَنها
٢٥	اسرى	«	يُسَرا
٥٠	ابتدوا بالنهب	«	النهيبة
٥٢	البـاتينية	«	البساتنة
٥٥	لبس غريب	«	فزيع
٦٢	قدر بيضة الدجاجة	«	قدّ
٧٠	رجل شجاع	«	شجيع . (وهو صحيح في اللغة)
١٠٢	خب التفول والدّزيّة	«	والدّزيبة (اي عابري الدروب)

وقد يتفق لهُ ان يتعرض احياناً لتغير بعض مصطلحات اللغـة فيخفى .. كتعليقه على قول بريك مشيراً الى احد قرصان البحر ، وقد نزل على صور ونهبها واسر بعض اهلها . قال : « وراح على حميّة » (ص ٣٥) فكتب الخوري

قسطنطين في الحاشية ما نصه: « الحِمى والحِمي بمنى واحد ، وهو المكان الذي يحتمي فيه الانسان وغيره » . وانما هذا تفسير للحمى ، لا للحميّة . ولا شك ان بريك نسخ هذا التعبير من كتب الاخبار الاسلامية . وهو يرد فيها بمنى النجاة والسلامة. والمراد في الشاهد ان لصّ البحر نهب واسر وافلت سالماً دون ان يُدرَك .

ويؤخذ على الطابع إخلاله بوضع ترجمة للمؤلف. وقد اعتذر عنها بعذر هو اشبه بالاقرار بالعجز . وكان في ختام نسخة برلين نحو ست ورقات رُوي فيها خبر حريق كنيسة القيامة سنة ١٨٠٨ ، ولعله من قلم احد نساخ الكتاب . وقد حُذف من الطبعة دون اقلّ اشارة اليه في التوطئة. واستعيض عنه بملحقات شتى في معنى التاريخ الملكي منذ الانفصال . جرى فيها الخوري قسطنطين على شنشنته بالتصرّف بالمتن مرة بعد اخرى. عددنا منها في مشروح اضطهادات الروم الكاثوليك في حلب المرسل الى رومة (ص ١٢٨-١٤٢) زهاء اربعة اسطر اسقطها بتمامها في ثلاثة مواضع. وقد استهلّ هذا الملحق بتغيير يوم وفاة البطريرك اثناسيوس الدباس، وهو في الاصل ٢٤ تموز سنة ١٧٢٤ ، فجعله ٢٥ تموز، خلافاً لكل الروايات . ومثل هذا الافساد في التاريخ ، وقد سبق له نظائر عديدة في طبع « النخبة » ، غريب جدًا ممن جمل همه البحث والتنقيب في صحة الارقام والسنين لنسبة الاخبار الى ازمنتها الحقيقية

واهمّ كل الملحقات المذكورة « فتوى في صحة بطريركية كيرلس طاناس » (ص ١٢٢-١٢٣) . وهي في الاصل المحفوظ في خزانة مجمع نشر الايمان لا تكاد تبلغ ستة اسطر، في ما عدا التواقيع والاختام المثبتة في ذيلها. ومع ذلك فقد وجد الخوري قسطنطين في مثل هذا الضيق مجالًا للزيادة والنقصان في عشرة مواضع ، على غير طائل . وكان قد سبق له سنة ١٩٠٧ ان ردّ على مقالة لاحد الرهبان الحلبيين في مجلة « اصداء الشرق » الفرنسية[1] اشار فيها الى ضعف انتخاب البطريرك المذكور لانفراد اهل دمشق بانتدابه ، واقتصار ثلاثة من الاساقفة الكاثوليكيين على تنصيبه. فرأى حضرة الاب السيل الآن متسمة امامه

(1 Echos d'Orient IX (1907) pp. 200-206

للزيادة في الدفاع عنه، وهو من اصل مخلّصي ، واغتنم فرصة نشر هذه الفتوى ، وهي من قلم رئيس الرهبان المخلصين وقتئذٍ، ودسّ فيها، بين الاساقفة الملكيين الموقعين عليها ، اسمَي « اغناطيوس الحلبي مطران حمص . وجراسيموس مطران حلب » — وكلاهما لا وجود لهما في نسخة الاصل — ليدرك بذلك وطره من اثبات إجماع الاساقفة الكاثوليكيين سنة ١٧٢٤ على الاعتراف بالبطريرك المخلصي وتصحيح تنصيبه .

وقد رأينا ان ننشر ههنا رسم الفتوى المذكورة ، كما صورناها في خزانة مجمع نشر الايمان . ليقابلها من اراد على رواية حضرة الاب قسطنطين . ويتحقق بام عينه فرق ما بينهما. ويحكم بنفسه على طريقة بعضهم في افساد التاريخ وتضليل الناس .

ومن اغرب ما هنالك ان الطابع في كلامه على هذا الاثر وآخر قبله قال بلفظه: « كان بعزمنا ان ننقل الاثنين بصورتها الاصلية بالحفر على الزنك لولا انه لطول الزمان حال لون الكتابة فيها حتى لا تظهر جليًّا بالحفر » (ص ١١٤) وقد صورناها نحن بغاية السهولة والجلاء ، كما يراها القارئ .

وهذا مثال من خطة حضرة الاب في الوفاء « بذمة النقل » كما يقول ورعاية الآثار القديمة وطبع المخطوطات. فليؤمن بها من يشاء !

تاريخ ابن الفرات

المجلد التاسع : الجزء الاول

عني بتحرير نصه ونشره الدكتور قسطنطين زريق
في المطبعة الاميركانية . بيروت ، سنة ١٩٣٦

للدكتور قسطنطين زريق ، احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية ، فضل يجدر بالذكر والشكر. لإقدامه على طبع تاريخ ابن الفرات دون ان تهوله كثرة الاغلاط والتحريفات في مسودته ، ووفرة الثلم والبياض ، وغلبة اللهجة العامية على انشائه ، وتعدد مجلداته وكونها فريدة لا نسخة ثانية لها تُعارَض بها. ومعلومٌ ما في ايسر ذلك من الخطب الذي يثبط العزائم ويقصر

جناح الرغبة. وقد آثر ان يبدأ بالمجلد الاخير لان المصنف عاصر الحوادث فيه ونقلها نقل شاهد عيان ؛ او راوٍ لها عن بعض من شهدها من الثقات. وقد وعد ان يعقد جزءًا خاصًا يبسط فيه خلاصة ابحاثه وآرائه في المؤلَّف والمؤلِّف. فنمسك عن الكلام عنهما اجمالًا. ونحصر درسنا في هذا المجلد وحده الى ان يتسنى للاستاذ القيام بما رهن قلمه فيه ، ويتحفنا بمكنون علمه ونتائج رويّتهِ واستقرائه.

ويؤخذ من التوطئة أنه اعتمد في تحقيق بعض اخبار الكتاب وتراجمه ، وتسديد اسماء اعلامه ، على بضعة مطبوعات ذكرها ، ومخطوطين اثنين : إنبا الغمر لابن حجر العسقلاني، والضوء اللامع لشمس الدين السخاوي. وهما كل ما نالته يده ، وهو في بيروت ، من الاصول الخطّية التي كانت مظنّة لمعارضة اخبار ابن الفرات وتصحيح تراجمه. واذا نظرنا الى حسن بلائه في هذه الخدمة ، يحق لنا ان نهنئه لبلوغه الكفاية ووقوفه فيها موقفًا محمودًا. ولكنّا نأسف لانه لم يتيسّر له مراجعة نسخة المنهل الصافي لابن تغري بردي التي عرفها في القدس. ليستعين بها على تقويم ما انآد في خط ابن الفرات ورسمه. او أشكل عليه من كتابة الاسماء التركية المغولية التي كانت غالبة على القاب المماليك . وكان ابن تغري بردي عارفًا بها اليفًا لها ، يمتّ الى اقوامها بصلة ونسب. وكتابه موضوع في ست مجلدات لاستيفاء تراجم رجال دولة المماليك. ومع كل ما بذله الاستاذ من العناية والجهد في تصحيح هذه الأعلام الاعجمية . لا يزال في المجلد منها مواضع للنظر والاستدراك. ولا نشكّ ان ابن الفرات هو الذي شوّش جانبًا منها واساء قراءتها فاساء تأديتها بقلة درايته لها. وهو احيانًا يروي الاسم الواحد منها على صور شتى احدها اشد خطأً من الآخر ككتابته : عقبة ايلا (ص ٣ س ٩) وعقبة ايليا (ص ٤٩ س ١٠) بدلًا من ايلة. وانبوبة (ص ٤٢ س ١٢) عوضًا عن انابة،مولد الشيخ اسمعيل الانبابي. وتسميتهِ الامير ناصر الدين محمد بن «ليلى» (ص ١٩٢ س ٢٣) في مكان محمد بن العادلي كما في ص ١٩٢ س ٠٧. ولما ذكر ابن عم السلطان الظاهر برقوق رسم اسمه مرة شمس الدين قجماس بالجيم (ص ١٨٦و٨٣) ومرة قشماس بالشين (ص ٨٤ و٢٠٨) . ومثله تلقيبه دائمًا المماليك السلطانية بالخاسكية بالسين بدلًا من الخاصكية بالصاد . وهي نسبة فارسية

بالكاف الى الخاص. ومن هذا القبيل ايضاً تسميته بعض هؤلاء المماليك «المستخبرة» (ص ٨٨ س ٣) وهو اسم لم نقرأه لاحد في تواريخ المماليك ، مع انه دعاهم غير مرة «المستخدمة والمستخدمين» (ص ١٠٦،٨٩، ١٠٧) لتمييزهم عن «المشتروات».
ومما اخطأ فيه ايضاً نسبة القاضي بدر الدين بن جماعة بن « حازم » (ص٣٩ س٤) عوضاً عن « حارثة » . وضبطه اسم قطلوبَغا (ص ٤٥س٩) بفتح الباء . والاصح ضمّها في جميع مركبات بُغا. وهلمّ جرًّا من نظائر هـذه التحريفات والاوهام الشائعة في كتب كثير من المؤرخين والمترجمين.

ومن المصنّفات المطبوعة ، التي عوّل عليها الاستاذ، تاريخ النجوم الزاهرة لابن تنري بردي ، طبعة پوپر في ليدن. وقد كان فيه غناً. لو كانت طبعته نُقدت النقد الكافي. ولكنها لا تزال في حاجة الى التصحيح. وقـد اتفق احياناً لابن الفرات ان يكون اصح منها ضبطاً. ولنا الامل ان تعنى مطبعة الدار في مصر — وهي في صدد طبع هذا التاريخ — بمراجعة كل هذه الاعلام الاعجمية في مختلف الاصول. واقرار الصورة الصحيحة التي لا شبهة في ضبطها والتلفظ بها. وافضل المخطوطات عندنا ، التي كان يجدر بالاسـتـاذ ان يستنير بها بين هـذه الظلمات الفراتية ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي. وهو موضوع في الحوادث والتراجم يتناول كل الحقبة التي ارخها ناصر الدين. وقد طبع منه مجلد في مصر. ومن باقيه المخطوط مجلدات في باريس ، ولندرة ، والڤاتيكان. والحق مؤلف بمراجعة ايضاً تاريخ ابن دقماق. وقد اكثر ابن الفرات من الاشارة اليه والنقل عنه . وفي الخزائن الغربية والتيمورية في مصر نسخ من كتاب الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والسلاطين له.

ولا بأس ان ندل هنا على اسماء بعض مخطوطات اخرى تصلح لمعارضة ابن الفرات في المجلد التاسع اي منذ سنة ٧٨٩ الى ٧٩٩

١ ذيل شمس الدين السخاوي على دول الاسلام للذهبي. النصف الاول فيه من سنة ٧٤٥ الى ٨٦٠. في خزانة اكسفرد.

٢ نيل الامل في ذيل الدول (دول الذهبي) للقاضي عبد الباسط بن خليل الحنفي . فيه من سنة ٧٤٤ الى ٨٤٠ . في خزانة اكسفرد.

٣ الدرة المضية في الدولة الظاهرية لمحمد بن حصري . وهو يشبه ابن الفرات بلهجته العامية.

٤ تاريخ البدر في اوصاف اهل العصر لبدر الدين محمود العيني . فيه من سنة ٧١٧ الى ٧٩٨ . في خزانة بريتيش موزيوم ، وباريس ، ومصر.

٥ ذيل ابن قاضي شهبة الاسدي على تاريخ شهاب الدين بن حجي . فيه من سنة ٧٤١ الى ٨٠٦ . في خزانة باريس.

وفي خزانتنا صورة من ذيل ابن شهبة. وهو اكثر ما يشتمل على حوادث دمشق. ولكنه جمع كثيرًا من اخبار مصر وتراجم المتوفين فيها . وربما وافق احيانًا ابن الفرات في النقل عن مصدر واحد بالحرف الواحد . وقد القينا نظرة هنا وهناك على بعض المواضع التي ورد فيها بياض او شكّ في المجلد التاسع. وبحثنا عما يقابلها في ذيل ابن شهبة فوقفنا على ما يأتي. وفي التنبيه عليه سداد من عوز . نذكره على سبيل التمثيل فقط . لضيق اوقاتنا عن التوسع والاستقراء :

	من ابن الفرات	في ابن قاضي شهبة
ص٧ س١٥-١٧	ثبت محضر شرعي على عبدالله المعروف بخايل الظاهري ...	ثبت ... بزندقته
ص٨ س ٢	. ابرهيم بن جعفر	عمر
ص٢٨ س١٢	اخلع السلطان على الامير سيف الدين بن اخي الامير...	الامير جادر
ص٤٠ ح؟	توفي الشيخ ابرهيم الاميوطي المذكور في . . .	في رجب
ص١٧٣ س٢١	بدر الدين الحبار	الخباز
ص١٧٤ س؟	زامل بن مهنا	زامل بن عيسى بن عمر بن مهنا
ص١٧٥ س١٧	عثمان بن سليمان . . . بن خليل بن نوح	بن خليل بن فرح
ص٢٠٥ س٢٥	جمال الدين "السكرى"	السلولي

ولا نشك ان لهذه التصحيحات والاستدراكات اشباهًا ونظائر اذا امكن الوقوف على بقية المخطوطات المشار اليها آنفًا، ومعارضتها بالمواضع المشكوك فيها ، او المحرفة في ابن الفرات.

واما طريقة النشر وتمثيل الاصل بالطبع فغاية في الدقة والضبط. وقد بالغ الناشر في ذلك حتى نبه على لون الحبر الاحمر ، ومواضع الحواشي والتعليقات في

الهوامش. وافرط كل الافراط فصوّر المتون في مواضعها من المسودة. وابى ان يتبع اشارة المؤلف في احلالها محلّها المرتب لها كما كان فعل المؤلف نفسه، لوفسح له في الاجل وتمكن من تبييضها. ومن الامثلة على ذلك ان ابن الفرات، لما سرد تراجم المتوفين سنة ٧٩١، نسقها كعادته غالباً على حروف المعجم. ولكن سبقه القلم وخط ترجمة الامير سيف الدين جركس الخليلي (بالجيم) بعد (الالف والتاء) ونسي حرف (الباء) فاورد ترجمة الامير «بزلار» الناصري بعد «جركس». ثم استدرك هذا السهو وكتب على الهامش الايسر بالخط نفسه «يكتب بعد اربغا» (اي بعد الالف). وهو دليل صريح على ان المؤلف، لو قُدّر له تبييض مسودته، لكان كتب «بزلار» بعد «اربغا». أمّا كان، والحالة هذه، يحسن بالاستاذ ان يفعل ما كان في نيّة ابن الفرات ان يفعله بنفسه. ويكون قد وضع الترجمة في موضعها المرتّب لها وسهّل على الباحث وجودها في مظنتها. وهل الطبع الّا نوع من التبييض. وقريب من ذلك ورود الحاشية الرابعة (ص١٧٥) في التعليق على ترجمة عثمان الكرادي. وقد خُطّ بجانبها في الهامش الايسر بقلم الكاتب «يلقب شرف الدين. ويشهر بالاشقر». وقد وردت هذه العبارة بلفظها مدمجة في متن ترجمة ذيل ابن شهبة. فما كان ضرّ الطابع لو اتبع ارادة المؤلف في تنزيلها فنزلها، بدلًا من نقلها في الحاشية. وهو قد استجاز التصرف ببعض الكلمات المشكوك فيها. واورد في المتن ما حدس فيه وخمنه في مكانها مفروزاً بُضمتين.

وكنا نودّ لو اتبع ايضاً مثل هذه الطريقة في ملء الفراغ الكثير في تراجم المتوفين. واثبات الاسماء والالقاب التي غفل عنها المؤلف او تردد في امرها، بعد استمدادها من كتب اخرى، كالتي نبّه عليها ورواها عن النجوم الزاهرة وشذرات الذهب وانباء الغمر. ولو اوردها في المتن محصورة بين ضمتين، كعادته الحميدة، لكفى القرّاء والمتأدبين مؤونة البحث عنها، وتصعيد البصر وتصويبه في الحواشي والتعليقات. وكانت تكون ظاهرة للعيان، مدلولًا عليها انها ليست من اصل المتن. كفعله في الحروف والقرآءات المشتبه فيها.

ومما لا نوافقه عليه ابداله احياناً رسم بعض الحروف والكلم من الاصل كاثبات الهمزة حيث أسقطت. وكنا نفضّل لو ابقى كتابة المؤلف على علاتها،

دون ان يمسها باصلاح اسوة بسائر ملاحن الكتاب . ولا يخفى ما في المحافظة على الاصل ، كما خطّه قلم المؤلف ، من القيمة والدلالة على تاريخ اللغة العامية وزمانها . واي ضرر ترى في كتابة الثلاثا . والامرا . والانشا . وروس . وعبّا واشباهها دون همز في كتاب معروف بعاميته ؟ وهل يتعذَّر فهمها على احد ؟ ولِمَ قصر الاستاذ الهمز الفصيح عليها وعلى نظائرها ، واعفى منه امثال نايب (ص٢ س٣) والطايع (ص١٢ س١٣) واختفايه (ص١٢٧ س١٦) والصابية (ص١٤٥س٥) ورييس (ص١٦٢ س٢) ويكافيه (ص٢١٣ س٢) وبمَ استحقت طائفة من الكلم ، ما حُرمته الاخرى في نظره ؟ واذا كان لا بد من الهمز ، فلمَ لم يضعه على اروس (اروس) وابدل منها حيث وجدها رؤوس . (ص ١٣١ و١٦٥ و١٦٨) ومثله لا يجهل ان الاولى افصح لانها جمع قلة . وهي لم تستعمل الّا في الدلالة على ثلاثة واربعة وخمسة من الخيل فقط . وفي اصلاح لفظة استيسروا ووضع استأسروا في مكانها (ص٣٣ س١٦) — وهي لا تشبه قلم ابن الفرات — ضياع فائدة لمؤرخ اللغة العامية . لان الاولى تدل على ان قول عامتنا اليوم يسر ويسرا ، في مكان اسر واسرى ، هو قديم وليد العصور السابقة .

ولعلنا أطلنا في التنبيه على هذه الهنات اليسيرة وهي لا تزري شيئاً بفضل الاستاذ واحسانه في تمثيل الكتاب . ولكننا نريد استرعاء نظره الى المجلدات الباقية . وليسمح لنا ان نضرب له مثلًا على افضلية ابقاء القديم على حاله . وتصوير الالفاظ العامية كما رسمت في نصوصها ، الا حيثما يُتحقق تشويهها بقلم الناسخ . فانه مرَّ به في ثلاثة مواضع من الصفحات (١١٠ س ١٨ و١٨٤س٢١ و١٩٤ س١) لفظة « الاهنة » بغير الف ، فاصلح كتابتها دون توقف ، وانزل مكانها « الاهانة » . ونبَّه عليه في الحواشي كدأبه في كل تغيير وتسديد . وكنا نظيره نظنّ انها سهو قلم ، او من قبيل كتابة بعض المتقدمين السلم اي السلام باسقاط الالف خطاً . ثم تكرر تلاوتنا لها في عدة مخطوطات لكتاب مختلفين . فتولانا الشك وقلنا لا بد ان يكون لهذا الاصطلاح وجه وقياس . وجمعنا من الشواهد عليه العبارات الآتية نذكرها هنا لما لها من الشأن والخطر في تاريخ اللغة المولّدة :

كتب ابن عبد الحق السعدي المصري الشهير بابن البارنباري في ديوان الانشاء بدمشق، في صدد مرسوم سلطاني ورد في حق النصارى واليهود:

« ان بيع الضلال تُملأ ظلاما كما ملئت ظلما. وان يهانوا بإهنة الله التي لم تجعل لهم تصرفا ولا حكما »[1].

وفي تاريخ ابن ميسر : « وبالغ ناصر الدولة في اهنه المستنصر مبالغة عظيمة »[2].

وفي ذيل ابن شهبة الاسدي : « سنة ٧٧١ حصل للعجم اهنة وقامت عليهم الشناعة »[3].

وفي تالي كتاب الاعيان للموفق الصقاعي : « وعوقب الصاحب شمس الدين ابن السلعوس الى ان مات بعد اهنة »[4].

وفي السلوك للمقريزي : « نُقل طِنال الى غزة اهنة له » . وسجن طشتمر حمص اخضر بقلعة الكرك بعد ما اهين من العامة اهنة بالغة »[5] وهلمّ جرّا.

وبقيت، مع ذلك، في النفس بقيّة من صحة هذا اللفظ . حتى عثرنا في خزانة ميلانو الامبروسيانية على شاهد قاطع من فواصل السجع، لا يدع سبيلا الى الريب، وهو قول كتاب مختار الاخبار : « صاحب سيس قد قطع الهدايا المقرّرة عليه. وخالف شروط الهُدَن . فعادت الموادعة منازعة . والهدنة اهنة »[6].

وهذا الشاهد وحده كافٍ لاقناع كل متردّد في صلاحية ابقاء النصوص العامية على روايتها ورسمها. الّا اذا تُحقق تحريفها بقلم النساخ.

وقد طالعنا هذا المجلد التاسع برمّته بين اخبار وتراجم. واغلقناه بيد السأم واليأس. لعدم وقوفنا فيه على جديد يجدر بالتنويه والتقييد خلوه من كل فائدة للتأدب والمشتغل بتاريخ الحضارة واغتيها وخصائصها . وهو لا يتعدى حكاية

١) درة الاسلاك لابن حبيب الدمشقي الحلبي، باريس ١٧٢٩، ٢٨٦

٢) طبعة مصر، ص ١٩

٣) خزانة باريس ١٦٠٠، ٢٤٦

٤) 〃 〃 ٢٠٦١، ٧١

٥) خزانة الفاتيكان ٧٥٩، ١٠٢ و١٦٩

٦) خزانة ميلانو C. 45 N° 230 du Cat. f° 56^{b}

الملاحم والفتن ، وتنازع السلطنة والممالك . وتعداد الولايات والعزل ، والتسمم والقتل ، والخلع والانعامات ، والنكبات والمصادرات . وتردد النواب والامراء بين ذهاب واياب ، وطاعة وعصيان . الى آخر ما هنالك من احوال النيل ، وتقلّب الاوبئة ، وتقلب النقود . وتنحصر تراجمه كلها في ذكر المواليد والوفيات . وتقلّد المناصب والدروس . وسرد اسماء الشيوخ والمحدّثين . دون اقل استطراد او تنبيه على نكتة او نادرة . فهو اشبه بجرائد اليوم منه بكتاب تاريخ حقيق بهذا الاسم . وهذه آفة معظم المؤلفات المعروفة في معناه . ولا تكاد تخرج كلها عن نمط واحد يقلّد فيه الواحد الآخر في اسلوب الحكاية ، وانتحال النصوص والروايات ، والاتفاق على كتمان الاصول . وعندنا ان مزية هذا المجلد التاسع التي بزّ بها امثاله هي احاطته باكثر اخبار الملك الظاهر برقوق ، والتوسع في حكاية وقائعه وسيرته ، في اثناء سلطنتيه الاولى والثانية . وقل ان يفوقه مؤلف آخر بمثل هذا التفصيل والاستقراء . وقد عني ابن الفرات بنقل الحوادث عن اصدق رواتها . ولم يكتم اسماء بعض الشهود منهم . وربما نقل عن رسائلهم وخطوطهم . وقال مرة بلفظه ولحنه : بلغني ان كتاب من جهة الامير سيف الدين طوغان وصل الى بعض اصحابه فسألته عنه فاحضره الي ونقلت منه ما صيغته (ص ١٩٧) وحكى على الاثر وقعة شقحب سنة ٧٩٢ (١٣٩٠م) . وهو يشبه في هذا الاستقصاء والاستثبات شمس الدين محمد الجزري الدمشقي في المجلد الذي وصفناه من كتابه حوادث الزمان وانبائه ووفيات الاعيان من ابنائه[1] . ولو لم يكن لابن الفرات الا هذه الحسنة وحدها لكفى بها داعياً لطبع مسودته ، فكيف وله في بقية اجزائها حسنات اخرى سنقف عليها فيما بعد . والاشياء مرهونة باوقاتها .

وقد عثرنا في اثناء مطالعتنا على بعض مآخذ وهنات في الطبع والتفسير . نستميح الاستاذ عذرًا بالتنبيه عليها . ونتبع في سردها نسق الصفحات :

ص ١١ س ١ : قال في تفسير دامة حافيهم انها جمع حاف : « وهو في الحرب من أحيط به . نقلًا عن التاج » . وانما يُراد بهذه اللفظة ، في اصطلاح المولدين في مصر والشام ، من يُضاف الى الرؤساء والامراء . ويلحق بهم من الاتباع والحاشية والاصحاب . ويطلقون عليهم احيانًا لفظة «الأزام» .

---

1) مجلة الآثار الرحلية في الاجزاء ٣ و٤ و٥ و٦ و٧ من سنتها الخامسة .

وقد استعمل كتاب دواوين الانشاء الشريف بهذا المعنى كلمة «مضافات» لكل ما يلحق بالقواعد وامهات المدن من الاعمال الصغار . قال شهاب الدين العمري في الكلام على بعلبك : «ومن مضافاتها ولايتان جليلتان . وهما عملا البقاعين المعروفين بالبعلبكي وبالعزيزي »(١ . ويقال اليوم في معناها الملحقات

ص ١٨ س ٤ : « شاب صغير كما بلغ مبالغ الرجال» . وعلق على لفظة كما ، في الحاشية : « كذا في الاصل » . وهذا التعبير يرد احياناً بمعنى على حين . اي شاب صغير وقد ناهز البلوغ

ص ٢٠ س ١ : « واسفرت الوقعة عن كسر عسكر واهل سيواس » والصواب : كسر تتار واهل سيواس . وقد ذكر في الصفحة التالية س ٩–١١ حضور التتار الى سيواس وكسرهم واسر الف منهم

ص ٢٢ س ١٤ : « صحبتهم اخت الملك الظاهر برقوق . وابنة ابن عمه » . وانما هي ابنة عمه ، لانها كانت اخت الامير قجماس كما صرح بذلك في ص ٥٠ س ١

ص ٢٨ س ٢٠ : « شهاب الدين الوادي أشي الحلبي » وصوابها بالمدّ نسبة الى مدينة وادي آش في اسبانية Guadix

ص ٤٠ س ٩ : « المطوات والمراتب » . وس ١١ « بجسيل انسانيته » . وفي ذيل ابن قاضي شهبة : المعلومات والمراتب . وبجسيل السياسة .

ص ٤٧ س ١٩ : « جهة الصعيد وبحري » . وعلق عليها في الحاشية ٣ : « وقد تكون وبحري » . والرواية الصحيحة هي التي اثبتها في المتن . ومعلوم ان مصر تقسم عادة ، فيما عدا الصعيد ، الى وجه قبلي ، ووجه بحري . قال شهاب الدين العمري « الحد الشامي (اي الشمالي) يسميه اهل مصر البحري »(٢

ص ١٢١ س ٧–٨ : « طلب الزعر وكتب اسماءهم . . . وجعل لهم عرفاً » يريد عُرَفا بقصر الممدود ، اي رؤساء . جمع عريف

ص ١٢٢ س ١٨ : « زنة كل طوبة من هذا الطوب الفضة الحجر ثلاثة آلاف درهم ' بصبح الفضة » . وانما هو بصنج الفضة . بياء اولى ونون ثالثة وجيم رابعة وصنجة الميزان عياره

ص ١٤٤ س ٣ : «فعصب رجليه وطلع الى الاصطبل » . والصواب : فعصب بالعين اي شدّ . وقد قال بعد ذلك : ورجلي ما استطيع المشي بها

ص ١٥٢ س ٧ : « وثبوت جانبه » . والصحيح : جنانه بنونين اي قلبه .

ص ١٥٤ س ١٨ : « سأل قاضي قضاة الشافعية ان يقرض السلطان مبلغا من اموال الايتام »

---

١) المصطلح الشريف ، ص ١٧٩

٢) المصطلح الشريف ، ص ١٧٣

بتكرار الفاء ايضاً في ص١٦٦ س ٦ وهي دون ريب غلط طبع بدلاً من يقرض بالقاف.

ص١٦٢ س ٩ : « الصاحب كريم الدين لبس بالفقيري » . قال في الحاشية : « كذا في الاصل . ولم اتمكن من استخراج المعنى المقصود من هذه الكلمة » . قلنا : وهذا التعبير مستفيض في كتب الاخبار والتراجم المصرية والشامية . قال ابن تغري بردي : « ثم بدا لمحمد بن علي بن اينال ان يترك زي الجند ويلبس بالفقيري . ففعل ذلك وتفقر»(١ وقال ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٨٠٥ : « وصل السلطان احمد بن اويس الى حلب لابساً بالفقيري . »(٢ وقال ابن حجر العسقلاني : « في سنة ٧٨٢ استعفى التاج الملكي من الوزارة ولبس بالفقيري »(٣ . يريدون انه لبس الزيّ الفقيري اي لبس الفقراء . وربما اطلقوه ايضاً على غير اللباس . وفي النجوم الزاهرة ان في سنة ٨٤٤ « انشا جوهر المنجكي نائب مقدم المماليك جامعاً بالرميلة تجاه مصلاة المؤمني . وعمارته بالفقيري بحسب الحال »(٤ اي كعمارة الفقراء . وقد بحثنا كثيراً كيف كان هذا اللباس المختصّ بالفقراء . وبعد لأي وتنقيب طويل ، وقفنا على قول ابن قاضي شهبة في وفيات سنة ٧٩٨ (١٣٩٦ م) « محمد بن المرجاني ذكره الحسني في معجمه . . . لبس زي الفقراء قطنا مصبوغا . وعمامة على قحف الراس بغير قبع »(٥ ويشبه هذا الاصطلاح قول اهل دمشق اليوم « فعل ذلك بالكبيري » اي فعل الكبراء .

ص١٧٢ س ٤ : « كان اربنا زوج بنت خال الولد عبد الرحيم » . وانما هو الوالد عبد الرحيم . اي والد المؤرخ ناصر الدين بن الفرات .

ص١٧٢ س ٢١ : « وقرعه الاجل المحتوم كاس حمامه » . وصوابه جرعه بالجيم اي سقاه اياه جرعة بعد جرعة .

ص١٩٧ س ١١ : « نزل به الى بيته في باشة وزنغيل » وانما هو زنجير بالزاء . وقال ابن تغري بردي في حوادث ٨٧٠ : « نزل به وفي عنقه باشة وجنزير »(٦ والباشة حلقة يقيد بها .

---

١) حوادث الدهور في مدى الايام والشهور (منتخبات ، طبعة ليدن) ٢ : ٦٠٣
٢) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٩ ، ٢١٢
٣) الاول من انباء الغمر للعسقلاني ، باريس ١٦٠١ ، ٢٥
٤) النجوم الزاهرة . (طبعة ليدن) ٧ : ١١٨
٥) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٨ ، ١٤٩
٦) حوادث الدهور ٣ : ٥١٠

ص٢٠٧ س٩–١٢ : « ارسل السلطان يحتاط على موجوده . . . خارج عن دولابه » وعلق على كلمة دولاب في الحاشية ٢ : « لعل المقصود زكاة الدولبة ». وانما يحتاط السلطان على ما ليس لهُ. وزكاة الدولبة هي مكس عائد اليه. يؤخذ عادة من كل من كان له دولاب . والمراد بالدولاب — وهو كل آلة تدور على محور — ما نسميه اليوم بالمعمل. وكانت الدواليب كثيرة في الزراعة والصناعة . كدواليب معاصر السكر ، ودواليب الحرير والقماش . وكان لسلاطين المماليك دواليب خاصة بهم . وعليها شادّ من قبلهم. قال ابن تغري بردي في ترجمة الوزير ناصر الدين محمد بن كلبك التركماني : « ولّاه الملك الظاهر برقوق اولًا شدّ الدواوين ثم عُزل وعُوّض عن شدّ الدواوين بشد الدواليب الخاص »(١ . وكانوا يسمون ادارة هذه المعامل « الدولبة » . قال شمس الدين السخاوي في ترجمة ابي بكر بن احمد الاركادي ويعرف بابن وُهيب : « دخل طرابلس وبيروت ودولب القماش في بلده »(٢ . ولابن تغري بردي في ترجمة بدر الدين الدماميني : « مولده بالاسكندرية سنة ٧٦٣ وله النظم الرائق . وعانى بآخره دولبة الحرير بالاسكندرية »(٣

ص ٢٠٧ س ١٧ « خلع السلطان الظاهر على قرا دمرداش نايب طرابلس ومامور القلمطاوي نايب حماه . كل منهما قبا مفترج نخ » . وعلق في الحاشية ٣ على لفظة مفترج : « في الاصل مفترح . ولعلها مفترج بمعنى مفتوح » . ولم يرد في لغة العامة فعل افترج بمعنى انفتح . وانما هو « مقترح » بالقاف والحاء . مأخوذ من قولهم اقترح فلان شيئًا اذا استنبطه او احدثه . واقترح امرًا اذا ابتدعه على غير مثال . وهو في الالبسة والازياء غير غريب . وممن عُرف بكثرة اقتراحه في الازياء والثياب الامير سلار المنصوري . قال ابن اياس : « كان لطيف الذات في ملبسه . واليه ينسب السلاري الى الآن . والمناديل السلارية . وقد اقترح في الملبوس وقماش الخيل وآلة الحرب . وهي منسوبة اليه الى اليوم . »(٤ وقد استعملت هذه اللفظة حتى في التعذيب والضرب بالعصي . وورد منها لابن الفرات قوله : « فامر السلطان باحضاره . فلما أُحضر . ضرب بين يدي السلطان مقترح . » (ص ٢١٦ س ٢٠) وشك الطابع في هذه القراءة فاوردها بين ضمتين .

---

١) النجوم الزاهرة ٥ : ٦٢١
٢) السابع من الضوء اللامع . الخزانة التيمورية ، ص ٤٠
٣) الرابع من المنهل الصافي . الخزانة التيمورية ، ص ٥٦٢
٤) تاريخ ابن اياس ١ : ١٥٥

وهي صحيحة لا غبار عليها . ومن امثلتها ايضاً قول ابن قاضي شهبة :
« سنة ٧٨٥ احضر السلطان سعد الدين البقري . وضربه بالعصي مقترحاً على ظهره نحو ثلثمائة عصاً » (١ وله ايضاً في موضع آخر : « عاقبوه وضربوه .مقترحاً على ظهره » (٢ .ولنا شاهد على هذا التفسير ينفي كل تردد واشتباه قول المقريزي : « سنة ٧٦٠ مات بدمشق الامير اقُسنقر . . اقترح في ولايته عقوبات مهولة . منها انه نعل الرجل في رجليه بالحديد كما تنعل الخيل » . (٣

ص ٢١٦ س ٨ « وحور الناس قماشهم » والصواب : حول باللام .

ص ٢٧٢ س ٢١ « الصاحب علم الدين سن برة » وصحة هذا الاسم : سنّ إبرة .

ومن هذه الاستدراكات والتصحيحات التي مرّت بنا تتضح كثرة ما ركبه ابن الفرات من الغرور والوهم والجهل في ما نقله واستنسخه في كتابه . وامام الدكتور زريق ، في المجلدات الآتية ، عقبات شتى لا نشكّ انه سيذللها بصبره وفطنته واجتهاده ؛ « وقد يصلح العطار ما افسد الدهر ! » .

١) ذيل ابن قاضي شهبة ١٥٩٨ ، ص ٢٨٣ ، خزانة باريس
٢) ذيل ابن قاضي شهبة ١٥٩٩ ، ص ١٣٣ ، خزانة باريس
٣) السلوك ، خزانة الفاتيكان ٧٢٩ ، ص ١٤٣ .

دور الموارنة

في ارتداد الكنائس الشرقية

Le rôle des Maronites dans le retour des Eglises Orientales

ردّ للخوري بطرس روفائيل

بمناسبة تعريب حضرة الاب الفاضل القس اغناطيوس طنوس الخوري ، الراهب اللبناني ، لمؤلّفنا الافرنسيّ المسمّى : (Le rôle des Maronites dans le retour des Eglises Orientales) ، الذي ظهر في بدء سنة ١٩٣٥ ، نشر حضرة الاب الجليل الفاضل فيلبس نبعه البولسي ، في مجلّة المسرّة الغرّاء ، في العدد الرابع من السنة الحالية (١٩٣٧) بحثاً انتقادياً استغرق ١١ صفحة ، وجّه الينا فيه بعض الانتقادات « خدمةً للتاريخ الصحيح » ، ووجد في بعض ما كتبناه « مغالاة ومغالطات وبراهين سخيفة » . فاننا نثني على همّة حضرة صاحب المقال وغيرته على خدمة التاريخ والحقيقة ، ونستميح لنفسنا ان نردّ عليه ببعض ملاحظات نبديها ، متتبّعين صفحات بحثه صفحةً صفحةً ، ومعتمدين النصّ الافرنسي من كتابنا ، فنقول :

اولًا : ان التاريخ يقوم اولًا بسرد الوقائع وعرض الوثائق ، لا بالنظريّات والحكم على النيّات . ولمّا وضعنا الكتاب لم نسطّر شيئاً من عنديّاتنا ، ولم نَقُل قولًا واحدًا الّا ولهُ على الاقلّ مستند تاريخي قيّم ، ولم نتوخَّ المباهاة والمفاخرة بافضال الموارنة على الكنائس الشرقية الكاثوليكية ، بل كان قصدنا كشف بعض ما ادّى الموارنة من الخِدَم للكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة في العهد الاول من نشأتها . وليس في ذلك فضلٌ لانّ مَن يخدم اخاه لا فضل له ، فهو يعمل الواجب . والملكيون والموارنة هم اخوة ، أبناء كنيسة واحدة ووطن واحد ، غايتهم واحدة وَهَدَفُهم واحد . ونحن خصوصاً لنا من بين ابناء الطائفة الملكيّة النبيلة أصدقاء احبّاء اعزّاء ، نفتخر بهم ، ونبذل الغالي والنفيس في سبيل راحتهم وهنائهم ونجاحهم ، ولا نحسب لنفسنا في ذلك فضلًا ما . وزد على ذلك أننا سبقنا وأشرنا في ديباجة كتابنا الى ان الفضل في تجديد الكنائس الشرقية الكاثوليكيّة

يعود في المكانة الاولى الى الكرسي الرسولي ، ثم الى فرنسة . اما كان الموازنة يتزمون حول ذلك بقسطهم الكافي ، ولهذا صدَّرنا الكتاب بهذا العنوان :
(Le rôle des Maronites dans le retour des Eglises Orientales).
وقد طالَمَهُ بامعان كثيرٌ من المتنوّرين والمثقفين ، فأعلنوا ان الاسم يطابق المسمّى .

ثانياً : قال حضرة الناقد (صفحة ٢٤٨ و٢٤٩) ما حرفيّته . « ففي الكنيسة الملكية مثلاً يعود الفضل في تعزيز حركة الاتحـاد الى اساقفتها الكاثوليكيين ناوفيطس نصري اسقف صيدنايا وبرثانيوس اسقف بعلبك وسلفستروس دهان متروبوليت بيروت وبرثانيوس اسقف ديار بكر وباسيليوس فينان اسقف بانياس وافتيميوس فاضل الذين وحّدوا كلمتهم بذاتهم ونظّموا صفوفهم واقاموا عليهم سنة ١٧٢٤ بطريركاً كاثوليكياً باسم كيرلّس السادس طاناس . يعود الى الجهود الجبّارة التي بذلها الطيّب الذكر المطران افتيميوس صيفي متروبوليت صور وصيدا ورهبانهُ النُيّر الذين ضمّوا الى حضن الكنيسة ١٣ الفاً من اخوتنا المنفصلين عنّا . يعود الى رهبان دير القديس يوحنا الصابغ بالشوير الذين برسالاتهم ومواعظهم رمّموا ابرشيات بعلبك ويبرود وزحلة والبقاع واعادوا اليها الحياة الكاثوليكية . يعود الى المرسلين الافاضل الآباء اليسوعيين والكرمليين والفرنسيسكان الذين بعلمهم وغيرتهم بعثوا حياة كاثوليكية جديدة في دمشق وحلب ولبنان » .

نجيب اننا لم نكتب ما يخالف هذا الرأي . قلنا (صفحة ٨٧ من الطبعة الافرنسية) : « وبعد وفاته (اي اثناسيوس الرابع) عقد بعض الاساقفة مجمعاً في دمشق فانتخبوا الاب سارافيم طاناس بطريركاً ، وهو ابن اخت المطران افتيميوس صيفي ، وكانت رسامتهُ في ٢٠ ايلول عام ١٧٢٤ على يد نيوفيطس اسقف صيدنايا وباسيليوس اسقف بانياس وافتيميوس اسقف الفرزل . وكان هو الذي أعدَّتهُ العناية الالهيَّة ليوطّد الكثلكة رسمياً في البطريركية الانطاكيَّة » .

وقلنا عن المطران افتيميوس صيفي انهُ « المؤسس الحقيقي للكنيسة الملكيَّة الجديدة » (صفحة ٨٥) .

وقلنا عن الاب نقولا صائغ وعبد الله زاخر انهما « كانا للطائفة الملكية مفخرةً ومجداً : الاول بكتاباتهِ واعماله على توطيد الرهبانية الشويرية ، والثاني

بماحثه الشهيرة » (صفحة ٩١).

ولم نبخس حق المرسلين الابطال الآباء اليسوعيين والكرمليين والفرنسيسكان وغيرهم ، فكثيراً ما نوّهنا بفضلهم وغيرتهم في صفحات الكتاب وخاصّة في البحث التمهيدي منهُ.

ثالثاً : وزاد حضرة الناقد في صفحة ٢٤٩ قائلاً : « فهل يحقّ لنا مثلاً ان نشيد بفضل الطائفة الملكية على الطائفة المارونية لان المطران جرمانوس آدم الملكيّ عُيّن نائباً عن الكرسي الرسولي في مجمع بكركي المنعقد برئاسة البطريرك يوسف استفان سنة ١٧٩٠ » ؟ نجيب اننا لم نغفل هذا الأمر لتمجيد الطائفة الملكية الكريمة ، فكتبنا في صفحة ١٢٧ ما ترجمتهُ : « جرمانوس آدم كان علّامةً كبيراً ذا حافظة غريبة عجيبة شغلَ منصب الحكم والقضاء في لبنان . وعيّنهُ الكرسي الرسولي مندوبهُ في مجمع بكركي الماروني المنعقد في شهر ك١ عام ١٧٩٠ في عهد البطريرك يوسف اسطفان ».

رابعاً : قد حمّل حضرة الناقد نفسهُ جهوداً وتنقيبات كان بغنًى عنها ، وذلك ليبيّن في اربع صفحات تقريباً (من صفحة ٢٥٠ الى ٢٥٤) انه في ممرّ الاجيال ، كان للكنيسة الانطاكية التي يسمّيها الملكيّة بعض بطاركة متّحدين مع رومية او كاثوليكيين بالقلب . وما استشهد بهِ غير مرّة من اقوال المؤرّخين المسلمين كالقلقشندي والقاضي شهاب الدين العمري ، فاننا ، وان كان لنا كلامٌ عن هذه الشهادات واصحابها ، نقول ، حبّاً بالايجاز ، انه لا حاجة الى ذكرهِ ، اذ جاء في كتابنا ما يطابق رأيهُ فقد قلنا في صفحة ٨٣ : « أبناء هذا الطقس (الملكي) في سورية كانوا يعتنقون مذهب فوتيوس وكيرولاريوس . غير انهُ كان يوجد بعض جماعات من الروم متحدة مع رومة لكنها متفرّقة في انحاء البلاد ولا شمل لها . وقد وُجد اساقفة بعض الاحايين حتى وبعض البطاركة ايضاً مَن كانوا على شعور كاثوليكي ... » . لكن المقصود من كلامنا هو انهُ لم يكن في تلك الاحقاب لطائفة شرقية ، ما عدا للموارنة ، قوامٌ كنسي متّحد مع رومية ، مستقلّ عن الارثوذكس ببطاركتهِ واساقفتهِ ورعاياه ، حاصل على سياق غير متقطّع كامل من الدرجات والمراتب الكنسية . وقد اجمع على ذلك المؤرّخون المدقّقون ، ولا

يقدر ان يُنكره حضرة الناقد الفاضل. وهذا الكيان القومي المستقلّ لم يرَ النور عند الملكيين الّا سنة ١٧٢٤ .

خامساً : قد جاء في صفحة ٢ من كتابنا ما ترجمتهُ : « اولئك البطاركة (الموارنة) المنفردون في الشرق الأدنى بالاتحاد مع رومة كان عليهم ان يوجّهوا العناية والنظر الى جميع الكاثوليك المقيمين ضمن حدود بطريركيتهم . وكانوا يُجرون ذلك بمعرفة الكرسي الرسولي واقراره . يؤيّد ذلك براءة البابا بيوس الرابع الحاملة تاريخ اول ايلول سنة ١٥٦١ وفيها يفوّضهم بان يحلّوا من التأديبات الكنسية ويقبلوا في حضن الكثلكة المنشقّين والاراتقة الجاحدين من اي طائفة كانوا » .

وحضرة الناقد رأي بهذا الصدد صرّح به في صفحة ٢٥٢ قال : « ان في هذا الكلام جزافاً ومغالطة فان الانعام البابوي الذي يشير اليه المؤلف يخوّل البطريرك الماروني سلطةً ليحلّ ابنـاءَهُ الموارنة الذين يسقطون في هرطقة وغيرهم من المنشقّين والاراتقة الجاحدين من ايّ طائفة كانوا ويقبلهم في الكنيسة الكاثوليكية عندما يعودون تائبين . لكنّه لا يفوّض اليه سلطةً البتة على الكاثوليك المقيمين ضمن حدود بطريركيته » .

نجيب : لما كان البطاركة الموارنة منفردين في الشرق الادنى في تلك الايام بالاتحـاد مع رومة ، وبكيانهم الكنسي الكامل الراهن المستقلّ ، كان من المعقول ان يوجهوا عنايتهم الى جميع الكاثوليك المقيمين ضمن حدود بطريركيتهم ، لانه لم يكن لهؤلاء كيان كنسي كامل راهن مستقلّ عن الارثوذكس ببطاركة واساقفة ورعايا . ومن المعقول ايضاً ان يفوّضهم الاحبار الاعظمون ، كما فعل البابا بيوس الرابع ، بان يحلّوا ويقبلوا في حضن الكثلكة المنشقّين والاراتقة والجاحدين من اي طائفة كانوا .

ثمّ اراد حضرة الناقد الفاضل دَعمَ ما تقدّم فأتى ببرهان قال (صفحة ٢٥٢) : « انهُ لما كان بعض الاساقفة الموارنة قد اتخذوا من هذا النصّ مندوحة لينتحلوا لانفسهم سلطةً ليست لهم لسماع اعترافات ابناء الكنيسة الملكية من غير تفويض وحلّهم من التأديبات التي كان يفرضها عليهم اساقفتهم وللتفسيح لهم

من موانع الزواج ومن النذور الرهبانية رفع البطريرك كيرلس السادس طاناس احتجاجاً الى الكرسي الرسولي فأصدر حينئذٍ البابا بندكتوس الرابع عشر براءته (Demandatam) في ٢٤ كانون الاول سنة ١٧٤٣ وحظر على متقلدي الرئاسة في الكنيسة المارونية التدخل في شؤون الكنيسة الملكية ».

قلنا ان هذا البرهان ينقلب على حضرة الناقد الجليل. وهو حجّة لنا لا علينا. لان تدخّل اساقفة الموارنة في امور الكاثوليك من غير طائفتهم كان بناء على الانعام البابوي المار ذكره. لكن لمّا استقرّ عند الملكيين الكيان القومي الكنسي الكاثوليكي الثابت بالبطريرك والاساقفة والرعايا سنة ١٧٢٤ لم يَعُد من حقّ لرؤساء الموارنة بالتدخل في امور الطائفة الملكية الكاثوليكية. ولهذا، بكل صواب، حظّر عليهم الحبر الاعظم كلّ تدخّل سنة ١٧٤٣ اي بعد توطيد الطائفة الملكية رسمياً بتسع عشرة سنة (طالع ذلك في صفحة ١٢٣ من كتابنا).

ونحن نترجم من براءة البابا بيوس الرابع المذكورة ما شاء حضرة الناقد ذِكرَهُ في الهامش في نصّه الاصلي اللاتيني حتى تظهر جلياً نية الحبر الاعظم الذي تكرّم بالانعام المعروف، ومنه يتّضح ان هذا الانعام أُعطي للبطريرك الماروني خاصةً بشأن المنشقّين والاراتقة والجاحدين من ايّ طائفة كانوا، وعَرَضاً بشأن اولاده الموارنة. قال البابا للبطريرك: « اذا حصل لا سمح الله ان كان بين مرؤوسيك مَن أفسدهم المنشقون او تشرّبوا روح الهرطقة فبصدد هؤلاء وكل من سواهم التائبين الراغبين في جحد اضاليلهم والعود الى حضن الكنيسة والايمان المسيحي نفوّض اليكم بموجب سلطاننا الرسولي ان تقبلوهم وتصالحوهم مع الكنيسة الكاثوليكية... »[1].

1) « *Si quis autem forte, quod absit*, subditorum tuorum ab haereticis jam corrupti et haeresi jam imbuti fuerint, ipsos et quoscumque aliquos resipiscentes et ad Ecclesiæ gremium et fidem christianam redire volentes, recipiendi et absolvendi atque catholicæ Ecclesiæ reconciliandi, injuncta pro modo culpæ pænitentia salutari, post abjurationem palam secretove, prout Tibi expedire visum fuerit, (facultatem) apostolica auctoritate concedimus ». Cf. Collectio Lacensis, t. II, col. 421

ويعلم حضرة الناقد من جهة اخرى ان البطريرك الماروني — وقد يماثله غيره من البطاركة في هذا الامر — اذا ما ثبَّتهُ الكرسي الرسولي، لهُ السلطان، بموجب رتبته ووظيفته، ان يقبل في حضن الكنيسة مَن ضلَّ من ابناء رعيته او جحد ايمانهُ او اعتنق هرطقةً، بدون ما حاجة الى تفويض بابوي خصوصي.

ترى اذن ان هذه البراءة أُعطيت للبطريرك الماروني خصوصاً للنظر فيما يتعلق بالجاحدين والمنشقين والاراتقة من غير طائفته.

وبالتالي ليس في كلامنا هذا «جزاف ومغالطة» كما يزعم حضرة الناقد.

سادساً: وفي صفحة ٢٥٣ خطَّأنا حضرة الناقد لمَّا دعَونا البطريرك اثناسيوس دبَّاس الرابع، وهو الثالث على زعمه، قال: «على ان البطريرك اثناسيوس الثالث — وليس الرابع كما يقول المؤلف خطأً — لم يكن مخلصاً في دينه، صادقاً في اتحاده، بل كان ذا وجهين، يميل تارةً مع رومة وتارةً مع القسطنطينية على حسبما تستهويه الاغراض الشخصية». لكننا نحن لم نستقلَّ بتسميته الرابع بل وجدنا ذلك مراراً عديدة في كتب المؤرخين، راجع مثلاً مجلة الشرق المسيحي (*Revue de l'Orient Chrétien*, III[e] année, p. 7 ss.) ومجلة أصداء الشرق (*Echos d'Orient*, t. IV, p. 274, 325, 327, 330 etc.). ان اثناسيوس الثالث الذي يريده حضرة الناقد كان في الربع الاول من القرن السابع عشر وخلَفهُ على الكرسي البطريركي اغناطيوس الثالث ثم كيرلُّس الرابع اما اثناسيوس الرابع دبَّاس فخلَفَ كيرلُّس الخامس للمرة الثانية سنة ١٧٢٠ ومات سنة ١٧٢٤ وخلَفهُ كيرلُّس السادس طاناس الذي فرَّق نهائياً الكاثوليك عن الارثوذكس.

سابعاً: وجاء، من البحث الانتقادي في صفحة ٢٥٤، ما يلي: «وعلى كلِّ ان الكنيسة الملكية الكاثوليكية بكيانها الخاصِّ المستوفي كامل الدرجات والمراتب الاكليريكية لم تظهر منفردة عن الكنيسة الملكية الارثوذكسية في اواخر القرن السابع عشر كما زعم المؤلف، اي على عهد كيرلُّس الخامس، ولا على عهد خلَفه اثناسيوس الثالث دبَّاس، بل سنة ١٧٢٤ لمَّا تبوَّأ العرش الانطاكي كيرلُّس طاناس بطريركاً على الفرع الكاثوليكي وقام منازعاً لهُ البطريرك سلفستروس القبرصي...».

نجيب اننا كتبنا في صفحة ٨٣ ما ترجمتهُ : « اما ان تكون وجدت للروم الكاثوليك كنيسة كاملة الوضع متحدة مع رومة فذلك لم يكن قبل اواخر القرن السابع عشر حيث بدا من البطريرك كيرلّس الخامس ، اذا ما استثنينا اثناسيوس الرابع خَلَفَهُ ، ان يوجد كيان كنسي كامل الوضع ومتتابع من البطاركة الملكيين المتحدين مع رومة تقابلهم كنيسة مستوفاة الدرجات والمراتب الاكليريكية ومتواصلة دون انقطاع من البطاركة الارثوذكس.

«وكيرلّس هذا الخامس قد انتُخب بطريركاً ، وهو ارثوذكسي بعدُ، لكنَّ حياتهُ انتهت في خضوعهِ للبابا الخضوع التامّ . امّا خلفهُ اثناسيوس الرابع فقد كانت بداءتهُ كاثوليكية،وعند وفاته عام ١٧٢٤ كان قد رفض ان يعترف بالعقيدة الكاثوليكية . الّا ان ملكيي دمشق ظلّوا ابناء رومة وانتخبوا سارافيم طاناس تلميذ البروباغندة خلفاً لاثناسيوس ، فاعتنق اسم كيرلس السادس « وكان هو الذي انتدبتهُ العناية الربانية ليوطّد الكثلكة في قطيعه على وضع نهائي راهن ».

واتّخذ اولئك المتحدون الجدد اسم « الروم الملكيين » تمييزاً لهم من الروم الارثوذكس » . هذا ما كتبناه في صفحة ٨٣ ثمّ كتبنا ، في صفحة ٨٧ من كتابنا ، ما ترجمتهُ : « وبعد وفاته (اي اثناسيوس الرابع) عقد بعض الاساقفة مجمعاً في دمشق فانتخبوا الاب سارافيم طاناس بطريركاً ، وهوَ ابن اخت المطران افتيميوس صيفي ، وكانت رسامتهُ في ٢٠ ايلول عام ١٧٢٤... وكان هو الذي اعدّتهُ العناية الالهية ليوطّد الكثلكة رسمياً في البطريركية الملكية الانطاكية » .

فمّا تقدّم يظهر جليًا اننا اعترفنا، مع حضرة الناقد، ان كيرلس السادس هو الذي انتدبته العناية الالهية ليوطّد الكثلكة في قطيعهِ على وضعٍ نهائي راهن ، وتبوّأ العرش الانطاكي سنة ١٧٢٤ ووطّد الكثلكة رسميًا في البطريركية الملكيّة الانطاكية ، ووُجدت الكنيسة الملكية الكاثوليكية كيانها الكامل المستقلّ عن الكنيسة الارثوذكسية . وفي عهده اتّخذ اولئك المتّحدون الجدد اسم « الروم الملكيين » تمييزًا لهم من الروم الارثوذكس. ولمّا قلنا ، في صفحة ٨٥

من كتابنا ، « ان اول بطريرك ابتدأت به سلسلة البطاركة الملكيين انما هو كيرلس الخامس في اواخر القرن السابع عشر » لم نعنِ بذلك ان كيرلس الخامس هو الذي وطّد الكثلكة رسمياً في البطريركية الملكية الانطاكية على وضعٍ نهائي راهن ، فقد سبقنا واوضحنا ان هـذا الفضل يرجع الى كيرلس السادس طاناس سنة ١٧٢٤ . ولم نعنِ ايضاً بذلك ان اول بطريرك ابتدأت به سلسلة البطاركة الملكيين غير المتقطعة هو كيرلس الخامس ، لاننا سبقنا وصرّحنا بان هذه السلسلة عراها الانقطاع في شذوذ اثناسيوس الرابع ، خلف كيرلس الخامس (راجع صفحة ٨٣) . لكن عنينا بذلك ان حركة الارتدادات الى الكثلكة أخذت تنمو ، والنواة التي منها خرجت الكنيسة الملكية الكاثوليكية اخذت تتجسّم في عهد كيرلس الخامس الذي ارسل الى الكرسي الرسولي كتاب شركته واعترفت به رومة سنة ١٧١٨ ومات كاثوليكياً . والآن صار كلامنا أصدق وأصح اذا ما سلّمنا بافادة مجلة أصداء الشرق عن موت اثناسيوس الرابع دبّاس في حضن الكنيسة الكاثوليكية (*Echos d'Orient*, t. VI, p. 248) فيكون اثناسيوس هذا مات كاثوليكياً، وكيرلس الخامس سَلَفُهُ مات كاثوليكياً، وأتى بعدهما كيرلس السادس مجدّد الكنيسة الملكية الانطاكية الكاثوليكية . فكلامنا هذا مفهوم وليس فيه ايهام وبأقوى حجّة ليس هو « كلاماً غريباً كثرت فيه وجوه الغَلَط » كما ادّعى حضرة الناقد (صفحة ٢٥٣) .

ثامناً : وفي صفحة ٢٥٥ آخذنا حضرة الناقد ثلاثاً فادّعى اولاً : « ان دير الملاك ميخائيل في زوق مكايل ليس هبةً من الشيخ خالد الخازن بل مشترى والذي اشتراه هو الخوري مكسيموس حكيم الرئيس العام على الرهبان الباسيليين الحنّاويين بثمن قدره ١١٨٠ قرشاً كما جاء في حجّة البيع . وكذلك القول عن دير سيدة البشارة للراهبات الملكيات الذي انفق على ابتياع ارضه الخوري نقولا صائغ والشماس عبدالله زاخر ما بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ غرش » .

قلنا : ان ما كتبناه بهذا الصدد (صفحة ١٢٦) أخذناه عن مقال للشيخ شاهين الخازن . والشيخ شاهين الخـازن كاتب معروف في عالم الادب والصحافة ، له المقالات القيّمة في التاريخ وخصوصاً فيما يتعلّق بعائلته وقد جمع عنها الوثائق

الكثيرة . قد كتب في مجلة المشرق (المجلد الرابع سنة ١٩٠١ صفحة ٩٧٥ وما يليها) ما نصّهُ : «وسنة ١٧١٩ جاءت ثمان عذارى من طائفة الروم الملكيين طالبات الترهّب فباشر الآباء اليسوعيون الاجلاء بناء دير لهنّ على اسم سيدة البشارة في المحلّ المعطى من الشيخ موسى الخازن في زوق ميكائيل ... وسنة ١٧٤٧ بنى الرهبان الباسيليون من طائفة الروم الملكيين ديرهم مار ميخائيل جنوبي زوق ميكائيل في المحلّ الذي وهَبَهُ لهم الشيخ موسى بن طربيه الخازن ...» واختتم حضرة الشيخ مقالهُ بهذه العبارة : «هذه هي الاديار التي اعطاها بنو الخازن لغير اللبنانيين ولم اذكر الاملاك الواسعة التي وقفوها لانها تقتضي مئات من الصفحات يُجمع منها مجلّد ضخم امّا حججها وصكوكها فلم تزل محفوظة لدى ورثة الواقفين ولم انوّه بها في محالّها ذهاباً الى الاختصار» .

ثمَّ في الصفحة ٢٥٥ نفسها زعم حضرة الناقد ان القوانين التي أُلزمت الراهبات الملكيات باتباعها لم تكن رسوم القديس انطونيوس بل قانون القديس باسيليوس الذي جرى عليه الرهبان الشويريون وأقرّهُ لهم الكرسي الرسولي . فاجيبُ حضرتهُ ان الراهبات الملكيات أتينَ لبنان سنة ١٧١٩ وكان الرهبان الشويريّون في ذلك العهد يتبعون قوانين الرهبان الموارنة اي رسوم القديس انطونيوس وكانوا لا يزالون تابعينهُ حتّى سنة ١٧٣٧ كما أعلن ذلك رئيسهم العام ذو التقى والفضل نقولا صائغ في تقريره المرفوع الى مجمع نشر الايمان في ١ حزيران سنة ١٧٣٧ (راجع أصداء الشرق المجلّد العاشر صفحة ١٧٢) وكما صرّح بهِ السيّد السمعاني في مقدّمته على قوانين القديس باسيليوس التي صادق عليها الكرسي الرسولي سنة ١٧٥٧ . فقد استعمل اذن الملكيون قوانين الرهبان الموارنة لرهبانهم مدّةً وهذه المدّة ليست بوجيزة كما يريد حضرة الناقد (صفحة ٢٥٥) .

واخيرًا : امّا ما ذكرناه عن جمعية المرسلين البولسيين الزاهرة المشهورة باعمال الغيرة والفضيلة من انّها تمثّلت في وضع قوانينها بجمعيّة المرسلين اللبنانيين الموارنة فليس وهماً كما يظنّ حضرته ولا اختلاقاً . انّنا نقلناه عن مصدر ثقة وهو حضرة الاب كيرلّس شارون . والاب شارون عالم مشهور ، وهو المؤرّخ المدقّق العظيم للطائفة الملكية ، الخبير بامورها ، والمطّلع على حوادثها ، عاش مدّةً غير وجيزة

في بيروت ولبنان ، وقد عرفناه وكنا نتبع معاً دروس المعهد الشرقي. كتب سنة ١٩٠٥ عن جمعية المرسلين البولسيين مقـالاً تاريخياً طويلاً ، وذلك بعد تأسيسها بسنتين ، وفي حياة مؤسسها المثلث الرحمات المطران جرمانوس معقد نوردُ منهُ ما يتعلق بالموضوع قال : « وقبل ان يضعَ المطران جرمانوس (معقد) موضع التنفيذ الفكرة التي نتكلم عنها بمدة طويلة ، كان مطران جليل ماروني ، هو الحبر يوحنا حبيب ، رئيس اساقفة الناصرة شرفاً ، أسسَ في الكريم (لبنـان) جمعيةً صغيرة من المرسلين مختصين للوعظ والتبشير في قرى طائفته. فالمطران جرمانوس كان لهُ فكرة في تأسيس جمعية مماثلة (الجمعية الكريمين). وكان يريد ان يعيش عدد من الكهنة المرسلين عيشة اشتراكية فيذهبون من وقت الى اخر الى القرى المهملة فيقيمون فيها الرسالات والرياضات ويعلّمون الشعب التعليم المسيحي حيثما تدعو الحاجة . . . ومن مدة التجأ الى حريصـا وفيها شيّد على نفقته مسكناً صغيراً » اه (راجع *Echos d'Orient*, (1905), t. VIII, p. 238).

ولا تنسَ ان قرية حريصا هي قريبة جداً جداً من دير الكريم حيث تقيم جمعية المرسلين الموارنة ، وكثيراً ما كان المثلث الرحمات المطران معقد والمرسلون الكريميون يتصادفون ويتزاورون ويتجاذبون اطراف الحديث عن الاعمال المفيدة للنفوس والموافقة للبلاد . وليس لاعضاء الجمعيتين ثوب يميّزهم عن الكهنة شركائهم العلمانيين فهم يلبسون مثلهم . انما لهم علامة حمراء فارقة ، فللآباء البولسيين زر احمر فوق « قلوستهم » وللاباء الكريميين صليب احمر فوق « طربوشهم ».

***

وبعد ان عرضَ حضرة الاب الفاضل في بحثه مواضع النقد هذه التي فندناها آنفاً واحداً واحداً ، طلب في الختام ان نعمد الى « تعديل ما يقتضيه التاريخ الراهن » .

وعليه ، فمـا تقدّم ، لا نرى داعياً الى مثل هذا التعديل المطلوب والمرغوب فيه .

وفي كلّ حال ، نكرّر شكرنا لحضرته وثناءنا على همته وغيرته ، اذ هيأ لنا فرصة للتوسُّع في بعض نقاط الموضوع ، تنويراً للاذهان ودفعاً للاوهام.

نسخة خطيّة من شعر الاخطل

وُجدت موخَّرًا في طهران

بقلم الاب انطون صالحاني

في شهر تموز من السنة ١٩٣٢ ، اتاني تحرير من صديقي المستشرق اغناطيوس كراتشكوفسكي به يخبرني بوجود نسخة خطيّة من شعر الاخطل ، غير معروفة الى الآن ، يرتقي عهد كتابتها الى السنة ٤٩٩ هجرية (١١٠٥ مسيحية) ملك السيد عبد الرحيم خلخالي بطهران (ايران).

فبادرتُ الى مخابرة السيد ، صاحب النسخة ، لأعرف حالتها واهميتها . فاجابني حضرته بتاريخ ١٠ آب . ومما قاله : «. . . اني كنتُ في ما مضى مشتغلًا بطالعة كتب القدماء . من دواوين وتواريخ وغيرها . فجمعتُ عدّة من الكتب والنسخ الخطّيّة ما تيسّر لي . ومنها ديوان الشاعر اخطل التغلبي . وتاريخ كتابتها سنة ٤٩٩هـ وتاريخها مكتوب بالحرف تسع وتسعين واربعماية . وهي اقدم نسخة اطلعتُ عليها . ومن مزايا هذه النسخة كما يظهر من بعض الحواشي ومن خطوط ظهر الصفحة الاولى ان الاديب المعروف بالخطيب التبريزي شارح الحماسة صحّحها وقابلها بالنسخة الاصلية من البداية الى النهاية . وبعض المعاصرين من اهل العلم يظنّون ان النسخة بخطه الشريف . ومن مزاياها ايضاً ان الالفاظ المُعضلة والاشعار المشكلة شُرحت بتمامها وأُوضحت . واظن ان الشارح هو الخطيب المذكور . والاوراق والصفحات كلّها سالمة . . .»

وبعد مخابرات دامت اربع سنوات ، تمّ الاتفاق بيننا في شهر حزيران ١٩٣٦ . فأرسلت اليَّ النسخة في ٤ ايار من هذه السنة ١٩٣٧ . وحالًا ابتدأتُ بمطالعتها ومقابلتها بالاربع النسخ المطبوعة من شعر الاخطل . فتحققتُ انها اكملها ، ليس فقط بمحتوياتها ، لكن ايضاً بصحّة رواياتها وبضبط حركاتها . فلا تكاد تجد فيها من الغلط الا ما ندر . فضلًا عن انها تحتوي على قصائد وقطع شعر لا وجود لها في الاربع النسخ التي نشرتها المطبعة الكاثوليكية ، كما سنبين ذلك .

الّا ان النسخة لا تخلو من بعض الاغلاط، وان كان التبريزي قابلها . فانّ لكلّ جواد كبوة . فاللغة العربية لكثرة ما في كتابتها من الحروف المميّزة بالنقط، ولكثرة ما يتبعها من الحركات، يصعب ان لا تقع فيها اغلاط مهما جدّ وتأنّى الكاتب . مثلًا في البيت :

نعابةٌ بعدَ الأَيْنِ يُغزِعها   صوتٌ لآخَرَ تالٍ بعدها يقعُ

فكتب في شرح اللفظة نعابة « النمتُ سرعة . . . » عوض « النعبُ سرعة . . . » فاخطأ سهوًا

ويغلط ايضاً الذي يعارض النسخة بالاصل اذا كان من العلماء لانه يلتفت الى المعاني اكثر منه للاغلاط المادّية

امّا قول البعض انّ كاتب النسخة هو الخطيب التبريزي، شارح الحماسة، فأرى انه غير صحيح . لان الخطيب التبريزي توفّي في السنة ٥٠٢ وله من العمر ٨١ سنة . فمن يا ترى يقبـل بالقول انّ شيخاً طاعناً في السنّ محبّاً للآداب، مشغوفاً بشرح الاشعار العويصة المعاني، يخصص وقته الثمين، وذلك ثلاث سنوات قبل وفاته، لكتابة ٥٠٣ صفحات بجدّ وتأنٍّ، وهو غير محتاج لكسب معاشه .

انّ ما جعل البعض يقولون انه كاتب النسخة هو ما ورد في الصفحة الاخيرة منها : « عورض من اوله الى آخره والحمد لله . . . وصلّى الله على محمد و . . . » وتحت هـذه العبارة كُتبت العبارة التالية ايضاً : « هذا خط الخطيب التبريزي اللغوي شارح الحماسة » . فعندي ان العبارة الثانية هي خاصّة بالعبارة الاولى « عورض . . . » لا بكتابة القصائد . اي ان الخطيب عارض النسخة بالاصل المنسوخة عنه . ودليل آخر على ان الخطيب انّما عارض النسخة فقط هو ما ورد في بدء النسخة : « شعر الاخطل ابي مالك غياث بن غوث . . . التغلبي . . . السكّري روايته عن ابي جعفر محمد بن . . . » . وتحت هذا العنوان كُتب : « يحيى بن علي الى ا التبريز . عارضته بالاصل المنسوخ منه من اوله الى ا . . . والحمد لله رب العالمين وصلى . . . ربنا محمد » . اما اسم الخطيب التبريزي فهو كما ورد في كتاب نزهة الالبّاء في طبقات الادباء (ص٤٤٣) : « ابو زكريا يحيى بن عليّ بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني الخطيب التبريزي » .

وقد لاحظتُ ان اللفظة « عُورض » التي في الصفحة الاخيرة تشبه كتابتها كتابة اللفظة « عورض » الواردة كثيرًا في هامش بعض الصفحات . فكل ذلك دليل على ان الخطيب قد عارض النسخة لا انه كتبها .

تحتوي النسخة على ٥٠٣ صفحات . طول الصفحة ٢٢ سنتيمترًا ، بعرض ١٧ . وطول المكتوب منها ١٦ ، بعرض ١٤ س . ويوجد عادة ١١ سطرًا في الصفحة . وفي بعضها ينتهي بيت الشعر بكلمة او بكلمتين في الهامش . والحبر شديد السواد على ورق غليظ متين يضرب قليلًا الى الاصفرار، غير ممزّق لا في وسط الصفحة ولا في دائرها .

وتُرسم الكسرة غالبًا مائلة من الشمال الى اليمين كما في نسخة بطرسبرج . والشين بثلاث نقط افقية عادةً فوق السين هكذا ... وتؤكَّد الحروف الخالية من النقط بعلامات التحقيق فتُرسم حا. صُغيرة تحت الحا. ، وصاد صغيرة تحت الصاد، وطا. صغيرة تحت الطا. ، وعين صغيرة ء تحت العين . وتحقق الرا. والسين من فوقها بهذه العلامة ٮ اي لا نقطة عليها . وقد يُحقق حرف السين بثلاث نقط افقية تحته؛ والألف المقصورة كثيرًا ما يضع الكاتب نقطتين تحتها كأنها يا. ، وتُلفظ الفًا . وحرف الكاف يرسم عادةً كأنه لام لكن مائلًا قليلًا الى الشمال ، وبعض الاحيان توضع كاف صغيرة فوقه ، وقد يُرسم كما نرسمه اليوم . وتنوين الرفع يُرسم بضمة تعلوها فتحة . والالف المنفردة تنتهي في اسفلها بعكفة الى الشمال .

واذا كان الحرف خاليًا من الحركات فيُرسم عليه صفر هو دائرة صُغيرة غير كاملة كانها دال صغيرة ، وبعض الاحيان دائرة كاملة . ويعبّر عن ألِف المدّ بألف ثانية تليها ، مثلًا آل تُكتب « اال » . ويحقق حرف الدال بنقطة تحته . وها. الضمير بوضع هـ فوقها . ويُكتب عنوان القصيدة بالحبر الاسود ؛ لكن باحرف اكبر واغلظ . واذا سها الكاتب عن كتابة لفظة في بيت شعر او في الشرح فيضع في موضعها شحطة مقوّسة مائلة الى اليمين او الى الشمال ويكتب الكلمة امّا في هامش اليمين وامّا في هامش الشمال . وعند انتها. العبارة توضع عوض النقطة ه منتهية بشحطة الى الاسفل . ويضع نادرًا في اسفل الصفحة اللفظة التي تبتدئ السطر في الصفحة التالية .

اني ارجح ان الكاتب كان من الشيعة . لانه اكثر من مرة ، بعد ذكر يزيد بن معاوية في عنوان القصيدة، اتبع اسم يزيد بهذه العبارة في الهامش « لعنة الله على يزيد » .

وقصارى الكلام اني قلما رأيت نسخة خطية سُطرت من ثلثمائة واثنتين وثلاثين سنة حُفظت بهذه الحالة من السلامة ، وحُسن الورق والحبر ، والعناية في كتابتها .

هذا في ما يخص ظواهر النسخة . اما في ما يتعلق بموضوعها فانها تحتوي على كل ابيات شعر الاخطل الواردة في نسخة بطرسبرج ، وبغداد ، والنقائض ، ونسخة اليمن ، الّا ثلاث قصائد وردت في نسخة اليمن وحدها ، في الصفحات ١٢ و١٥ و١٨ ، وثلاثة ابيات وردت في الصفحة ٦٨ . الّا ان القصيدة التي في الصفحة ١٥ من نسخة اليمن ومطلعها :

هل عرفتَ الديارَ يا ابنَ اوَيسٍ : دارساً نُؤيُها كخطِّ الزبورِ

نُسبت في كتاب الحيوان للجاحظ (كتاب ٦: ١٠٨) الى زيد بن بشر التغلبي . فان صحّت هذه النسبة لم يبقَ الّا قصيدتان من شعر الاخطل هما في نسخة اليمن وليستا في نسخة طهران . ومعلوم ان نسخة اليمن ينقصها كثير من شعر الاخطل .

وتحتوي نسخة طهران على قصائد وقطع شعر للاخطل لا توجد الّا فيها . وهذا ما يجعلها من اكمل النسخ لشعر الاخطل وانفسها .

لمّا طبعتُ في السنة ١٨٩١ نسخة بطرسبرج ، أضفتُ اليها الابيات التي لم تكن فيها ، وكنتُ وجدتها في امهات اللغة وفي كتب الادب منسوبة للاخطل مثل البيت الذي نسبهُ البكري (٣٥٤) للاخطل (نسخة بطرسبرج ص٣٧٨) وهو :

حُولةَ بالدُّمَى رسمٌ كأنهُ عن الحول صُحفٌ عادَ فيهنَّ كاتبُ

فكان سروري عظيماً عندما وجدتُ في نسخة طهران هذا البيت ، وهو مطلع قصيدة ذات ٣٢ بيتاً لا توجد الّا في نسخة طهران . ومن هذه القصيدة البيت الذي نسبه البكري (٦٨٤) للاخطل وهو :

وعارضُ اسراب القطا فوق عاهنٍ فممتنعٌ منه وآخرُ شاجبُ

وقال الشارح : « عاهنٌ جبل معروف وشاجبٌ هالكٌ » .

ونسب البكري (٣٥٦) للاخطل (نسخة بطرسبرج ٣٨٠) البيت :

حَلّت سُلَيمى بدوغانَ وشطَّ بها   غربُ النَّوَى وتَرَى في خلقها اودا

فهذا البيت مطلع قصيدة لا توجد في نسخة بطرسبرج وتوجد في نسخة طهران ونسخة بغداد. وفي نسخة طهران يروى : بروغان مع علامة التحقيق على حرف الراء . وفوق الكلمة « اودا » كُتب « العَوَج ».

ثم ان البيت المنسوب للاخطل في نسخة مسالك الابصار مع اغلاط بيّنة (نسخة بطرسبرج [18] ٣٩٠) :

وسُرِّق الدهناء مُلْث كانها   جلاجل بُرّ ذو جلاجلَ مُثقلُ

وكنتُ قدّرتُ ان موضعه بعد السطر السابع من الصفحة التاسعة من الديوان فقد وجدتُه في نسخة طهران في القصيدة ذاتها في الموضع الذي قدّرته له مصحّحاً هكذا :

وشَرَّقَ للدهنا مُلِثٌّ كأنّهُ   مُحمَّلُ بَزٍّ ذو جَلاجلَ مُثقَلُ

وابيات غيرها منسوبة للأخطل ليست في النسخ وجدتها في نسخة طهران. وروايات مغلوطة رُويت مصحّحة فيها.

وفي ديوان الاخطل طبعة نسخة بطرسبرج (ص ٣٠٧) ثلاث ابيات حائية يردّ بها الاخطل على جرير كنتُ كتبتُ هناك غلطاً (ذيل الاخطل ص ٥٥٦ عدد ٣٠٧) انها من قصيدة حائية للاخطل مُثبتة في نسخة اليمن (ص ١٢-١٥). وقد وجدتها في نسخة طهران في قصيدة حائية مختلفة عن نسخة اليمن تحتوي على ١٤ بيتاً . ومطلعها :

ألَا جعل اللهُ الاخلّاء كلّهم   فداءً لعوثٍ حيثُ أمسَوا وأصبَحوا

ثم ان كاتب نسخة طهران أتى على ذكر اخبار بعض ايام العرب. مثل يوم البِشر ويوم الثرثار ويوم الكُلاب الاول (وهذا باسهاب) ويوم الكُحَيل ويوم الشرعَبية ويوم إراب . ويجب القول ان الشارح لم يترك اسم علم الّا شرحه شرحاً كافياً .

الى غير ذلك من الملاحظات التي سنثبتها في الحواشي التي نعلقها على الديوان وقد تتبعتُ الابيات التي لا وجود لها الا في نسخة طهران فكان عددها ١٤٨ بيتاً . فصحّ اذاً انها اكمل نسخة لشعر الاخطل .

هل كان المسيح نجّارًا ؟ *

بقلم سرجيوس جبيليوف
عضو الاكاديمية العلمية

لما رجع المسيح الى الناصرة مسقط رأسه بعد ان اتم خدمته في الجليل ، واخذ يعلّم في المجمع ، كثيرون من اليهود الذين كانوا حاضرين تساءلوا مبهوتين : من اين له هذه الحكمة ، وكيف يستطيع ان يأتي بهذه المعجزات ؟ «اليس هذا هو النجار — τέκτων — ابن مريم واخا يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان ؟ او ليست اخواته ههنا عندنا ؟ وكانوا يشكون فيه »(مرقص٦ :٣) ولكن في رواية متّى ، المقابلة للرواية المذكورة ، لم يذكر ان المسيح كان نجّارًا . وانما قيل هناك ان اباه يوسف كان نجارًا[1] — τέκτων — « اليس هذا هو ابن النجار اليست امه تسمى مريم ، واخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا . أو ليست اخواته كلهنّ عندنا ؟ فمن اين له هذا كله ؟ وكانوا يشكون فيه » (١٣ : ٥٤—٥٧) .

اما في انجيل لوقا (٤ : ٢٢) فان اليهود اقتصروا على السؤال : «اليس هذا هو ابن يوسف» ؟ ولم يذكر هناك ان المسيح او اباه كانا يحترفان حرفة النجارة[2] .

واما في انجيل يوحنا (١ : ٤٥) فان الشك في ان يسوع هو المسيح الموعود

---

*) عرّبها عن الروسية ب . ج .

١) يقرأ في بعض المخطوطات الشطر الاول من آية مرقص هكذا : « اليس هذا ابن النجار والنجار » الا ان هذه الرواية التي ضمها (Westcotte-Hort) الى غيرها واطلق عليها اسم « الغربية » (Western) قد أهملت حين حدّدوا نهائيًا متن الانجيل الثاني .

٢) مصدر لوقا هو ، ولا شك عبارة المسيح المذكورة بعيد ذلك : « انه ليس نبيٌ مقبولًا في وطنه » (٤ : ٢٤) . يرى بعض المفسرين في سؤال اليهود « اليس هو ابن يوسف » اشارة ازدراء الى طبقة يسوع الاجتماعية المنحطّة . وهم يستندون الى سفر الملوك ١٠ : ١١ «ماذا جرى لابن قيس أشاؤول ايضًا من الانبياء» و٢٠ : ٣٠ «ألم أعلم انا (شاول) أنك انت (يوناثان) قد تعصّبت لابن يسّى لخزيك وخزي سوءة امّك» ولكن ما هذا التفسير ؟ وما ادراهم ان سؤال اليهود ينطوي ، ولا شك ، على شيء من الازدراء ؟

به يُعزى الى نتنائيل من بيت صيدا ، فان اخاه فيليب يقول له : « ان الذي كتب عنه موسى في الناموس والانبيا. قد وجدناه ، وهو يسوع بن يوسف من الناصرة. » فالنقطة الهامة في نظر يوحنا هي ان يسوع نشأ في الناصرة ، ولهذا اجاب نتنائيل فيليب : « أيكون من الناصرة شي. صالح ؟ »

اذا كان لا بد من تعليل سكوت الانجيل الرابع عن حالة (طبقة) يسوع الاجتماعية . ففي صفات هذا الانجيل الخاصة به والمميزة له عن غيره ما يكفي لذلك . ولكن كيف نعلل سكوت الانجيل الثالث — المعروف بميله الى الشروحات والاخبار الطويلة — عن حرفة يسوع وابيه التي كانا يحترفانها ؟ سنجيب على هذا السؤال بعيد ذلك . اما الآن فدعنا نشتغل بعمل لغوي محل ، ولكن ضروري لنرى في ايّ معنى يستعمل مرقص ، ومتى ، كلمة τέκτων وهل من الضروري ان نترجمها بكلمة « نجّار » كما ترجمتها ، ولا تزال تترجمها ، اللغات الاوربية الحية ؟[1].

ان τέκτων كلمة يونانية[2] قديمة ومعناها الاصلي يقابل معنى كلمة « صانع » مع قطع النظر عن الموادّ التي يشتغل بها . ولكن ليس كل صانع τέκτων وانما الصانع الماهر (أوسطه) فقط . هكذا فهم هذه الكلمة اصحاب المعاجم (طالع Hesych. : τέκτων πᾶς τεχνίτης = (τέκτων — كل صانع) و Suid. : κοινῶς τεχνίτης = الصانع على التعميم) وهي تستعمل للدلالة على النجّار ، وصانع المراكب ، والبنّاء ، والحفّار ، والحدّاد الخ . وقد تطلق مجازًا على الشعراء (ὕμνων τέκτονες, τέκτονες σοφοὶ ἐπέων) بل ان نفس اسكلابي يسمّى في شعر بندار τέκτων νωδυνιᾶν ἅμερος وفي بيت من ابيات الاوديسية لهوميروس استعملت τέκτων δούρων (384) الى جانب μάντις (عرّاف) ἰητήρ (طبيب) θέσπις ἀοιδός (شاعر او منشِد مُلهَم ، موحى اليه) وكل هذه العبارات تدخل في صف الاصطلاحات المعروفة باسم δημιουργοί (خلّاق .

(١) تؤدّي الترجمة اللاتينية كلمة τέκτων ب faber اما الروسية فانها لم تترجمها هنا .

(٢) Prellwitz (طالع المعجم اليوناني طبع Goettingen ١٩٠٥ ص ٤٥٤) يشتق كلمة τέκτων من tekso (احدث . انشأ . صنع . تفنّن في عمله . ولد . نجر . تعاطى حرفة النجّار)

مبتدع . منشئ.) أفإذا كانت τέκτωνα تُطلق على كل نوع من انواع الصناع ، فهل من الصواب ان نترجمهــا في جميع الآيات الانجيلية بكلمة نجّار ؟

لم ترد كلمة τέκτων في كتب العهد الجديد الا مرتين . وذلك في المواضع التي ذكرناها فوق هذا. اما في اسفار العهد القديم فانها وردت مرات عديدة إمّا مستقلّة او باضافة كلمة اخرى اليها.وها نحن نذكر هذه المواضع الاخيرة :

١َ ــ سفر الملوك الاول ١٣ :١٩ « ولم يكن يوجد في كل اسرائيل صانع حدادة اي حداد τέκτων σιδήρου »

٢َ ــ سفر الملوك الثاني ٥ :١١ « ووجه حيرام ملك صور رسلًا الى داود واخشاب ارز وصنــاع حدادة وصناع نحاتة » (نجارين وحدادين τέκτονας ξύλων καὶ τ. λίθων)

٣َ ــ سفر الملوك الثالث ٧ :١٢(١٤) . . . « وابوه من صور صانع نحاس » τέκτων χαλκοῦ ...

٤َ ــ سفر الملوك الرابع ١٢ :١١ (١٢) « فيؤدونها الى صناع النجــارة » τοῖς τέκτοσιν τῶν ξύλων

٥َ ــ سفر اخبار الايام الاول ١٤ :١ « ووجه حيرام ملك صور رسلًا الى داود. . . وبنّائين وصناع خشب » (اي نجّارين τέκτονας ξύλων)

٦َ ــ سفر اخبار الايام الاول ٢٢ :١٥ « وعندك صنــاع كثيرون للعمل نحاتون ونقاشو حجارة وخشب »[1] τέκτονες ξύλων

والآن ننتقل الى المواضع التي استعملت فيها كلمة τέκτων بدون مضاف.

١َ ــ سفر الملوك الرابع ٢٢ :٦ رئيس الكهنة حلقيا يسلّم بامر الملك يوشيا الفضة المهداة الى بيت الرب الى متولي العمل في بيت الرب « الى النجارين ــ τέκτοσιν ــ والبنائين ورافعي الجدران » هكذا جاء في الترجمة الروسية (والعربية م.) على انّنا نشكّ في صحة هذه الترجمة . وذلك اولًا لان كلمة οἰκοδόμοι

١) قابل سفر الخروج ٣١ :٥ « والنجارة الخشب – τὰ ἔργα τεκτονικὰ τῶν ξύλων ومجازًا في سفر الامثال ١٤ :٢٢ : « لا يعرفون رحمة وصدقًا فاعلو الشر – τέκτονες κακῶν – والرحمة والصدق عند النعمة الصالحين » ἀγαθοῖς τέκτοσιν (وفي ترجمة الآباء اليسوعيين : « الذين ينشئون الشرّ هم في الضلال والرحمة والصدق للذين ينشئون الخير ») (م)

(البنّاؤون) تعني هنا ، على ما ارى ، المشيّدين على الاطلاق . فاذ صحّ هذا الظنّ نتج عنه ان لا ضرورة الى ترجمة τέκτονες بكلمة « نجّارين » بل الافضل ان تترجم بكلمة صناع ماهرين (اوسطا) او « بفعلة » بدون تخصيص . والظاهر ان الترجمة الشائعة قد تأثرت بالشطر الثاني من الآية نفسها : « . . . لشراء خشب وحجارة منحوتة لمرمّة البيت » . ولو قرأنا الاية كلها بامعان لاتّضح لنا بأن حلقيا سلّم الدراهم اولًا الى صانعي العمل اي الى الصنّاع (الفَعَلَة) والمشيّدين (مراقبي العمل او القيّمين) في بيت الربّ ورافعي الجدران . وثانياً لشراء خشب وحجارة .

٢ — سفر الملوك الرابع ٢٤ : ١٤ « وجلا (نبوكدنصر) اورشليم وجميع الرؤساء والمقتدرين . . . وجميع الصناع والمحصّن » ، ومثلها في سفر الملوك الرابع (٢٤ : ١٦) حيث ترجمت τέκτονες الى الروسية بكلمة Khoudógenik (متفنّن . رسّام . artiste) (وفي العربية بكلمة أقيان) وكلها غير صحيح .

٣ — سفر اخبار الايام الاول ٤ : ١٤ « وسرايا وَلَدَ يواب ابا وادي الصنّاع لانهم كانوا صنّاعاً » — τέκτονες — اذا اردنا ان نوضح معنى τέκτονες في هذه الآية وجب ان نرجع الى الاصل العبراني חרשים (faber)

٤ — سفر اخبار الايام الثاني ٢٤ : ١٢ « استأجر القائمون بالعمل نحّاتين ونجّارين — τέκτονες — ليرمّموا بيت الرب وصنّاع الحديد والنحاس لتعزيز بيت الرب » . اذا اعتمدنا فقط على متن الآية جاز ان نترجم كلمة τέκτονας هنا بكلمة نجّارين . الّا ان هذا ليس بضروري ، لانه لا يجوز ان ندلّ هنا على الصنّاع ايضا بدون تحديد الحرفة . وبالاخص اذا اتبعنا في تحديد الآية رواية *Codex Alexandrinus* حيث سقطت العبارة « وصناع الحديد والنحاس لتعزيز بيت الرب » .

٥ — سفر اخبار الايام الثاني ٣٤ : ١١ « اعطوا النجارين والبنائين ليشتروا حجارة منحوتة وخشباً للوصل ولتصفيح البيوت » ما المراد هنا من كلمة τέκτονας هل « النجّارين » على وجه التخصيص ام الصنّاع على الاطلاق ؟ [1]

---

١) في الاصل العبراني نجد الاصطلاح ذاته : חרשים (faber) اي صانع ماهر (أوسطا) او صانع على الاطلاق .

٦ — سفر عزرا الاول ٥:٥٣ (٥٤). الكلام في هذه الآية عن الاشغال التمهيدية لاعادة بناء الهيكل حين « اعطوا فضة للنحاتين والنجارين — τέκτοσι — وطعاماً وشراباً وزيتاً للصيدونيين والصوريين ليأتوا بخشب الأرز من لبنان الى مينا يافا » وهنا ايضاً لا اخاطر في تحديد معنى τέκτονες على اني ارجح استناداً الى سياق الكلام ان المراد هنا من هذه الكلمة « النجارون » (قابلها على سفر عزرا الثاني ٣:٧).

٧ — هوشع ٨:٦ « وهذا (الصنم) قد صنعه صانع — τέκτων — فليس هو باله » (عارضها على ١٣:٣) ف τέκτων هنا تعني ولا شك الحفّار او الصانع المتفنّن (artiste).

٨ — زخريا ١:٢٠ « واراني الرب اربعة صناع τέκτονας » الارجح ان الكلمة استعملت هنا مجازاً. وعلى كل حال هي لا تفيد معنى النجّارين.

٩ — اشعيا ٤٠:١٩—٢٠ « ان التمثال يسبكه الصانع ويمدّ عليه الصائغ صفائح من الذهب » — μὴ εἰκόνα ἐποίησεν τέκτων...ξύλον γὰρ ἄσηπτον ويختار الصانع عوداً لا ينخر » هنا، ولا ريب في ذلك، ἐκλέγεται τέκτων تدلّ τέκτων على الصانع الحاذق (artiste).

١٠ — اشعيا ٤١:٥—٧ « ... فشدّد النجّار ἀνὴρ τέκτων — الصائغ والصاقل بالمطرقة من يضرب على السندان » اقرب الى الصحّة ان نفهم هنا كلمة τέκτων بمعنى الصانع على الاطلاق.

١١ — اشعيا ٤٤:١٢—١٣ « الحدّاد — τέκτων — يصنع قدوماً... والنجّار — τέκτων — يمدّ الخيط ويُعلم الخشب بالمغرة ويسوّيه بالنحت ويرسمه بالبركار ويصنعه على شكل انسان وجمال بشر ليبقى في المنزل » ففي الشطر الاول τέκτων تعني حقيقة الحداد. اما في الشطر الثاني فيجوز ان تدلّ على النجار او الصانع الماهر على الاطلاق حتى على الصانع المتفنّن (artiste)

١٢ — ارميا ١٠:٣ « لان سنن الامم باطلة فان واحداً يقطع شجرة من الغابة فتصنعها يدا النجار بالقدوم » هنا تدل τέκτων، ولا شكّ، على النجّار.

١٣ — رسالة ارميا ٧:٧ « ولسانهم منجور (منحوت) (بيد) τέκτονος »

= الصانع الحاذق المتفنّن . وله ايضاً ٤٥ : ١٦« وهي (اصنام الكلدانيين) مصنوعة (بايدي) χρυσοχόων, τεκτόνων » فالمراد بالاولى على الارجح (النقاشون) النحّاتون الذين ينحتون الحجارة وبالثانية السكّابون[1] .

نستدل من معارضة آيات العهد القديم بعضها على بعض :

١ً انه اذا كانوا يعنون ب τέκτων النجار ، كانوا يضيفون اليها كلمة ξύλων (الخشب) .

٢ً واما اذا كانوا يستعملونها بدون مضاف في الترجمة السبعينية فانهم كانوا يعنون بها على الاغلب الصانع في اوسع معنى هذه الكلمة في اللغة اليونانية . ولهذا لا يجوز لنا ان نترجمها دائمًا في جميع الآيات الانجيلية المذكورة آنفًا بكلمة نجّار .

ومع ذلك فان التقاليد القديمة كانت وما زالت تصوّر المسيح نفسه (وعلى كل حال اباه يوسف) نجّارًا . اما كيف نشأت هذه التقاليد فسنتكلم عن ذلك بعيد هذا . والآن نقتصر على الملاحظة بان اول شهادة كتابية ذُكر فيها على ما نعلم ان المسيح كان نجارًا ترجع الى اواسط القرن الثاني[2] .

قال يوستين الشهيد في «محادثته مع تريفون اليهودي»[3] ان روح القدس هبط على المسيح «حين جاء الى الاردنّ . ذاك الذي كان يُعدّ ابن يوسف النجّار اظهر نفسه كما اخبرت عنه الكتب[4] ، لا صورة له ولا بهاء ، وكان يُظن انه نجّار لانه كان يشتغل حين كان بين الناس بالنجارة ، ويعمل المحاريث والانيار مظهرًا بذلك مثال العدل والحياة الفعالة . »

---

١) حكمة سليمان ١٣ : ١١–١٥ ὑλοτόμος τέκτων تدل على الصانع المتفنن في عمل الخشب . اما في آية حكمة سيراخ ٣٨ : ٢٧(٢٨) ف πᾶς τέκτων تعني النقاش ، لا النجّار .

٢) ان اقدم مصدر لمعلوماتنا عن المسيح لا يذكر شيئًا البتة عن حالته الاجتماعية وهذا المصدر هو رسائل الرسول بولس ، مع ان بولس نفسه كان بحسب رواية التقليد صانعًا (σκηνοποιός صانع خيم) (اعمال الرسل ١٨ : ٨) .

٣) انظر Migne, P. G. VI, 685

٤) اية كتب يعني هنا يوستين ؟ لا شك كتب العهد القديم . قابل مثلًا اشعيا ٥٣ : ٢ وعارضها بالرسالة الى الفيلبيين ٢ : ٧

يؤخذ من هذه الاسطر ان يوستين عنى ، ولا شك ، بكلمة τέκτων النجّار . وبناء على انه اطلق هذه الكلمة على يوسف ، وعلى المسيح ، كان يجوز ان نستنتج من ذلك انه كان في يده متن الانجيلين الاول والثاني . على انه اذا امعنا النظر في عبارة يوستين تبين لنا انه لم يستند ، حين سمى يوسف ويسوع نجّارين ، الى متن الاناجيل بل الى التقليد الشائع وقتئذٍ . لانه حقيقة لم يستعمل العبارة « كما قالت الكتب » الا حين ذكر ان المسيح ظهر بلا صورة ولا جمال . ولكنه لما ذكر ان المسيح كان يعد ابن يوسف النجار وانه هو نفسه كان نجارًا استعمل فعل νομίζεσθαι (يقال ، يظن) كأنه اراد بذلك ان يقول ان هذا كان التقليد الشائع او الاعتقاد السائد وقتئذٍ .

ولعل بعض الناس يتهمنا بالافراط في التدقيق والتحذلق في تفسير الآية . الا انه لا يمكن فهم هذه العبارة من الوجه اللغوي على خلاف ما فهمناها . على كل حال ، يهمنا ان نحقق انه ، في اواسط القرن الثاني ، نشأ تقليد عن احتراف يسوع وابيه يوسف حرفة النجارة . اما اذا كان هذا التقليد شائعاً على الالسنة فقط او مُثبتاً في كتاب ما فهذا ما لا يزال تحت البحث[1] . ولكن الارجح هو الافتراض الاول . لانه قد وصلت الينا من اواسط القرن الثالث شهادة هامة جداً لاوريجينيس ، اعظم كاتب مسيحي في العصور الاولى للمسيح . صرّح الكاتب المذكور في تأليفه « ضد كلس » — الذي وضعه بين سنة ٢٤٦ وسنة ٢٤٨ ليردّ فيه اعتراضات كلس على الديانة المسيحية — ان المسيح نفسه لا يدعى τέκτων بمعنى النجار — كما يُفهم من سياق كلامه — ولا في آية من آيات الاناجيل المستعملة في الكنائس[2] .

معلوم ان اوريجينيس كان اعلم رجال عصره باحوال شتى الكنائس ، وان

---

١) آسف انه لم يكن في يدي ، يوم وضعت هذه المجالة ، تأليف G. Archambaut, Justin, (*Dialogue avec Tryphon*. Texte grec, traduction franc. introduction, notes et index, 2 v. Paris, 1909) حيث لعي كنت اجد بحثاً عن هذه المسألة

٢) Origen c. Cels. VI, 36 (II, p. 105 Koetchau)... ὅτι οὐδαμοῦ τῶν ἐν ταῖς ἐκκλησίαις φερομένων εὐαγγελίων "τέκτων" αὐτὸς ὁ Ἰησοῦς ἀναγέγραπται.

علمه كان يستند الى معرفته الشخصية لها. ونحن نعلم من سيرة حياته انه اقام، في ما عدا الاسكندرية مركز اعماله، في رومية، وفلسطين، وبلاد اليونان، واسية الصغرى، وسورية، حتى وفي بلاد العرب [1]. وانه كان كاتباً ثقة وصادق النية. لا ننكر ان التأليف الذي اوردنا منه الشهادة المذكورة هو تأليف جدلي. الا انه ليس لدينا دليل يحملنا على الشك في ان في تصريحه القاطع شيئاً من المبالغة. ولهذا نرانا مضطرين ان نصدقه بانه لم تكن حقيقة في تلك الاناجيل التي كانت الكنيسة المسيحية في عصره تعدها صحيحة (قانونية) وتستعملها اشارة ما الى ان المسيح كان τέκτων نجّارًا.

اذا صحّ ذلك جاز ان نعرض السؤال الآتي: هل الآية ٦:٣ من انجيل مرقص كانت تقرأ في ايام اوريجينيس كما تقرأ اليوم ؟ [2] والجواب على ذلك انه اذا كانت مجموعة كتب العهد الجديد (القانون) لم تتخذ صورة نهائية في النصف الشرقي من الامبراطورية (الرومانية) الا في العصرين الرابع والخامس فالارجح ان اناجيلنا القانونية، وبالاخص المعروفة بال συνοπτικοί = المتوافقة منها، لم تتخذ صورتها الحاضرة دفعة واحدة. على ان هذه المسألة هامّة ومعقدة. وفوق ذلك، انا اشعر باني لست مستعداً لحلّها او الخوض فيها.

ومع ذلك فلا ريب في ان التقليد القائل بان يسوع كان في حياته الشخصية نجّارًا كابيه كان شائعاً في الدوائر المسيحية منذ القديم، كما يستفاد من شهادات يوستين الشاهد واوريجينيس التي يرتقي عهدها الى العصر الثاني [3]. ثم لدينا

---

١) لعله اراد المقاطعة المعروفة باسم Arabia والواقعة في جنوب سورية وشمال فلسطين (حوران) (م).

٢) اما فيما يتعلق بمتى (١٣: ٥٥–٥٧) حيث تذكر حرفة يوسف فان Usener قد برهن في المقالة المذكورة سابقاً على ان حديثه عن ولادة وطفولية المسيح – وبهذا الحديث يرتبط كل ما له علاقة بشخصية المسيح – حكاية نشأت بعد ان اتخذ تعليم وتاريخ آلام المسيح صورة ثابتة مكتوبة بزمن طويل (طالع تأليفي: الاناجيل الصحيحة والموضوعة ص ١١٠، بطرسبرج ١٩١٩)

٣) معلوم ان تأليف كلس الذي يدحضه اوريجينيس ظهر حوالي سنة ٧٠ من القرن الثاني.

— وبالاخص في ما يتعلق بابي يسوع — شهادات اخرى صريحة ، وهي شهادات الاناجيل الموضوعة ، وبالاخص تلك الطائفة منها التي تشتمل على « طفولية المسيح »[١] وهـذا امر معروف فلا حاجة الى الخوض فيه[٢] . ولكن هناك مسألة اخرى لا اظنها تخلو من الفائدة واللذة ، وهي تدور حول محاولة حلّ سؤال آخر وهو : من أين وكيف تسربت الى اناجيلنا الاشارة الى ان يسوع كان τέκτων ، بغض النظر الآن عن معنى هذه الكلمة ؟

من الحقائق المسلّم بها اليوم ، لانها بنيت عـلى اساس علمي متين ، انّ اناجيلنا (ولا سيما المتوافقة = συνοπτικοί منها) تحتوي على معارضة بين « اقوال » المسيح و« افعاله ».

ان الرسل الاولين ، وسائر دعاة المسيحية ، كانوا يبلغون مَن كان يستمع اليهم الاحاديث عن « اقوال » و« افعال » المسيح. ولا شك في انـه كانت ، على ما ارجح ، « الاقوال » التي كانوا يعزونها الى المسيح داعياً واحياناً لحمة لتطبيق « افعاله » على « اقواله ». ولنا في المسألة الجزئية التي وقفنا عليها هذه العجالة دليل قاطع على صحة هذه الفكرة . واليك بيان ذلك :

لما اتوا بالمسيح الى رئيس الكهنة ليصدر حكمه عليه ، اخذوا يفتشون عن شهود كان يجب ان تؤدّي شهاداتهم الى الحكم عليه بالموت : « فوقف قوم يشهدون بالزور ويقولون اننا سمعناه يقول اني انقض هذا الهيكل المصنوع بالايدي وفي ثلاثة ايام ابني آخر غير مصنوع بالايدي » (مرقص ١٤ : ٥٧—٥٨ وقـابله على ١٥ : ٢٩ » : وكان المجتازون يجدّفون عليه وهم يهزّون رؤوسهم ويقولون : يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة ايام » وجاء في انجيل متى (٢٦ : ٦٠—٦١) : « اخيراً تقدم شاهدا زور وقالا ان هذا قد قال : اني اقدر ان

١) طالع مثلاً : Protoev. Jacobi. I 13. 1 و Ps. Matt, 10, 27 و Evang. Thomae lat. 11. و « تاريخ يوسف النجار » في اللغة العربية الخ.

٢) ان التقليد القائل بان يسوع كان كابيه يوسف نجّاراً ردّدته ولا تزال تردّده سِيَر المسيح الحديثة كامر لا ريب فيه. طالع مثلاً تأليف A. Réville, *Jésus de Nazareth*, Paris, 1897. 1, 418

انقض هيكل الله وابنيه في ثلاثة ايام » (قابله على ٢٧: ٣٩-٤٠) : « وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم ويقولون : يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة ايام ».

لا ريب في ان شهود الزور ، والشعب الذي كان يجدف على المسيح ، قد استعملوا كلمة « بنى » في معناها الحقيقي ، لا المجازي . وكذلك صاحبا الانجيلين الاول والثاني . اما انجيل لوقا فانه ، في حديثه عن محاكمة المسيح في المجمع ، لم يذكر شهود الزور الذين ذكرهم صاحبا الانجيلين الاولين ولا عزا الى المسيح تهمة تمدّحه بنقض الهيكل واعادة بنائه . وانما اقتصر على القول بان شيوخ الشعب ورؤساء الكهنة والكتبة افتتحوا استنطاقه بالعبارة : « ان كنت انت المسيح فقل لنا » فاجابهم يسوع « ان قلت لكم لا تؤمنون وان سألتكم لا تجيبوني (ولا تطلقوني) ولكن من الآن يكون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله » (٢٢: ٦٧-٦٨).

وكذلك الانجيل الرابع فانه لم يذكر ، حين وصف صورة محاكمة يسوع عند رئيس الكهنة ، لا شهداء الزور ، ولا التهمة التي افتروها على المسيح بخصوص الهيكل (١٨: ١٩-٢٤) . نعم ان عبارة المسيح : « انقضوا هذا الهيكل وانا اقيمه في ثلاثة ايام » قد وردت في الانجيل الرابع ، ولكن في موقف آخر . وذلك انه لما دخل يسوع ، قبل الفصح ، هيكل اورشليم ، وطرد منه الباعة والصرّافين ، سأله اليهود أيّة آية ترينا حتى تفعل هذا . فاجابهم يسوع : « انقضوا هذا الهيكل وانا اقيمه في ثلاثة ايام » (٢: ١٩) . وهنا لا بد من التنبيه على ان صاحب الانجيل الرابع قد استعمل في الآية المذكورة فعل ἐγείρειν (اقام) لا فعل οἰκοδομεῖν (بنى) فنتج عن ذلك ان العبارة باجمعها اصبحت مجازية . والى ذلك اشار صاحب الانجيل نفسه بقوله : « اما هو فكان يعني هيكل جسده » (٢: ٢١) اي قيامته من بين الاموات.[1] الا ان اليهود قد فهموا عبارة المسيح

---

١) استعمل فعل ἐγείρειν في الانجيل الرابع بمعنى « نهض ، قام » (٥: ٨ ، ١١: ٢٩ ، ١٤: ٣١) « أقام او بعث الموتى » (٥: ٢١ ، ١٢: ١، ٩، ١٧ ، ٢١: ١٤) ومرة بمعنى « ظهر ، نشأ » (٧: ٥٢)

حرفياً كما يستدل على ذلك من قولهم : « انه في ست واربعين سنة بُني هذا الهيكل افتقيمه انت في ثلاثة ايام » (٢ : ٢٠) ؟

إذن تشهد الاناجيل الاول والثاني والثالث ان اليهود نسبوا الى المسيح « قوله » :« انقضوا الهيكل وانا ابنيه في ثلاثة ايام »[١]. وان صاحب الانجيل الرابع — وهذا ما كان يُنتظر منه — فهم هذه العبارة مجازياً واوّلها بالنظر الى مستقبل المسيح ، اي الى قيامته . اما صاحبا الانجيلين الاول والثاني فانهما فهما « كلمة » المسيح — وهذا ايضاً كان يُنتظر منهما — حرفياً واستنتجا من ذلك الاستنتاج المناسب لماضي المسيح اي المتعلق بحياته الشخصية فكأنهما قالا : « اذا كان المسيح يقدر ان يبني الهيكل اذن هو τέκτων ». هكذا يرتئي مرقص . اما متى فانه اقتصر على القول بان يوسف ابا المسيح كان نجاراً ؛ ولكنه لم يقل ان المسيح ايضاً كان τέκτων . ولعلنا نستطيع ان ندرك هذا السكوت التقي اذا انتبهنا الى الغرض المعيَّن الذي أوحى الى صاحب الانجيل الاول وضع كتابه الا وهو رغبته في ان يبرهن على ان يسوع هو المسيح الموعود به (المحقق ان الانجيل الثاني خالٍ من هذا الميل) ولكن اغرب من كل ذلك بشارة الانجيل الثالث التي لم تذكر — كما بينا آنفاً — « كلام » المسيح عن نقض الهيكل واعادة بنائه . ولهذا نفسه لم تذكر ايضا ان يسوع ، او على الاقل اباه يوسف ، كانا τέκτονες .

هكذا انا اعبّر عن نشوء الحكاية القائلة بان المسيح كان نجاراً : عن « القول » الذي يُعزى الى يسوع ، نشأ « العمل » الذي له علاقة بحياته

---

١) وردت عبارة المسيح نفسها في اناجيل متى ومرقص ويوحنا في صور مختلفة . فمن العبث ان نبحث عن صورتها الاصلية . ولهذا لا اظن ان المفسرين (طالع ، Holtzmann Handcommentar على آية مرقص ١٤ : ٥٨) مصيبين في آرائهم حين يزعمون ان الصورة الاصلية هي التي حُفظت في انجيل متى (٢٦ : ٦١)بل احرى ان تكون هي التي حفظها مرقص (١٤ : ٥٨) ولا سيما اذا اسقطنا كلمتي χειροποίητον (المصنوع بالايدي) و ἄλλον ἀχειροποίητον (واخر غير مصنوع بالايدي) اللتين لعلهما اقحمتا هنا تحت تأثير الانجيل الربع (٤ : ٢١، ٢٣)

وفاعليته .

وفي الختام اسمح لنفسي ان اعود الى ما كنت ابتدأت به، اي الى فهم كلمة τέκτων في الايات الانجيلية :

وعد المسيح ان يبني الهيكل في ثلاثة ايام . ولكن لكي يبنيه لا تكفي معرفة حرفة النجارة . لان بناء الهيكل عمل شاق جدًا يحتاج الى معلومات صناعية وخبرة عملية . فمن الغرابة اذن ان نفرض ان اليهود الذين اغاظهم تمدُّح المسيح فكروا ثم قالوا : « هو مستعدّ ان يبني الهيكل في ثلاثة ايام . لله درّه من نجّار » ! ولا اظنهم حين سمعوا عبارة المسيح فكروا وقالوا : « انظروا ما هذا المهندس العجيب !» لان اليهود كانوا يعلمون ان المهندس يصنع فقط التصميم ، ويراقب الاشغال . ولكنه لا يبني شيئًا بيديه . على اني ، وان كنت احسب من قبيل اضاعة الوقت في غير طائل التكهّن عما فكر فيه اليهود ، وقالوه ، حين سمعوا المسيح يقول : « انقضوا هذا الهيكل وانا ابنيه في ثلاثة ايام » اريد على الرغم مني ان اضع في افواههم وعقولهم هذه العبارة التهكمية : « تعالوا انظروا ، يا ناس ، ها هو الصانع الماهر » (الاوسطا) ! وعلى هذا التعبير ينطبق تمامًا الاصطلاح — τέκτων — الوارد في الآيات الانجيلية . ولكن هل كان يسوع حقيقة τέκτων (صانعًا) في حياته الخصوصية وفعاليته ؟ هذا ما لا نعلمه ، وهيهات ان نعلمه يومًا ما .

حول كتاب جديد

فخر الدين الثاني

وعلاقاته بدول الغرب

نظرة نقدية للخوري لويس الخازن

ليس من يجهل ان كثيراً من الغموض يكتنف تاريخ بلادنا ، لا سيما المدة الواقعة بين اواسط القرن السادس عشر واوائل التاسع عشر . وهذه الحقبة من الزمن تعدّ بحقّ كمقدمة لتاريخ عصرنا الحالي ، ولتكوين نهضة بلادنا ، ولاتجاه الفكرة التي نحن عليها الآن . فكل تأليف بهذا الموضوع يصادف ارتياحاً لدى الراي العام ، ويسرّ الناس الاطلاع على مكنوناته ، وعلى قيمته العلمية . ولهذا ابسط للقرّاء كلمة مفصّلة عن تاليف الاب العالم بولس قرألي[1] .

اولاً : من حيث الطبع والشكل . يقع الكتاب في اربعمائة وتسع وثمانين صفحة بقطع الثمن كبير ، مطبوع على ورق صقيل بحرف نظيف ، مصدر بصورة الامير مأخوذة عن كتاب ماريتي (Giov. Maritti) المطبوع في ليڤورنو ١٧٨٧ ، وسطر تحتها باللغة الايطالية ما ترجمته : « فخر الدين امير الدروز الكبير » .

ثانياً : من حيث المضمون . ينطوي الكتاب على ما يلي : من وجه ٦ — ١٨

---

١) فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان ودولة تسكانا . بقلم الخوري بولس قرألي . الجزء الاول باللغة الايطالية . طُبع في رومية على نفقة مجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي، ١٩٣٦

Fakhr Ad Din II. Principe del Libano e la Corte di Toscana. Reale Accademia d'Italia, 1936

نظرة في المصادر والمؤلفات التي اخذ عنها او استند اليها المؤلف . ومن وجه ١٩ — ٢١ لمحة موجزة عن حياة الامير.

ثم من وجه ٢٣—١٣٠ مقدمة تاريخية سار فيها على النمط الآتي: من وجه ٢٣ — ٢٤ مقدمة. ومن وجه ٢٥ — ٢٩ بحث عن اخلاق الامير، وعن تضارب اقوال المؤرخين والكتاب فيه . فنهم من صوّره ووصفه بانه كان وحشيّ الطباع والاخلاق. ومنهم من دافع عنه وصوّره مثال الشجاعة والعدل والاقدام. وحضرة الاب قرألي يميل الى الفريق الاخير.

بعد ذلك يحدثنا المؤلف من وجه ٢٩—٣١ عن ثبات الامير وشجاعته، ويأتي بنتف من اقوال المؤرخين والكتاب لينفي ما قيل من السوء عن فخر الدين، ويظهره بمظهر الشجاع المقدام الكلي الثبات في خططه واعماله، وينسب كل ما طرأ عليه من الشقاء والبؤس الى غلطتين: الاولى من مشيره الحاج كيوان، ارتكبها سنة ١٦١٣ وتجشّم من جرائها عناء البعاد والنفي خمس سنوات. وهي انه قنع من الحاج كيوان وارسل ابنه عليًا، وله من العمر خمس عشرة سنة، على رأس جيش لمناصرة الشيخ عمرو احمد بن قانصوه بحملة على حوران وعجلون ودمشق. فعلم بذلك الباب العالي فجرّد حملة ضده. وكان من امره ما كان . فاضطر ان يسافر الى اوربة.

والغلطة الثانية ارتكبها سنة ١٦٣٣ بواسطة مجلس مشيريه الاعلى فأدّت به الى حتفه. وهي تسليمه الى قائد الحملة التي سيرها لمحاربته السلطان مراد الرابع . ويتابع المؤلف من وجه ٣١ — ٣٣ المدافعة عن فخر الدين ليبين انه لم يكن قاسيًا ولا ظالمًا. ومن وجه ٣٣ - ٣٤ يتبسط في ذكر عدله معتمدًا على البرهان من الجهة السلبية، ملمحًا الى ما كانت عليه الاحوال من سوء الادارة، وعدم العدل والمساواة بين افراد الرعية قبل عهد فخر الدين، وكيف صارت في ايامه؛ مستشهدًا بالقول المأثور « وبضدها تتبين الاشياء ». ثم يشرح لنا كيف ان الامير حفظ لنفسه الحكم في القضايا الجزائية والعسكرية وترك الحكم في القضايا المدنية والحقوقية لرؤساء المذاهب.

ويتكلم بعد ذلك عن الامن العام من وجه ٣٤—٣٦ وكيف ان فخر الدين

شيَّد القلع وبنى الابراج على الآكام المشرفة على طرق القوافل وجهّزها بالذخر والمؤن والجنود لتأمين حياة المسافرين والسيّاح وراحتهم.

ومن وجه ٣٦ — ٤٧ يصف لنا عدم تحيّزه ، ومساواته بين جميع افراد الملل والطوائف التي كانت تحت حكمه . ويستهلّ المؤلف كلامه هنا عن الاسلام بما ترجمته حرفيًا : «استولى الاسلام على الشرق وانكر اتباعه على المسيحيين المساواة معهم في الحقوق المدنية وضيّقوا كثيرًا على حريتهم الدينية . ثم بعد ستة قرون ، اي في عهد الحملات الصليبية ، اعتبروهم كاعدائهم الطبيعيين ، وعاملوهم بعد ذهاب الصليبيين معاملة العبيد . فامسى مال المسيحيين وشرفهم ودمهم مباحًا تحت رحمة اي مسلم كان مهما سفلت اخلاقه ومثل ذلك كان حظ اليهود بل ربما عوملوا باقلّ صرامة ».

ويزعم المؤلف انه لم تحصل المساواة الا من عهد فخر الدين وصاعدًا . ويتابع كلامه قائلًا ان فخر الدين ، رغم انه كان درزيًا ، فقد شيَّد للمسلمين بضعة جوامع . وكان يدخل الجامع رسميًا ايام الاحتفالات . وكان عنده بين خاصته وفي بلاطه شيخ ومؤذن رافقاه الى ايطالية . وكان يسمح لذويه ولعائلته الخاصّة بان يصوموا شهر رمضان ويحافظوا على الاعياد الاسلامية .

اما اليهود فكانوا مقربين اليه كثيرًا . وقد سلمهم ، على الراي الراجح ، زمام ماليته حتى ان سانتي (Santi) احد الذين ارسلهم قزما الثاني الى لبنان ١٦١٤ قال فيما كتبه « ان اليهود هم اكثر احترامًا وغنى من المسيحيين ».

ويسهب المؤلف في حسن معاملة فخر الدين للمسيحيين اجمالًا ، سواء كانوا منفصلين عن رومية او تابعين لها . وكيف انه طلب من البابا بولس الخامس براءة ليحثّ المسيحيين على حمل السلاح تحت لوائه ، ويهددهم بانزال الحرم الكنسي بهم اذا امتنعوا . ووعده بان يعتنق الدين المسيحي .

ويسهب ايضًا في حسن معاملة فخر الدين للغربيين اجمالًا ، وكيف انه مدّ يد المساعدة ادبيًا وماليًا نحو المرسلين والرهبان من فرنسيسكان وكبوشيين ، حتى ان بعضهم ، الاب ايجيديو (Egidio) توصل الى ان يكتب ١٦٢٧ الى مجمع البروباغنده المقدس بانه اصبح من المقربين الى الامير ومن ذوي الدالّة عليه وعلى ذويه ،

وانه توصل الى ان يقرأ عليهم الانجيل المقدس ويعدهم لاقتبال الدين المسيحي.

وبعد هذا انتقل المؤلف لوصف حالة الزراعة والصناعة في عهد الامير (وجه ٤٧—٥٥) فقال ان الزراعة اجمالا وتربية الحيوانات اعتنى بها الامير اعتناء كبيراً باصلح الاساليب والوسائط الحديثة آنئذ. وقد انصرفت جهوده بنوع خاص الى زراعة التوت، والزيتون، والارز، والكتان، وقصب السكر. وعُني عناية خاصة ايضاً بصناعة الصابون، وتصريف الحرير اللبناني. وحسن حالة الاحراش وغرس الاشجار المثمرة، وزيّن باحات قصوره، ولا سيما قصر بيروت، بجنائن غنا. ولم تنحصر عناية الامير بالنبات فقط، بل اجتهد في تحسين نسل الحيوانات الداجنة مثل الخيل، والبقر، والغنم، والماعز، حتى ان الكلاب! نالت قسماً من عنايته. وقد اهدى الى ارشيدوكة تسكانا اربعة كلاب، واهدته هي بدورها كلبة سرَّ بها كثيراً ورغب في ان يحصل على كلب من نوعها.

وانتقل الى التجارة (وجه ٥٥ — ٦٢) فوصف عناية الامير بها حتى اعاد، بفضل اجتهاده، المدن الفينيقية القديمة الى سالف عزها وازدهار تجارتها في البحر والبر. وذلك انه بذل قصارى جهوده في تأمين راحة التجار براً، وبنى الابراج الشاهقة، مثل برج الكشاف الذي كان يعلو ستين قدماً، لمقاومة قرصان البحر وردعهم عن التعدي على السفن الراسية في الموانىء اللبنانية لتفريغ مشحوناتها. وبفضل هذه التدابير، ثم بفضل الخوازنة الذين تولوا فيما بعد قنصلية فرنسة في بيروت، اصبحت هذه المدينة اهمّ ميناء في الشرق على البحر المتوسط.

اما الكلام عن مالية فخر الدين فاستغرق ست صفحات (٦٢ — ٦٨) عرض فيها المؤلف لحسن تدبير الامير. فازدياد ريع الافراد. فتكاثر مداخيل الخزينة. ولا يخفى ان الحكّام كانوا آنئذ اشبه بمقاولين او ضامنين من السلطان. فكان عليهم ان يدفعوا سنوياً للباب العالي مبلغاً مقطوعاً. وكان الامير فخر الدين يدفع ما هو مرتّب عليه بكل دقّة، لا بل كان يدفع مسبقاً احياناً ليكون على مأمن من سياسة الباب العالي التي كانت على ريب من اخلاصه نحوها. وقد توصل الامير بدهائه الى عقد اتفاق مع دول الغرب. فمن كان منها على ولاء مع الباب العالي، مثل فرنسة، وانكلترة، وهولندة، والبندقية كان يحالفها جهراً. واما

الدول التي كانت على خلاف مع الاتراك مثل تسكانة ، واسبانية ، ومالطة فكان يعقد معها اتفاقاً سرّياً تجارياً ومالياً. وكان يستورد من بلادها الاعتدة الحربية.

وقد خصّ المؤلف ست عشرة صفحة (٦٨ — ٨٤) بنظام الجيش ، بادئاً بالقول ان المسيحيين منذ الفتح الاسلامي امسوا غرباء في ديارهم لانهم كانوا يمنعون من حمل السلاح للمدافعة عن اسم وطنهم. ولكن الامير فخر الدين وحّد الكلمة وألّف جيشه من المسيحيين ، ومن الدروز ، ومن المسلمين وبثّ روح الوطنية والإخاء بين جميع رعاياه. وبفضل هذه التدابير اصبح عنده جيش عرمرم كسر به شوكة اعدائه ، ووطّد اركان ولايته.

وكان يعاون هذا الجيش سياسة الامير ، وحنكته ، ودهاؤه (وجه ٨٤ — ١٠٨) حتى انه توصل من امارة الشرف وحده الى ان يضم تحت لوائه ولايات شاسعة الاطراف تمتد من جهة الجنوب حتى صحراء مصر ، ومن جهة الشمال الى حدود اطنه وقيليقية . واكبر فضل يسطّره له التاريخ هو ضم قلوب اللبنانيين ولمّ شعثهم وتوحيد كلمتهم سياسياً واقتصادياً. فكان المسلم والمسيحي والدرزي يحاربون جنباً الى جنب ، موحّدين القلوب يرمون الى هدف واحد اي المدافعة عن حريتهم واستقلالهم تحت راية الامير الكبير.

اخيراً من (وجه ١٠٨ — ١٣٠) ينتقل المؤلف الى الكلام عن سياسة الامير الخارجية فيشرح لنا كيف ان فخر الدين ، بعد استيلائه على ميناء صيدا سنة ١٥٩٣ ، أخذ يفكر في تأسيس دولة مسيحية قوية على جانبه يركن اليها ضد الاتراك ، وكيف حاول ان يستفيد من مواقف الدول الغربية سواء كانوا اصدقاء مع الاتراك مثل فرنسة وانكلترة والبندقية او على خصام مثل تسكانا والكرسي الرسولي ، واسبانيا ، ومالطة، والمجر. فكان يعطي لكل مقام مقالاً ويخاطب كلاً من هذه الدول حسب رغبته وميله بما يوافق رغبتها وميلها فذكر لنا صلاتــه مع فرنسة من (١٠٩ — ١١١) ثم مع اسبانيا (١١١ — ١١٦) ثم مع الكرسي الرسولي (١١٦ — ١٢١) ثم مع تسكانا (١٢١ — ١٣٠).

***

من بعد هذه المقدمة التاريخية يبدأ المؤلف بنشر الوثائق والاسانيد ، وقد قسمها كما يلي: من عدد واحد الى عدد ٨٥ عن علائق فخر الدين وفردينان الاول وتزما الثاني (وجه ١٣٣ — ٢٨٨) واورد في القسم الثاني الوثائق التي تتعلق بالامير وفردينان الثاني اي من عدد ٨٦ الى عــدد ١٧٢ (وجه ٢٨٩ — ٤٢٧) وضمن القسم الثالث ملحقاً عن الوثائق التي تتعلق بدولة تسكانا وخلفاء الامير. اي من عدد ١٧٣—١٩٤ (وجه ٤٢٩ — ٤٦٠)

***

هذا هو كتاب حضرة الاب قرآلي من حيث المضمون . وهاكه من جهتي العلم والنقد :

اذا حق لحضرة المؤلف فضل الجامع المجتهد الباعث بعض الوثائق التاريخية من مدافنها ، وناشرها للملا. ليحيط القوم علماً بها ، فقد يشوب فضل المؤرخ العالم المدقق بعض هنات ، لان في الكتاب نواقص تفقده شيئاً من هذه الميزة. واليك بعض ذلك:

اولاً: من جهة العنوان والاسم . عنوان كتابه هكذا : « فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان ودولة تسكانا » والظاهر من هذا الكلام ان المؤلف حصر بحثه في علائق الامير مع دولة تسكانا فقط. بيد انه يتضح جلياً من مضمون الكتاب ، ومن كلام المؤلف نفسه (وجه ٦٢ ووجه ١١٦ — ١٢١) ومن نص الوثائق (وجه ١٩٢ — ١٩٦ ووجه ٣١١) ان البحث يدور حول علائق الامير مع دول الغرب اجمع. وعليه كان الاحرى ان يسميه فخر الدين ودول الغرب.

ثانياً: من حيث المصادر. قال لنا حضرته (وجه ١٢و١٣) كلمة في تقدير قيمة بعض المؤلفين مثل الخالدي ، والدويهي، وماريتي (Mariti) وروجه (Roger) ولم يتكرم علينا بكلمة عن وستنفلد الالماني (F. Wüstenfeld) الذي الف عن الامير وعن رجال عصره. ولا عن پرجه ده سان پيار (Puget de S^t Pierre). وقد اتى على ذكرهما في قائمة المؤلفين. فرغم انهما كتبا خصوصاً عن الامير فخر الدين وعن عصره ، لم يشأ المؤلف ان يقدمها الينا بكلمة تعريف اسوة باولئك.

ثالثاً: قال لنا حضرة المؤلف في المقدمة (وجه ١٨) انه تعب كثيرًا في تأليف المقدمة التاريخية التي صدر بها كتابه (وجه ١٩ — ١٣٠) وانه اضطر في اثبات اقواله الى ذكر المصدر الذي اخذ عنه والى مراجعة المطوّلات، وانه بجده هذا الف حياة الامير كاملة مرتكزة على اقوال المؤرخين المعاصرين.

بيد انه كان الاحرى به ان يطلق على مقدمته التي ينعتها بالتاريخية اسم مدافعة عن الامير فخر الدين (apologie) لانه من شروط العلم والتاريخ تصوير الشخص التاريخي كما كان، لا كما نريد اونهوى ان يكون.

وحضرة المؤلف تراه مشغوفاً ببطله، فيسميه تارة نابوليون الشرق (وجه ٣٠) وحيناً يشبهه بفكتور عمنوئيل الثاني الملقب بابي ايطالية (وجه ٨٤). ولا يخفى ان فخر الدين توصل من الوجهة الحربية، الى توسيع نطاق حكمه بالدهاء والرشوة اكثر مما فعل بحد السيف. وهذا واضح من قول المؤلف نفسه وجه ٩٨ و٩٩ و١٠٣. ومن الوجهة الاستقلالية وتوحيد الدولة كان له فضل الرامي الى انشاء دولة كبيرة مستقلة. الّا ان الظروف لم تحقق حلمه.

ثم ان المؤلف نفسه يخبرنا (وجه ١٠٣) ان فخر الدين كان يفتخر بان يدعو نفسه امير صيدا او الجليل، وكان يفضله على لقب سلطان البرّ الذي حازه من لدن السلطان ١٦٢٥ (وجه ١٠١) وفي المدة الاخيرة فقط اضاف الى اسمه امير جبل لبنان.

ثم بينا نرى المؤلف يحذرنا (وجه ١٣) بان الاب روجه Roger يميل في رواياته الى الخيال، نراه يستند اليه في الكثير من رواياته.

رابعاً: نرى حضرة الاب قرألي ينسى احياناً ما قاله. فيظهر لنا مثلاً فخر الدين مثال العدالة (وجه ٣٧) ثم يقول لنا (وجه ٩٨) انه كان يقطع انفاس كل من يتذمّر منه او يطالبه بعدل.

اخيرًا: ان المؤلف لا يقول لنا كلمة تجلو بعض الغوامض ممّا تهمّ القارئ معرفته فقد تكلّم مثلاً (وجه ٥٠) عن رماد عشبة تصلح لعمل الزجاج وروى ما قاله الاب دنديني (Dandini)، الذي ساح في بلادنا سنة ١٥٩٦، وذكر انه شاهد في طرابلس خمسين او ستين جملاً محمّلة رماد عشبة كان يُرسل الى البندقية

لعمل الزجاج . ولم يقل لنا ، ولو في حاشية صغيرة ، هل كان مدار الكلام حقيقةً على رماد عشبة ، وما هي هذه العشبة .

ومثل ذلك قل عن الاشخاص الذين مثلوا دوراً كبيراً على مسرح حياة الامير : فمن هو الحاج كيوان ؟ ومن هو المطران جرجس مارون الذي كان سفير الامير لدى البابا ولدى دولة تسكانا ؟ ومثله قل عن الاشخاص الذين اتى على ذكرهم .

الخلاصة انك لا تحصل بعد قراءة كتاب المؤلف على صورة واضحة طبق الاصل للامير فخر الدين ، ولا لعصره ، ولا لرجال حاشيته ، ولا لصلاته مع دول الغرب . انما قيمة الكتاب كبيرة بما نشره من الوثائق التاريخية .

* * *

هذا ما عنّ لنا تبيانه ، وهو قليل من كثير . وقد اتينا على ذكره علّ المؤلف يتدارك ما سها عنه في جزئه الثاني . وغير خاف على احد ان كل هذه الهفوات لا تغبر نضار الكتاب لانه من الاهمية بمكان عالٍ . ولحضرة واضعه مزيد الشكر لما بذله من الجهود الجبارة في سبيل جمعه وترتيبه ونشره .



النصارى في مكة

قبيل الهجرة

معلومات وملاحظات

من آثار المرحوم الاب لامنس اليسوعي

٢

آخر مَن ذكرنا من النصارى في مكة وجوارها بعضُ التجّار الذين كانوا يأتون المجتمع القرشي بالحبوب ، والزيوت ، والخمور .

وكان هناك غيرهم من ارباب الصنائع المختلفة كالقصّابين ، والحدّادين ، والحجّامين . وكلّهم كان العرب يدعونهم « بالعلوج ». [1] على انهم يمتدحون مهارتهم في الصناعات ، كما نعرف من حادثة ابي لؤلؤة على عهد عمر بن الخطّاب . ولنا في متفرّق كتب الاحاديث ذكر لبعضهم ، عبيدًا او موالي ، اشتهروا بالنجارة [2] ، وصنع الاسلحة [3] ، واصلاح الاحذية [4] ، بل ان هناك ذكرًا لعبد من السودان كان يصنع التماثيل في المدينة [5] . وهناك نجّار من الاقباط ، او من الروم ، قام بتسقيف الكعبة ، قبل دعوة النبي بعدة سنوات . وكانت الكعبة لا تزال « لا سقف عليها » . [6] ثم ان اسرة بني مخزوم ، مَن عرفناها بالغنى والسهر على مصالحها

---

١) اسد الغابة ٤ : ٧٥

٢) اسد الغابة ٤ : ٧٦ ، ٢٢٦ ؛ ٥ : ٥٠٧ . ولم يكن في المدينة ، على عهد النبي ، سوى نجّار واحد (السمهودي : الوفاء ١ : ٢٨٠)

٣) اسد الغابة ٤ : ٣٤٨

٤) اسد الغابة ٥ : ١٢٤

٥) اسد الغابة ٥ : ٥٩١

٦) ابن هشام : السيرة ١٢٢ ؛ اسد الغابة ١ : ١٦٢ ؛ *Chroniken, W., III, 50* ؛ السيرة الحلبية ١ : ١٥٥ : ابن الاثير : النهاية ١ : ٢٨٢ ؛ السمهودي : الوفاء ١ : ٢٨٠ . بيد ان اسم بقوم (باخوميوس) المطلق على هذا النجّار يميل بنا الى ترجيح اصله القبطي .

التجارية والاقتصادية ، كانت تستخدم الكثير من العبيد الاحباش في صناعاتها المختلفة محوّلة الموادّ الأولية التي كانت تستقدمها من اليمن ، حتى اذا دنت ساعة الخطر واضطرب الأمن ، أسرع المخزوميّون فسلّحوا هؤلاء الصنّاع ، على نحو ما ذكرناه في مقال « الاحابيش ».[١] وقد عرضوا على محمد معونة هؤلاء « الجنود » بضعة ايام قبل معركة حُنين ، فرفض النبي الاستعانة بالسودان[٢] . ولعلّه شكّ في اخلاصهم ، وقد خبرهم يوم أُحد.

وكان من عادة محمد ، قبل الهجرة ، ان يزور الحوانيت والاكواخ التي كان يشتغل فيها الصنّاع النصارى. فيحادثهم بشؤون الدين. حتى اتّهمه اعداؤه بانه يستوحي منهم تلك الأخبار التي كان يردّدها على مؤمنيه وسامعيه. فاضطرّ النبي الى تبرير نفسه بجهلية ، ذاكرًا ان ما يقوله مجاز « بلسان عربي مبين » بينا لسان اولئك الاجانب « اعجمي » غير فصيح. هذا ما يُستنتج من بضع آيات حفظت صدى هذه المشاحنة في القرآن ، فجاء فيها : « قُل نزّله روحُ القُدُس من ربك بالحقّ ليثبّت الذين آمنوا وهُدى وبشرى للمسلمين. ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشرٌ لسانُ الذي يُلحدون اليه أعجميٌ وهذا لسانٌ عربيٌ مبين ».[٣] وفي سورة غيرها : « وقال الذين كفروا إنْ هذا إلّا إفكٌ افتراه واعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاؤوا ظُلماً وزوراً. »[٤]

على ان القرشيين لم يكتفوا بهذا الردّ اللغوي. وهم انما كانوا يتحقّقون امرًا واقعاً باختلاف النبي الى معامل النصارى واكواخهم ، ثم ينتقدون على اخباره واحاديثه أنها قديمة ، معروفة لا ابتكار فيها ولا طرافة فهي من « اساطير الأوّلين. » ولنا في القرآن الشواهد الكثيرة على هذا المرقف : « وقالوا اساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً واصيلاً ».[٥] « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على

١) راجع هذا البحث في « المشرق » ٣٤ [١٩٣٦] ١-٢٣ ، ٣٢٧-٣٥٥
٢) الاغاني ١ : ٢٢
٣) القرآن ١٦ [النحل] ١٠٤ ، ١٠٥
٤) القرآن ٢٥ [الفرقان] ٥
٥) القرآن ٢٥ [الفرقان] ٦

قلوبهم أَكِنَّةً ان يفقهوه ، وفي آذانهم وقرًا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إنْ هذا الّا اساطير الاولين»[1]. «واذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إنْ هذا الّا اساطير الأولين »[2] . الى غير ذلك من الآيات المماثلة[3] . اما النبي فقد اكتفى بالرد اللغوي المتقدّم حتى اذا كثر اتباعه ، وشعر بقوته اخذ يتحدّى « الانس والجن » ان يأتوا بمثل آيةٍ من آياته.

ولا يخفى ما في هذه المناظرة من فائدة لموضوعنا. اذ هي تفيدنا وجود عدد من الاجانب في مكة كان يختلف اليهم محمد. ونستفيد، فوق ذلك، ان هؤلاء الاجانب كانوا من الموحّدين[4]. ولم ينكر النبي صفتهم التوحيدية ، ولا اختلافه اليهم. انما انكر ان يكون استقى منهم معلوماته بحجة ان لسانه عربيٌّ فصيح ولسانهم اعجميٌّ. اما الفرق بين ما أتى به من المعلومات التاريخية والعقائدية في القرآن ، وبين ما كان ممكنًا ان يتناوله من اولئك الأجانب ، في زعم اعدائه ، فلا يهمّنا الآن ؛ وان يكن النبي رأى في اقواله خاصّة تلك الميزة اللغوية والبيانية الفارقة التي جعلت من القرآن آيةً بل « معجزة » لا يمكن المقلّدين ان يتخطّوها . على اننا نشكر له مـا افادنا ، بطريق العرض ، من معلومات عن اصل اصحابه الموحّدين ، وكلّهم اجانب عن البلاد العربية المعروفة : الحجاز ونجد . ولم يكن النبي ليطلب العربية الفصحى من نصارى الحيرة ونجران ، فكيف « بأنباط » الشام ، المتأثرين بالآرامية ، او ببدو الحدود البيزنطية بين الشام واعالي العراق كمشائر بني كلب[5] ، ولغتهم خليط غريب من العربية واللهجات الآرامية حتى

١) القرآن ٦ [الانعام] ٢٥

٢) القرآن ٨ [الانفال] ٣١

٣) القرآن ١٦ [النحل] ٢٦ : ٢٣ [المؤمنين] ٨٥ ؛ ٢٧ [النمل] ٧٠ ؛ ٤٦ [الاحقاف] ١٦ : ٦٨ [القلم] ١٥ ؛ ٨٣ [المطففين] ١٢

٤) ولا يمكن ان نجعلهم من اليهود ، لقلّة العبيد اليهود في الحجاز ، اذ ذاك . راجع بحثنا *Les Juifs à la Mecque à la veille de l'hégire*

٥) واليهم كان ينتسب زيد بن حارثة الذي تبنّاه النبي . ومن الراجح ان زيدًا كان اكبر سنًّا من ابيه ، لانه تزوّج حاضنته السوداء أم أيمن (اطلب *Mo'âwia*, 413)

انه لم ينبغ شاعر واحد منهم باللسان العربي قبل الهجرة . اما زُهير بن جَناب فاقرب الى الاسطورة المتولّدة في العصر الأموي منه الى التاريخ الصحيح[١].

وكان هؤلاء الاجانب العائشون في مكة ، فوق مهارتهم بالصناعات اليهودية ، قد احتكروا انواع الفنون على ضآلتها في ذاك المجتمع ، ومظاهر المهن الحرّة ، وكل ما كان يفرض معارف وضعية خاصّة ، او ثقافة علمية ، نادرة بين العرب ، اذ ذاك .

هذا وقد حفظ جمّاع الأخبار والاحاديث كابن رسته[٢] ، وابن قتيبة[٣] ، لائحة بالمهن والصناعات التي كان يتهنها « اشراف » قريش من الامويين والمخزوميين ومن اليهم . واذا بينهم الحدّادون ، والخيّاطون ، والقصّابون . . . قلنا : من الصعب ان لا نرى في هذا التعداد تأثير الشعوبية الرامية الى اقرار المساواة السياسية بين جميع عناصر الدولة المسلمة ، ومن ثمّ الى الحطّ من ادّعاءات القرشيين بالحطّ من اشرافهم قبل الاسلام . وذلك اننا نادرًا ما نرى في الهجاء القديم نعتًا محتقرًا « كالقين » اي الحدّاد[٤] . وقد سها ابن رسته عن هذا الأمر ، على ما يظهر ، عندما نظّم او نقل لائحة صنّاعه القرشيين . بيد ان هذا السهو يظهر اعجب منه في كتاب ابن قتيبة المتعصّب للعرب النادي ، في « كتاب العرب » المشهور ، بفضلهم على سائر الناس .

ومما لا شكّ فيه ان الاطباء ، والجرّاحين ، واطبّاء الاسنان كانوا كلهم من النصارى في مكة . وكان لمهارتهم فضل يُذكر في مجتمع بدوي ، سريع الهيجان ، عرضة للغزو على مدى ايامه . وقد نسب المؤرّخون لهؤلاء الجرّاحين عمليات لا بأس بدقّتها . من ذلك انهم كانوا يبدلون بالانوف المقطوعة[٥] انوفًا من الذهب او

---

١) راجع Berceau, I, 320 ولا شك في ان شعره منحول . وهناك كلبي آخر اسمه دحية بن خليفة كان يتمثّل بالملك جبريل ، ولكنه لم يظهر الّا في المدينة . ومن المفيد ان يراجع ، بشأن لفة كلب ، الاغاني ٢٠ : ٢١

٢) في جغرافيته (طبعة de Goeje) ٢١٥

٣) كتاب المعارف (الطبعة المصرية) ١٩٢–١٩٤

٤) اطلب Chantre des Omiades, 172 ؛ الاغاني ٥ : ١٥٩ ؛ ٧ : ١٨٤ ؛ ديوان الاخطل ٢٢٢ ؛ الجاحظ : الحيوان ١ : ١٥٢

٥) نرى ، في تاريخ ذاك العصر ، كثيرًا من المدعوّين « بأخطم » ، اي صاحب الانف

الفضّة[1]، وكانوا يذهّبون الاضراس ويثبتون المتقلقل منها بالخيوط الذهبية.[2]

ولما كانت مكّة مدينة تجارية ووسطاً اقتصاديًا مهمًا، كان لا بدّ من من الكتّاب والحسبة. وهو امر لم ينتبه له التفسير القرآني عندما فسّر لفظة «أمّي» بجاهل القراءة والكتابة. ومن المعروف ان أسرى بدر من القرشيين تحوّلوا الى معلّمين يدرّسون ابناء الأنصار، مزارعي يثرب، المنتصرين عليهم[3]. فكان جميعهم، حتى الفقراء منهم، يتمكّنون من القيام بهذه المهنة الجديدة. كل هذا يدلّ على ان الكتابة كانت رائجة، ان لم نقل واسعة الانتشار في مكة. بيد ان مؤرخي العصر لا يذكرون اسم معلّم واحد من القرشيين. ذلك ان القراءة والكتابة كان يعلّمها الاجانب وحدهم. وكان من رغبة القرشيين في التعلّم ان بعضهم كان يقصد المعلّمين حتى مدينة الحيرة النصرانية[4]. والنشر اخيرًا الى وجود جبّانة خاصّة بالنصارى في مكة[5] وهذا دليل جديد على وجود مجتمع نصراني في عاصمة القرشيين.

* * *

ولننتقل الى عنصر ثانٍ من عناصر السكّان. فنرى ان عدد النساء كان وافرًا في البيوتات القرشية. ذلك ان السياسة العامّة، والحاجة الى محالفة اسياد القبائل البدوية، كانت تدفع رجالات قريش الى الاكثار من الزواج[6]. وهناك

المضروب، كنبس بن الحطيم الشاعر اليثربي؛ الاغاني ١٣: ٢٠١؛ اسد الغابة ٣: ٢٠١، ١٠٧؛ ومنهم من دُعي «بالاسلت»، اي ذي الانف المقطوع؛ ابن دريد: الاشتقاق ٢٦٦؛ ابو زيد: النوادر (طبعة بيروت) ١١٤؛ Lammens, *La Mecque*, 210, 217, 302

١) نرى مناقشة لطيفة بهذا المعنى في ابن الاثير: النهاية ٣: ١٩٦؛ ٤: ٢٠٥–٢٠٦؛ الترمذي: الصحيح (طبعة الهند) ٢: ٢٠٩؛ البَغَوي: المصابيح ٢: ٨٥؛ اسد الغابة ٣: ٥١، ١٩٢، ٤٠٠؛ ابن حنبل: المُسند ٤: ٣٤٢، ٥: ٢٣

٢) كان النساء احيانًا، في عراكهنّ، يكسر بعضهنّ اسنان البعض الآخر؛ اسد الغابة ٥: ٤٥٢

٣) ابن سعد: الطبقات ٢: ١٤. وقد يكون في ذلك حملةٌ انصارية موجّهة الى القرشيين، ولا يخفى ما كان يحيط بمهنة معلّم الاولاد من الازدراء في القرن الاول للهجرة (راجع Mo'âwia, 359-361)

٤) ابن قتيبة: المعارف (الطبعة المصرية) ١٨٧

٥) الازرقي ص ٥٠١ في Chroniken der Stadt Mekka de Wüstenfeld

٦) كان لصفوان بن امية ستّ نساء، عندما اسلم (اسد الغابة ٥: ٥٠١)

عادة اخرى كانت تدفع المجير او المحالف الى التزوج بارملة «الحليف» المتوفى[١]، فيؤمن لها حياتها.

ذكرنا، في احدى حواشي البحث السابق، رواية تمثيلية لهنري دي برنيه. وقد جاء فيها، في خصام بين حفصة بنت عمر وضرتها عائشة بنت ابي بكر[٢]، هذا القول تحمل به حفصة على عائشة:

Et puis un peu chrétienne au fond, comme sa mère,
Lisant dans l'Evangile une journée entière ! [٣]

فتكون والدة عائشة، ام رومان، والحالة هذه، من نساء النصارى قد يكون المؤلف استند، في هذا الاكتشاف، الى اسم «رومان»، الذي خاله مصحفاً، على ما يظهر، عن اسم «رومانوس» المسيحي[٤]. وفي الواقع ان بني رومان كانوا جزءاً من قبيلة طي النصرانية. ولا سند للاشتقاق اللغوي الخيالي الذي يذكره ابن دريد[٥]. بيد انه ليس لنا في ترجمة أمرأة ابي بكر ما يشير، وان اشارة ضئيلة، الى اصل نصراني[٦]. ولكن مهما يكن من أمر فان «الاحلاف» النصارى لم يكونوا بالعدد النزر في بيوتات القرشيين في مكة.

ولم يكن الخلفاء عثمان ومعاوية ويزيد ليندموا على زواجهم بنصرانيات من بني كلب[٧]. ولعلهم ذكروا، في ذلك، مثل شيخهم ابي سفيان في تزوجه بنصرانية[٨]، وفي تزويجه ابنته ام حبيبة من احد النصارى[٩]. وكان النبي نفسه،

١) ابن سعد: الطبقات ٥: ١٨٦؛ ابن قتيبة: المعارف ٥٧

٢) هذا في الرواية اما في الواقع فقد كانت حفصة على وفاق تام مع عائشة ضد سائر نساء النبي (راجع *Triumvirat*, p. 121)

٣) H. de Bornier, *Mahomet*. II, 4

٤) يذكر الهمداني (صفة جزيرة العرب، ١٨٠) رجلاً باسم ابن رومانوس من قبيلة كلب، واكثريتها نصرانية. راجع Jos. Horovitz, *op. cit.*, 128

٥) ابن دريد: الاشتقاق ٢٢٨

٦) اسد الغابة ٥: ٥٨٣؛ وفي موضع آخر (اسد الغابة ٥: ١٠٧) ذكر لعدد من نساء النصارى في اليمن، تزوجن رجالاً مسلمين في مصر، بعد الفتح بقليل

٧) راجع كتابنا في *Yazîd*، و *Mo'âwia*, 309-312

٨) شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ١٢٠

٩) ابن سعد: الطبقات ٨: ٦٨؛ ابن هشام: السيرة ١٤٢—١٤٤؛ ابن قتيبة: المعارف

قبل ان يختار عثمان صهرًا له[١]، قد زفّ احدى بناته الى عُتبة ابن ابي لهب . ولكن هذا الزواج لم ينتج سوى مرارة مؤلمة أثرت بالنبي طويلاً . ولعلّ من آثارها تلك الآيات الشديدة التي خلدت بالخزي ذكرى ابي لهب . وقد ظلّ الخصام غامض الاسباب، صعب الشرح، على رغم ما حاوله المفسرون من شروح وتآويل[٢] . اما ما يظهر جليًا فهو ان عُتبة طلّق ابنة محمد عندما اعتنق النصرانية . وادلى اليه بهذا التصريح الجري: «يا محمد أشهد أني نصراني قد كفرت بربّك، وطلّقت ابنتك»[٣]. هذا ما نقله صاحب الاغاني . وقد يكون في الحكاية تحامل على أسرة ابي لهب[٤]. ولا اعرف سندًا آخر لنصرانية عُتبة . ثم ان زواج بنات محمد، بل عددهنّ، عرضة لكثير من الغموض والصعوبات، وقد حاولنا مناقشة شيء من ذلك في بحثنا عن فاطمة وبنات محمد[٥]، فليعد اليه من يشاء .

على ان هناك رجلاً قرشيًا لم يشكّ احد بنصرانيته، هو عثمان بن الحُوَيرث الأسدي . انما يتفق المؤرخون المكيون على جعله يدين بالنصرانية في أرض الامبراطورية البيزنطية[٦]. ولا عجب، وقد عرفنا نزعتهم الى اقصاء كل من دان بالنصرانية من كبار قريش، حتى ليجعلون قيصر بيزنطية نفسه يتم بهؤلاء المتنصرين[٧]. وهكذا خرّجوا نصرانية زوجي سودة وام حبيبة اللتين تزوجهما

(الطبعة المصرية ٤٢) . يقال عن هذا الزوج انه «غرق في الخمر ويقال بل غرق في البحر» (البلاذري : الانساب (مخطوطة باريس) ٣٨٤ وجه) وهل يكون لهذا «الغرق في البحر» من أثر في تكوين اسطورة الهجرة الى الحبشة ؟ — وراجع، في نصرانيته، السيرة الحلبية ١ : ٢٥٩ . اما «الغرق في الخمر» فقد قيل عن الاسود وَحشي انه مات غرقًا في الخمر (ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٥٩) .

١) وقد بلغ من حبّ النبي لعثمان انه قال : «لو كان لي اربعون بنتًا زوّجت عثمان واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهنّ واحدة» (الذهبي : ميزان الاعتدال ٣: ٢٢٧)

٢) راجع اسد الغابة ٥ : ٤٥٦ ٣) الاغاني ١٥ : ٢ ؛ راجع 3 ,*Fâtima*

٤) وكثيرًا ما تحيّز صاحب الاغاني الى العلويّين، على خلاف ما يزعم نولدكه : راجع الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ : ٢٢٣، مستغربًا هذه النزعة في رجل اموي الاصل .

٥) 2-12 ,*Fâtima* ٦) اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٦٨

٧) راجع الاغاني ١٣ : ١١٢ . وقابل بحادثة مضحكة في اسد الغابة ٤: ١٤٢، وهي مستوحاة من اسطورة امرئ القيس .

النبي بعد ذلك ، فقالوا ان زوجيها الأولين تنصّرا في ارض الحبشة[١]. اما عثمان ابن الحُوَيرث فالحق أنه دان بالنصرانية قبل رحيله الى بلاد بيزنطية ، ولا شك ان صفته النصرانية دفعته الى تلك الرحلة ، لاجئاً ، في تحقيق اهدافه ، الى القيصر ، ملاذ نصارى الشرق والمحامي عنهم[٢].

ولنا ما يؤيّد أنّ تجار الشام النصارى كانوا يدعون علناً ، في يثرب ، الى ايمانهم ؛ ولا من يمنعهم او يقلقهم في دعوتهم[٣]. وليس ما يدلّ على ان وطني ابن جدعان وابي أحيحة كانوا اقلّ تساهلاً من انصار المدينة . فقد رأينا النبي يختلف الى اماكن النصارى علناً ، ويباحثهم دون ان يعترضه معترض . هذا اذا استثنينا اولئك الذين اشرنا اليهم ، مستندين الى القرآن ، والذين كانوا ينتقدون على صاحب الدين الجديد تقليده ، وايراده «الاساطير» القديمة المعروفة ، ونقله عن الاجانب آيات قرآنه[٤] . وقد كان من هؤلاء من يلفت نظر الموحدين فيصرفهم عن الانخداع باقوال « الغلام » او « الفتى » الداعية الجديد[٥] ، مؤيدين سموّ العقائد الانجيلية على ما كان يأتي به من اقوال ، صائحين بعدّاس : « ويحك يا عدّاس ، لا يصرفنّك عن دينك . فان دينك خيرٌ من دينه »[٦]. كل هذا يجري على غير اهتمام من السراة القرشيين ، ابناء تلك الاريستوقراطية المالية المثلة «بالملا» او « دار الندوة » التي لم تتأثر بهذه المشاحنات ، كما انها لم ترَ بأساً بدعوات القسس ومواعظهم ، زمن الاسواق المنعقدة حول مدينتهم .

وهناك أسدي قُرشي آخر لا يتردّد المؤرخون لحظة في اقرار نصرانيّته ، ولا

---

١) البلاذري : الانساب ١٢٢ وجه ، ١٢٧ قفا ؛ ابن هشام : السيرة ١٤٣-١٤٤ ؛ اسد الغابة ٣ : ١٢١ ، ٥ : ٤٥٧ ، ٥٧٢ ؛ Caetani, *Studi*, III, 14-15 ؛ ابن الاثير : النهاية ٢ : ٢٤٨

٢) في كتابنا عن « مكة قبيل الهجرة » درسنا بتفصيل هذا الامر ، وأبنّا ما كان في جزيرة العرب من تضارب بين السلطات الاجنبية في سبيل التأثير وبسط النفوذ .

٣) اسد الغابة ٥ : ١٧٢ ؛ الواحدي : اسباب النزول ٥٨

٤) القرآن ١٦ [النحل] ١٠٥ ؛ ٢٥ [الفرقان] ٥ . . . وغيرها من الآيات المذكورة في اول هذا المقال ؛ البلاذري : الانساب ٦٤ وجه .

٥) راجع بحثنا *Chronologie de la Sîra*

٦) ابن هشام : السيرة ٢٨٠ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٦٠

يحاولون — كما حاولوا بشأن الأسدي عثمان بن الحويرث — ان يجعلوه متنصراً خارج الجزيرة العربية. هو ورقة بن نوفل الشهير[١] ، نسيب خديجة ، اولى نساء النبي. ذلك انهم كانوا بحاجة الى هذه الصراحة في اقرار نصرانيته ، موافقةً للدور المهمّ الذي اختاروه لتمثيله . فهو يمثّل ، لدى الاسلام الناشئ ، العالَم النصراني باجمعه ، فيقرّ بصحة رسالة محمد[٢] ، باسم اولئك « الذين أوتوا نصيباً من العلم » على لغة القرآن[٣]. ولم يكن من اللائق ان يُعهد بهذا الدور المهمّ في « دلائل النبوّة » الى احد المبتدئين بالنصرانية ، او الى من تكون نصرانيتهم عرضةً للشكّ والتردّد. وهكذا اصبح ورقة يمثّل ، في عراقة نصرانيته ، جمهور اهل الكتاب. اما لماذا فضّله مؤرّخو السيرة على رفيقه المعروف « الحنيف » زيد ابن عمرو ، وقد طالما تردّدوا بين الرجلين في نسبة الاشعار الحنفية المزعومة[٤] ، فهو ما لا يتّسع بنا المجال لمناقشته[٥]. ولا يخفى ان التعابير « نصيب من العلم » و « نصيب من الكتاب » من خصائص السور المدنية ، واذًا فهي ترقى الى ما بعد الهجرة . وحينئذٍ اخذ النبي ، في احتكاكه باليهود ، يعلن الفرق بين العهد القديم والعهد الجديد ، و كلاهما « نصيب من الكتاب » الذي يكمّله القرآن ، في نظره .

وفي ما سبق ، كانت خديجة — التي جعلها الله « وزير صدق » الى جنب محمد في الحالات الصعبة — قد سألت عن الأمر نفسه العبد النصراني عدّاساً[٦]. على ان مؤرّخي السيرة خانتهم الذاكرة — او خانت عدّاساً نفسه — فزعموا ، عن لسانه ، انه لم يعرف النبي الّا في الطائف ، بعد ان مرّ على الحادث الاول نحو عشر سنوات. ولا يخفى ان عدّاساً كان من عبيد الأمويين ، وكان مقيماً في

١) اطلب ما نُسب اليه من شعر مهلهل مضطرب Noeldeke, *Beitraege*, 81-83

٢) اسد الغابة ٣ : ٢٠٧

٣) او « أوتوا العلم » ، او « أُوتوا نصيباً من الكتاب » (القرآن ٣ [آل عمران] ؛ ٤ [النساء] ٤٧ ، ٥٤ ؛ ٢٢ [الحج] ٥٢ . . .)

٤) السمهودي : الوفاء ٢ : ٢٨٢ ؛ واطلب Yazid, 290-291

٥) وقد يكون من اسباب هذا التفضيل القرابة بين خديجة وورقة

٦) البلاذري : الانساب ٦٦ قفا ، ٦٧ وجه .

مكة منذ السنين الطوال. فكيف لم يرَ محمدًا ، وقد لهجت به وبتعاليمه مكة بكاملها ، على قول مؤرّخي السيرة انفسهم ؟ وعندما سمع عدّاس محمدًا ، في الطائف ، يذكر اسم يونس ، صاح به بداهةً : « وما يدريك ما يونس ؟ »[1] وهذا دليل على ندور الاسما. الكتابية بين العرب الجاهليين ، حتى اسم اسماعيل جدّهم[2] ، وقد عرف محمد قصّته متأخرًا ، في اثناء حديثه مع الموحّدين[3] . ومهما يكن من صحّة تدخل عدّاس — وهو عبد لا يمثّل الّا فئة منحطة من البشر — فانها لم تكفِ المؤرّخين الرسميين ، فاتجهوا جهة ورقة يضخّمون شخصيته ، ويطوّلون في اسطورته[4] . واذا بجامع الاحاديث القانونية تطلق عليه لقب « القسّ » وتظهره بمظهر العالم المتبحّر المطّلع على دقائق اللاهوت والآداب المتعلّقة بالنصرانية والعلوم الكتابية فتقول : « استحكم في النصرانية ، واتّبع الكتب من اهلها حتى علم علمًا من اهل الكتاب »[5] بل انه كان باستطاعته ان يقرأ الكتب بلغتها الاصلية ، اذ كان متضلّعًا من العبرية نفسها[6] . وهكذا نراه يستكمل معـدّات النقد الكتابي من لاهوت ، وتفسير ، ومعرفة باللغات والآداب الكتابية ؛ فهو على اتمّ ما يمكن اضطلاعًا باصول الوحي ، ومن ثمّ ضمانةً لصحّة ما يرى في بعثة محمد . ولم يكن من المعقول ان نرى هذه الثقافة الدينية في عامّة

١) اسد الغابة ٣ : ٢٩٠ . وفيه ان النبي ذكر اسم يحيى مؤكّدًا انه لم يُسمَّ به احد قبل ذاك (في البلاد العربية) ؛ اسد الغابة ٥ : ١٠٠

٢) راجع اسد الغابة ٤ : ٢١١ . اما في المدينة ، ذاك الوسط اليهودي ، فيُذكر عدد من المسمَّين يحيى ، اسد الغابة ٥ : ٩٩—١٠١

٣) اطلب Snoucke Hurgronje, *Het Mekkaansche Feest.*

٤) ويقرّ ابن الاثير (النهاية ١ : ٢٦٦) ان هذه الاسطورة مضطربة . راجع نسبه المتقلقل في اسد الغابة ٥ : ٨٨ ، وفيه ذكر لعدة رجال باسم ورقة بن نوفل ، وكلهم من غير المشهورين . بل ان من الرواة من يزعم ان ورقة كان اعمى زمن التنزيل الاول (البخاري (طبعة استانبول) ١ : ٢) ولعلّهم ارادوا بذلك ان يبرّروا تردّده في الالتحاق بالنبي . اطلب Caetani, *Annali*, I, 235, 238, 260

٥) البخاري : الصحيح (طبعة استانبول) ١ : ٢ ؛ ابن هشام : السيرة ٢٤٢ ؛ البلاذري : الانساب ٦ وجه .

٦) اسد الغابة ٥ : ٤٣٦ ، وقابل بما في الصحيح في الصفحات المذكورة اعلاه

٣٥ .

القرشيين ، حتى في الحنفاء منهم كزيد بن عمرو ، بعد ان جعلتهم السيرة كلهم « أميين » . فوجب اذًا ان يكون ورقة من النصارى ، بل من العريقين بالنصرانية . ولم يكن بالامكان ان يحلّ محلّه احد اولئك المتّقين بالديانة اليهوديّة لفرط ما اظهروا من الحقد على النبي والنفور من تعاليمه الجديدة ، بشهادة القرآن نفسه.

ولم يكن ورقة من عامّة النصارى ، اولئك التجار والمهنة الذين رايناهم[1] يعيشون احرارًا في المجتمع المكّي ، ولكنهم يظلّون اجانب عن السلطة والسيادة ، لا يسمّون الّا « بالعلوج » ، ولا يتمكّن الكثير منهم من التعبير بالعربية الفصحى[2] . بل كان من قريش « صليبة » ، من رجال الارستوقراطية الذين لهم مركزهم في المجتمع الاعلى ، في « الملأ » ، بفضل كرم محتدهم وشرف حسبهم[3] . كان منهم عثمان بن الحويرث ، وكان منهم ورقة هذا وكلاهما من نسل قُصيّ ، جدّ الاسر الارستوقراطية في مكة . يظهر ذلك ايضاً من اخبار « السيرة » ، وفيها يكثر ورود اسم ورقة ، يذكره جمّاع الاخبار كلما امكنهم ذلك ، معظّمين شأنه في اوائل زمن « الوحي » او بعثة محمد . اما عثمان فقد نفعته نصرانيته في الالتجاء الى قيصر ، حتى انه كاد يتسلّط مطلقاً على مقدّرات مدينته ، لولا ما اتّصف به وطنيّوه المكيّون من نزعة اساسية الى الديموقراطية البالغة حدّ الفوضى احياناً . هذه النزعة وحدها ، لا نصرانية ابن الحويرث ، هي التي عملت على اخفاق الرجل في مقاصده[4] .

ومن المفيد ان نذكر ان ابا سفيان ، وهو المعروف بسموّ نظره ورفعة مركزه بين قومه حتى كان « لا يسقط له رأي في الجاهلية » ، لم يتراجع عن اختيار اصهرة واحماء من النصارى . ولقد تبعه محمد نفسه في هذا السبيل ، كما

---

١) ولنضف اليهم تاجرًا كان من موالي الهاشميين ذكره صاحب اسد الغابة ٣ : ٢٦٠–٢٦١ ؛ وزوجَي سودة وام حبيبة اللتين تزوّجها النبي بعد ذلك

٢) راجع ما في القرآن ١٦ [النحل] ١٠٥

٣) ولم ينل الحنيف زيد بن عمرو مثل هذا الشرف لانه كان من فرع بني عدي . وانظر كيف يتخلّص المحدّثون من زيد ورفيقه ورقة عندما تنتهي حاجتهم اليهما *Yazîd*, 290-291

٤) راجع كتابنا ...*La Mecque*, 270 ؛ ثم *Berceau*, I, 317

تقدّمنا . اما مـا يلاحظه ولهوسن من انّ « حنفاء » الحجاز يظهرون عطفاً على النصرانية وميلًا اليها اكثر مما يبدون بشأن اليهود [١] ، فلا ارى مندوحة عن القول بعدم قيمته العلمية. لأن كلّ ما عندنا من اسانيد تقليدية عن « الحنفاء » و« الحنيفية » متفرّع رأساً من القرآن [٢]. والحال ان النصارى ، في هذا الكتاب ، يظهرون بمظهر افضل بكثير من مظهر اليهود ، اولئك « المغضوب عليهم » [٣]. ولم يكن بوسع كتب « الصحيح » الّا ان تزيد هـذا التفضيل الذي يوليه « الحنفاء » الدين النصراني . ولا شكّ في اننا نجتنب كثيراً من الأخطاء والأوهام ، لو انتبهنا دائماً لاصل « السيرة » الجوهري ، الا وهو القرآن.

٣

كان بنو اسد اقرب الأُسر القرشية الى النصرانية والدائنين بها. فاليهم كان ينتسب مَن رأينا من النصارى في هيئة المجلس الأعلى ، او « الملإ » الساهر على مقدّرات مكة. وكان غير واحد من مواليهم يشاطرهم في هذه المعتقدات. و « مولى القوم منهم » بل « من أنفسهم » كما يقول المثل القديم [٤]. وكثيراً ما طُبّق هذا المثل حتى بشأن العقائد الدينية. وفوق ذلك ، نرى الأسديين — وقد ظهروا اقرب من سائر وطنييهم الى التأثر بالمؤثرات الدينية — ينحون لقب « الأحلاف » [٥] لعددٍ من نصارى غسّان [٦]. واذا ذكرنا ان الاجانب عن مكة كانوا ينزلون غالباً في الضواحي والاحياء البعيدة ، في « ظواهر » المدينة ، كما

١) *Reste*, 234 – وهناك امرءة « حنيفة » أُطلق على اخت هاشم ، وابنة له ايضاً (اليعقوبي : التاريخ ١: ٢٧٦ ، ٣٨٣) ويذكر في مكة رجل من الموحدين (الكتاب نفسه ٦:٢ ، ١٤)

٢) راجع بحثنا *Qoran et Tradition* : Caetani, *Annali*, I, 182...

٣) كما في السورة الاولى « الفاتحة » من القرآن . ولم يظهر النصارى نحو المسلمين شيئاً من بغض اليهود وحقدهم . وقد جاء في السورة ٥ [المائدة] ٨٥ : « لتجدنّ اشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود ، والذين اشركوا . ولتجدنّ اقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بان منهم قسّيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون »

٤) اسد الغابة ٥: ٤٢٥ ٥) الازرقي (Wustenfeld) ٤٦٦

٦) ورد في اسد الغابة ٥: ١٥٠ ذكر صحابي غساني يكنى بابي مريم ، واذاً فهو نصراني . ولكن المصدر لا يذكر هل صحب النبي في مكة أم بعد الهجرة

كان يُقال ، او في « الشِعاب » او الاودية المنفرجة المستديرة بالبلدة . فينصبون فيها خيامهم[١] ، من اغصان او من قماش ، حول الكهوف والمغاور ، و« السقائف » التي كان يتقلّب فيها ، بعضهم فوق بعض ، رجال السودان ، والعبيد ، وباعة الخمر ، وبنات اللهو[٢] ، والكثير من بدو تهامة ، وابناء الأزد الجبليين[٣] ، من اولئك الذين كانوا ينتظرون فرصةً سانحة ليزجروا سراة مكة قوة سواعدهم ، ونصال سيوفهم . واذا عرفنا ان الغساسنة النصارى ، « احلاف » الاسديين ، كانوا ينزلون في « البطحاء » او « الاباطح » اي في قلب المدينة ، منزل الأسر الكريمة ، وانهم كانوا يقيمون في جوار الكعبة ، في اقدس بقعة من مكة[٤] ؛ ادركنا ايّ تأثير كان لهم ، وباية عناية كا يحيطهم ابناء مكة . ولا شك في ان نفوذ الدولة الغسّانية كان يؤثّر في ارباب المتاجر المكيّة ، فيدركون ما يستفيدونه من محاسنة رعايا آل جفنة[٥] . وان يكن الشعراء يبالغون عندما يلقّبون هؤلاء الامراء « بملوك الشام » ، فليس من شكّ في انهم كانوا ذوي تأثير بليغ بسهرهم على الحدود البيزنطية ، وحفظهم للدروب النافذة الى بلاد الروم ، فمراقبتهم جميع القوافل في الذهاب والاياب . وهو أمر لم يكن ليخفى على دهاء القرشيين ، ارباب الأمر والنهي في تلك الجمهورية التجارية .

ولم يكن في ذاك العهد أثر لفكرة النجس الناتج من وجود رجل غريب الدين في منطقة موقوفة على دين آخر . انما كان العرب على كثير من التساهل ، بل على كثيرٍ من عدم الاهتمام بكل ما من شأنه احتكار الفكرة الوطنية

---

١) وكثيرًا ما ذُكرت «خيام التجار» ، اسد الغابة ١ : ٢٨١ ؛ ابن هشام : السيرة ٧٧١

٢) اسد الغابة ٥ : ٢٨٩ . وقابل بهذا النصّ في ما خصّ المدينة : « سقيفة طويلة فيها بغايا » (السمهودي : الوفاء ١ : ١١٢)

٣) وكان يسكنها ايضاً بعض القرشيين من الطبقة الدنيا في المجتمع ، وهم الذين يدعون « قريش الظواهر » او « قريش الضواحي » . راجع ابن الاثير : النهاية ٣ : ٤٤ ، ٥٩

٤) مسجد الحرام ، الازرقي ٤٥٨ ، ٤٦٠ . وكان المجال ضيقًا حتى ان البيوت كانت تزدحم بعضها فوق بعض وتقترب شيئًا فشيئًا ، فتضيّق « فناء » الكعبة .

٥) كانوا في الحجاز يحابون هذه الدولة ؛ ابن الاثير : النهاية ٤ : ١٥٨ ؛ البخاري : الصحيح (طبعة استانبول) ٧ : ٢٧ ؛ ابن هشام : السيرة ٩١١

القومية او العاطفة الدينية[١]. ولا يمكن ان يُدلّ دلالة واضحة على التعصب الجنسي والديني بين العرب ، الّا بعد انتشار مذاهب التفسير القرآني[٢] ، وعمل ائمة التحليل والتحريم المتفقّين على طريقة ارباب التلمود. اما في ذاك العهد القديم فلم يكن من النادر ان نرى من « احلاف » ابناء قُصي مَن يدخلون دار النّدوة[٣] ، على كونهم غرباء عن قريش[٤] ، فيتمتّعون بحقوق القُرَشيين ويجلسون الى جنب شيوخ مكّة. وفي كل ذلك من رحابة الصدر ، وسعة العقل ، والتساهل الديني في وطني محمد المشركين ما ظهر شيء من اثره في بعض السور المكية القديمة.

وكان من اعمال القرشيين انهم أسرعوا الى استقبال الموحّدين الهاربين من المدينة. فتحوا مداخل جيشهم ، في وقعة أُحد ، امام ابي عامر الراهب ورفاقه من نصارى يثرب[٥]. ولا يخفى ما في هذه المعلومات من دلالة على الميل الى النصارى سواء أكانوا اجانب ام قُرشيين. ذاك ان الانجيل لا يفرض على اتباعه شيئاً من التستّر عن وطنيهم او الانفصال عنهم في طرق معيشتهم ، كما ترى عند اليهود المقيّدين باحكام التلمود الصارمة في ما يخصّ الطهارة والنجاسة ، والمزهوّين بسموّهم على « الأُمّيين » ، ابناء القبائل غير اليهودية التي كانوا يعدّونها اجنبية عنهم. فلا يرون حقّاً عليهم لاحد افرادها ، على نحو ما جاء عنهم في القرآن : « ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأُمّيين سبيل »[٦]. وقد يُكرهون على تأدية هذا الحق للأُمّي فيؤدّونه ما دام صاحبه قويّاً على المطالبة به. وهذا قول القرآن : « ومن اهل الكتاب... من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه اليك الّا ما دُمتَ عليه قائماً »[٧] . وكم كان الفرق جليّاً بين هؤلاء المقيّدين باحكام التلمود الصارمة ،

١) وكذلك القول عن بغض الاجنبي ، بالمعنى السياسي ، فهو لا يرقى الى ما قبل زمن الخلافة. راجع *Yazīd*, 304 ٢) القرآن ٩ [التوبة] ٢٨ ؛ وراجع *Mo'āwia*, 401.

٣) الازرقي ٤٦٥ . وهناك ذكر لبعض احلاف قريش الاجانب يصبح لهم حقوق القرشيين انفسهم ؛ الجاحظ ؛ الرسائل ٦ . وقد درسنا هذا الامر في كتابنا ...*Tāif*, 121

٤) ومنهم غسانة من « احلاف » الامويين (الازرقي ٤٥٨ ، ٤٦٠)

٥) ابن هشام : السيرة ٥٦١—٥٦٢

٦) القرآن ٣ [آل عمران] ٦٩ . ٧) القرآن ٣ [آل عمران] ٦٨

المنفصلين عن جمهور العرب ، المترفّعين عليهم بتشريعهم الديني والمدني الخاصّ ، الفاترين ، مقابل ذلك ، بازدراء البدو هواة التساهل والتفلّت من القيود ، وبين اولئك النصارى الذين لم يكن دينهم يفرق معيشتهم عن عيشة سائر العرب ، فلا يصرفهم عن حياة القبيلة العامّة ، ولا يفرض عليهم تشريعاً خاصاً مختلفاً عن تشريع الجدّ قُصي ، وبالتالي لا يدفعهم الى جحود شيء من القومية العربية ، كما كان الحال مع اليهود[١].

* * *

بيد ان هناك مشكلة دقيقة قد تتعارض ظاهرًا وما بسطناه من تساهل العرب وميلهم عن التعصّب في ما خصّ الشؤون الدينية. الا وهي تلك المقاومة العنيفة التي قاوم بها القرشيون ابن وطنهم محمدًا. فكيف التوفيق بين الامرين؟ ذلك ان الداعية الجديد لم يختصّ بدعوة دينية محضة ، بل كان يرمي ، كما يقول مناوئوه ، الى اهداف اجتماعية كان من شأنها تقلقة النظام السائد اذ ذاك و« تفريق الجماعة » على قولهم[٢]. ولم تكن تهمة كهذه أُلصقت باحد من النصارى، ولا من دعاة النصرانية ، قبل ذلك العهد . بل ان كثيرًا من النصارى كانوا ، في تساهلهم العجيب ، يوفّقون بين عقائدهم التوحيدية ، وإكرام الكعبة وغيرها من اماكن العبادة الوثنية[٣]. وهؤلاء شعراؤهم يحلفون بالله ، وباللات ، وبالأنصاب ، وبالبيت الحرام ، دون تردّد[٤]. وهذه جماهيرهم تحجّ الى مكة ومنى وسائر المواسم والمناسك. وهنا لا بدّ من درس هاتين اللفظتين واقرار ما بينهما من صلة. فانّ «الموسم» كان يشمل اعمال السوق التجارية خاصّة ، بينا كان « المنسك » يختصّ بشؤون العبادة. وكان الأمران يتوافقان ويجريان معاً كما في

١) راجع بحثنا *Les Juifs à la Mecque*

٢) ابن هشام: السيرة ٢٢٥ ؛ راجع *Mahomet fut-il sincère ?*, 128

٣) اطلب *Mo'āwia*, 403-404 ؛ *Reste*, 73 ؛ Welhausen, ؛ Snouck Hurgronje, *Fest*, 28, n. 2 . وكان نصارى العرب يحلون صلبانًا من الذهب ؛ ابن الاثير: النهاية ٤: ١٩٤ ، وراجع *Chantre des Omiades*, 14-15

٤) كالمتلمّس ، وطرفة في شعراء النصرانية ٣١٩ . واطلب في *Mo'āwia*, 456 ملاحظتنا بشأن دين الشعراء الجاهليين

عكاظ[١] ، وذي المجاز ، ومِنى . ولم يكن حضور الموسم يفرض ضرورة الاشتراك في العبادة. ولا شك في ان المصالح التجارية جرّت نصارى مكة،مقيمين ومارّين،الى عَرَفة ومِنى. ولكن ليس لنا ما يدلّ على انهم كانوا يشتركون في الذبائح الدينية،او في الطواف حول الحجر المؤلّه، في «مشاعر» تهامة«ومساجدها» وفي « العُمرة » المكية. ومهما يكن من أمر فان تحريم الاشتراك في القُدسيّات لم يكن أثرّ بعد بالدقة والصرامة اللتين نعرفهما اليوم. بل ان النصارى من البدو لا يظهرون على شيء من الاهتمام بهذا التحريم. ولا يخفى انهم كانوا ينتسون الى كثير من الفِرق والبِدَع المنفصلة المتفرّعة عن المذاهب النصرانية الشرقية[٢] حتى لا نعرف بينهم جماعة كاثوليكية صحيحة المعتقد . وكانوا يضيفون الى تفرّقهم المذهبي تبدّدهم في اطراف الجزيرة ، في اماكن بعيدة كلّها عن المركز الكنسي الثابت ، وعن النظام الاكليريكي المقرّر ، ومن ثمّ فقد كان من الصعب على رجال الدين ان يراقبوا سلامة العقائد الايمانية ، ويسهروا على تطبيق القوانين البيعية. وهو ما يشرح نوعاً ما عدم مقاومة النصارى للدين الجديد.

يظهر ان الكعبة ظلّت ، حتى عهد النبي ، لا تنتمي الى اله معروف ، فلا تحمل اسماً خاصاً. اما ما ذكره ولهوسن من انها كانت تنتمي الى هُبَل – وهو اله شمالي الأصل لا يُذكر الا في انساب الكلبيين[٣] – فلا سند له يقوى على النقد المعقول. ونحن لا نرى اثراً لهُبل في اسم واحد من اعلام الاشخاص المضافة الى اسماء الآلهة ، خلافاً لما نتحقّقه بشأن المثلّث القرشي: اللات ، والعزّى ، ومناة. ولهذا قد يكون في قول البلاذري ما يُرجّح نسبة الهيكل الى مناة « اعظم اصنامهم عندهم»[٤]. على اننا لا نجزم بشيء. ولم تكن التحرّيات القديمة والابحاث

١) كان فيها منسك ايضاً كما في سائر الاسواق الجاهلية . وكان من مرتادي عكاظ النسانة (ابن سعد : الطبقات ١ : ١٤٥)

٢) يذكر الاغاني (١٦ : ٧٢) ان احباش اليمن يدعون المسيح « نبيّهم » . وتشير السيرة الحلبية (١ : ١٤٤) الى بدعة نصرانية اسمها « الاسرائيلية » كانت تؤلّه مريم العذراء.

٣) اسد الغابة ٤ : ٢٠٧

٤) البلاذري : الانساب ٢٢ وجه . خلافاً لما يزعم ابن سعد : الطبقات ٣ : ١٠٥ ، اذ ينسب الكعبة الى عُزّى ناسياً انه سبق فنسبها (ص ٩٩ من المجلّد نفسه) الى هُبَل

المستطيلة لتكشف عن العلَم الخاصّ بالكعبة، عن شخصية ذاك الإله الذي طالما دعاه العرب « بربّ البيت » و« ربّ مكة » فحلفوا به في شعرهم، حتى النصارى منهم، جامعين بينه وبين الله والصليب[1]. ومن الضروري ان ننتبه لما قد يكون في هذه الأعيان من اعمال التحريف والتصحيف والوضع يقوم بها طلّاب الغريب والنوادر، او « علماء » الشعر في العصر العباسي[2]. ولا يبالغ الناقد مهما ينسب الى هؤلاء من اعمال النحل والوضع والكذب في ذاك العصر الوافر الخصب بالآثار الادبية، والقليل الامانة والتحرّج. فلنحذر السير واتّقين بين هذه المتاهات والمزالق، ولننتبه دائماً لغاية اقرار السيطرة القرشية التي اصبحت شيئاً فشيئاً عقيدةً قوميّة سامية فرضت ارادتها على مظاهر الحياة العقليّة، مبرّرةً جميع الوسائط في سبيل الوصول الى الهدف وتأسيس الخلافة العربية على أُسس اصيلة دينياً وتاريخياً[3]. هذه العقيدة دفعت جمّاع الاحاديث، ورواة الحوادث التاريخية، الى ان جعلوا من الكعبة هيكلاً وطنياً يجمع حوله وفود العرب من انحاء الجزيرة كلّها. فرأينا القبائل، حتى ابعدها منازل عن الحجاز، تأتي مكة في المواسم فتقرّ ضمنياً او صراحة بسيادة اربابها من القرشيين. بل لم يتراجع المؤرّخون عن ان يجعلوا بين تلك الوفود ابناء تغلب النصارى يأتون من اقاصي ما بين النهرين[4]. ويستفيد الواضعون من هذا الزعم فيتخيّلون فروضاً وتحريمات تُسَنّ على التغلبيين، وهي في الحقيقة من آثار تسلّط العباسيين وتعصّبهم[5].

ومهما يكن من تساهل العرب وعدم تقيّدهم بالدين الواحد، فانه يصعب

١) الاغاني ٢ : ٢٤ ؛ وقابل بما في Wellhausen, *Reste*, 87 ؛ *Mo'âwia*, 403-404 ؛ Snouck Hurgronje, *Feest*, 28, n. 2 ؛ المشرق ١٦ [١٩١٣] ٦٧٨ ، ٦٧٩ . وهناك بعض الصحابة يحلفون بآلهة القرشيين ؛ ابو داود : السُنَن ٢ : ٤٥ ؛ النسائي ٢ : ١٤٠

٢) كما في شعراء النصرانية ٢٧٦

٣) اطلب *Yazîd*, 38...

٤) في جغرافية ابن الفقيه، ١٩، ذكرٌ لاحد ملوك الحيرة النصارى يقصد الكعبة. وهناك ملك لخمي آخر يُرسل ابناء بكر وتغلب يجدّدون اتفاقهم في الكعبة (الاغاني ٩ : ١٧٨). وفي كل ذاك اثر النزعة نفسها . قابل بما في *Mo'âwia*, 397-399 ; *Berceau*, I, 320, n. 2

٥) اطلب اقرار الذهبي : ميزان الاعتدال ٢ : ١١٢

علينا ان نقدر مـا دفع شاعرًا نصرانيًا كعديّ بن زيد ، الحيري الأصل ، والملحق بديوان كسرى في المدائن ، الى القسم « بربّ مكة » الى جنب الصليب[1]؛ لولا ما نعرف من هذه النزعة القومية المبأّسية ، الرامية كما قدّمنا ، الى اقرار سيادة الهيكل الوطني وشموله انحاء الجزيرة العربية بكاملها.

في سبيل هذه الغاية ، كان المحدّثون والمؤرّخون لا يتراجعون امام شيء مهما يكن من عظم وضعه وفظاعة تزويره. وهذا ابن اسحق ، مؤلّف سيرة الرسول لم يكن يرى اثمًا في «اعطائه الشعراء الاحاديث يقولون عليها الشعر»[2]. كما يذكر الذهبي الذي لم يتمالك ان حكم عليه حكماً صارماً ، فقال: «وهو صالح الحديث ما له عندي ذنب الّا ما قد حشا في السيرة من الاشياء المنكرة المنقطعة والاشعار المكذوبة.»[3] وكفى بذلك ذنباً شنيعاً ! وقد انتبه ابن هشام ، وهو اقرب الى الامانة من سالفه ، الى هذه المدسوسات ، فاشار الى بعضها بلطف ، وانكر البعض الآخر بصراحة. وكان من المفترين مَن « ذكر انه يحفظ خمسين الف بيت من الشعر شواهد للقرآن » (كذا) . فهل نؤخذ بهذا القول ، فنظهر اقلّ حذرًا ونقدًا للحقائق من الذهبي الذي ، بعد ان ذكر الأمر ، زاد بلهجة الشاكّ: « فالله أعلم ! »[4]

اما وقد وقفنا على هذه الآراء في « الامانة الادبية » ، وعلى هذه الاساليب في تأدية الرسالة العلمية حتى في ما خصّ تاريخ النبي نفسه ، فاصبح من السهل علينا ان نتصوّر ما كان يمكن ان يأتيه النحويّون ، واللغويون وطلّاب الغريب والنوادر — وكلّهم يتراشقون تهمة النحل والوضع والكذب ! [5] — من تصحيف

١) في قوله (الاغاني ٢ : ٢٤) :

ـمى الاعـداء لا يألون شرًّا عليك ، وربّ مكّة ، والصليب !

واطلب ايضاً *Yazīd* في المحلّ المذكور ؛ وحماسة البحتري (طبعة شيخو) عدد ٢٢٧ . ويمكن الّا يكون المذكور فيها اله مكّة .

٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ٢٢

٣) الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ٢١

٤) الذهبي : ميزان الاعتدال ٣ : ١٨

٥) راجع ابا زيد : النوادر (طبعة بيروت) ٥٨

وتحريف وترويز في الآثار الشعرية القديمة ، ومنها منظومات شعراء النصرانية .

فان كان، والحالة هذه ، من قيمة تاريخية لهذه الآثار، لشعر عدي بن زيد وشعر زملائه النصارى في العصر الجاهلي ، فانها تدلنا بعض الدلالة على ان ربّ البيت ، او رب مكة ، او اله الكعبة غير المسمّى، يجب ان يكون هو«الله» ، ذاك الاله « الأكبر » الذي يحلف به كل شعراء الجاهلية على السواء . واذًا فيكون النصارى منهم في حِلّ من الإشراك ، اذ كانوا يكتفون بالترفّع عن القيام بالطقوس الوثنية[1] . هذا موقف مؤرّخي السيرة في اهتمامهم بشأن «الحنفيين» وتخليصهم من الشرك ، على تملّقهم بديانة الكعبة . ولماذا لا يكون موقف النصارى مشابهاً له بالنظر الى هيكل مكة نفسه ؟

هذا ولم يكن من إحراج في شأن الدين . فان النظام القُرشي، والساهرين على تنفيذه من اعضاء « الملأ » ، كان من ابغض الامور لديهم التدخّل في معتقدات الناس او الضغط على آراء الغير . ذلك ان العربي ، اذا ما تُرِكَ لطبيعته ، كان اقرب ما يكون الى التساهل ، متخذًا شعاره ، قبل زمن القرآن ، أنْ « لا إكراه في الدين»[2] ، متوصلًا الى قمة هذا التساهل بفضل نزعته الخاصّة ، وما فُطر عليه من عدم مبالاة وقلة تقوى . فهو لم يبذل جهدًا في هــذا السبيل فلم يستحق فضلًا كذلك !

وكان فهمه «للدين» يخالف شيئاً ما نعرفه به اليوم . لم يميّز تمييزًا واضحاً بين الاخلاق والعادات وبين ما يدعوه « دينًا » ، مكتفياً من هذا بصفته القومية او القبلية الخاصّة، معتبرًا انه إرث او «وصية»[3] عن جدّ القبيلة . ومن ثمّ فان القيام بالعبادة في القبيلة الواحدة يمكن ان يشمل جميع ابنائها على السواء . ولا يخفى ان هذه « الوصية » الدينية المتداوَلة عن الجدّ الأول كانت تحتوي خاصّة على النصائح و « الوصايا » الخلقية او الادبية ، غير مهتمّة بالاعتبارات اللاهوتية .

---

١) اما في شعر الاخطل واشاله ، فالأيمان لا تعدو القوالب التعبيرية ، راجع .Mo'āwia, 404 والاغاني ٧ : ١٧٢ ٢) القرآن ٢ [البقرة] ٢٥٧

٣) وقد درسنا هذه الوصية ومضامينها بشيء من التفصيل في بحثنا : « الثأر عند العرب وصفته الدينية » في المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ١-٢١ ، ٤٢٨-٤٤٥ ، ٥٥٧-٥٧٤

وكان كل شيخ ، اذا شعر بدنوّ اجله ، استدعى ابناءه وحفدته — كما فعل يعقوب في العهد القديم — وذكّرهم بوصية الاجداد ، « عازماً » عليهم او « مناشداً » اياهم ، بألّا يهملوا الوصيّة.

وهذا ما يفيدنا لماذا لم يكن للعربي هياكل سويّة. انما كان يكتفي عادةً بالخيمة او المضرب ، مجتمع الأسرة ، وقد دعاه فيما بعد « مجلس القوم » او « مسجد القوم »[1] تجتمع فيه شيوخ القبيلة ووجهاؤها. وفيه تُقام شعائر ذلك الدين البسيطة. الّا في احوال قليلة كان يوضع فيها الحجر المؤلّه في حلقة معروفة « بالمشعر الحرام » فيطوف حوله المؤمنون. وكان على من رغب في دخول ذلك « المسجد » او « المجلس » ان يكون منتسباً الى القبيلة إما بالدم او بالولاء. وهكذا فان العربي الجاهلي لم يتصوّر ديناً انسانياً شاملاً ، بل انه لم يتصوّر ديناً اقليمياً يتجاوز حدود القبيلة المتفرّعة عن جدّ واحد.

ولقد كان محمد ، على الراجح ، اول من فكّر بين ابناء الجزيرة — في « عهده » بالمدينة ، ثم في السور المستطيلة المتأخرة عن الهجرة — بان يرمي الى اقرار اخوّة دينية او وحدة ايمانية لا تستند الى القرابة الدموية. فكّر بهذا المبدأ دون ان يستنتج كل ما فيه من نتائج خصبة. وذلك ان فكرة « الإسلام دين عالمي »[2] لم ترقَ الى ما قبل عهد الخلافة ، محتكّة بما في الديانات التوحيدية من مبادىء مماثلة ، مستفيدة من تقدّم النظريات القومية المتسلّطة التي كانت ترمي الى اظهار العرب مظهر الشعب الخاصّ الذي اختاره الله وريثاً روحياً لأمم الأرض جمعاء[3]. وكأن ارباب هذه النظرية المكتسحة كانوا يرمون الى تحقيق ما ورد في

١) راجع ، بشأن الترادف بين « مجلس » و« مسجد » بحثنا في *Ziād ibn Abībi*, 89

٢) اطلب Snouck Hurgronje, *Mohammedanism*, 45-46 ؛ ثم *Ṭāïf*, 8, 161

٣) وهو ما اشار اليه ڤولتير في روايته « محمد » ، قال :

Chaque peuple à son tour a brillé sur la terre,
Par les lois, par les arts et surtout par la guerre.
Le temps de l'Arabie est à la fin venu.
Ce peuple généreux, trop longtemps inconnu,
Laissait dans ses déserts ensevelir sa gloire. (Voltaire, *Mahomet*, II, 5)

القرآن من وعد صريح للعرب في القول عن الله: « وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض»[١].

ولم يكن معاصرو النبي، المتصفون، كسائر العرب، بضيق الافق، والتقيد بالحدود القريبة، لتنبسط تصوّراتهم الى دين لا يكون قومياً بادياً خاصاً ضمن التقاليد المتوارثة عن جدّهم قُصَي، وكثيراً ما عبّروا عن هذه التقاليد بقولهم: « دين قُصَي ». ولا يخفى ان هذه المبادئ تحول دون نشر الدعوة خارج البيئة القُرَشية. واذاً فلم يكن لهم كبير فضل في التساهل، اذا ما قالوا لأحلافهم او ضيوفهم من النصارى ـــ وقد ذُكرت الديانات ـــ ما كان يقوله محمد نفسه، في بدء بعثته، لمخالفيه ومناقشيه: « لكم دينكم ولي ديني!»[٢]

* * *

وها اننا وصلنا الى ختام هذا البحث الطويل المملّ. وكأننا لم نتقدّم خطوةً واحدة. فبعد ان استوضحنا النصوص المتفرقة في روايات « السيرة »، وكتب « الصحيح »، ومجاميع « المُسند » و« السنن » واختلافاتها، وبعد ان قلّبنا الوثائق المتعدّدة، والاسانيد المختلفة القيم، في التاريخ الإسلامي القديم، نرانا مضطرّين الى القول، خلافاً لزعم ولهوسن، ان الديانة النصرانية لم يكن بامكانها ان تؤثّر اثراً عقائدياً مهمّاً في الإسلام الناشئ، مدة العشر السنوات السابقة للهجرة. وهي المدة الوحيدة التي تهمّنا. اما في الحقبة التالية للهجرة فليس من شكّ في اثر الدين اليهودي.

لقد جهلنا كلّ شيء عن طفولة محمد ونشأته الاولى، الّا اشارات خفيفة وتلميحات في سورة « الضحى »، يستنتج منها انه كان يتيماً فقيراً[٣]. وكذلك نجهل هل قام هذا الناشئ اليتيم باسفار ورحلات قادته الى ما وراء الحدود

١) القرآن ٦ [الانعام] ١٦٥ ؛ ١٠ [يونس] ١٥، ٧٤ ؛ ٣٥ [الملائكة] ٣٧ ؛ وقابل بها في القرآن ٢ [البقرة] ١٣٧ : « وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا.»

٢) القرآن ١٠٩ [الكافرين] ٦

٣) القرآن ٩٣ [الضحى] ٦-٨ : « ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالًّا فهدى. ووجدك عائلًا فاغنى.»

العربية ، وهـل تيتّسر له ، في اثناء هذه الرحلات — التي لا ننفي امكانها الكثير الاحتمال [١] — ان يتصل اتصالًا وثيقًا ببعض النصارى الشرقيّين ؟ بيد اننا استفدنا مما رأيناه عرضاً في تلك الشروح المتضخّمة حول « السيرة » من انه لم يكن من يُمثِّل النصرانية في مكة ، قبل الهجرة ، تمثيلًا لائقًا لا من حيث العـدد ، ولا من حيث المركز الاجتماعي والثقافة العقلية . فلم نتمكّن ، من خلال تلك المعلومات المتفرّقة ، المضطربة حتى التناقض ، المشوّهة بنزعات الرواة والمؤرّخين ، من ان نقف على اثر واحد لنظام كنسي مقرّر ، بـل لجماعة نصرانية منظّمة بين اولئك الباعة والتجّار ، روّاد متاجر مكة واسواق تهامة . اما الاساقفة والرهبان والقسّيسون والشمامسة وسائر رجال الاكليروس المذكورون في تلك الاحاديث فهم اقرب الى اشخاص القصص والنوادر المخترعة في سبيل ايلاء الحـادثة حياةً زائفة وقتية ، منهم الى الحقيقة التاريخية . ولا غاية من ذكرهم ، في اعلاء مرتبتهم الرسمية واقرارهم في مراتب النظام الاكليريكي ، الّا تعديل شهاداتهم المزعومة بصحة الدين الجديد ، وحقيقة بعثة محمد . فلنحذر استخدام هذه المواد الموضوعة في سبيل غاية متأخرة .

واذًا فلم يكن من جماعة نصرانية وطنية في مكة . الّا ما تحققناه من وجود بضعة نصارى لا يشكّ في شخصيتهم . وقد لا يتجاوزون العشرة من القرشيين الصميمين . يُضاف اليهم بعض «الاحلاف» الملتحقين بالاسر المكية . عـلى ان هناك كثيرًا من العبيد ، والمغامرين ، والصعاليك ، وباعة الخمر ، والتجار ، كانوا يرِدون بمكة وجوارها فيقيمون مدةَ عقد الاسواق ، او يدخلون مأجورين في الجيش المكي ، او يقومون ببعض المهن البسيطة ، وهم على الغالب من الاحباش ينتمون الى دين خليط من النصرانية واليهودية الحبشية ، يدينون به منفردين ، لا تجمعهم سلطة دينية ، ولا تشرف على حياتهم وسلوكهم ادارة قانونية ، منفصلين بعضهم عن بعض بفروق اللهجات ، وتدابر المصالح والمنافع ، وتنابـذ الانساب ، وتباغض البدع والانشقاقات المتاندية التي كانت تعم

---

١) والتي تبسّط في ذكرها واضع اخبار الرسول كابن اسحق ، وابن هشام ، وابن سعد .

الكنيسة الشرقية، حين كان الامبراطور هرقل يحامي عن بدعة المشيئة الواحدة. وانه لمن الصعب ان نتصور نصارى السوريين-البزنطيين يختلطون برفاق بلال، ووحشي، وابي رُوَيحة وسائر الاجلاف من الحبش الذين كانوا يأهلون أكواخ «الظواهر» وكهوفها وسقائفها.

وليس في هذه البينات المختلطة، الجاهلة، ما كان يفيد محمداً معلومات واضحة دقيقة عن النصرانية. يؤيد هذا ما نراه من الغموض والتردد في المعلومات المسيحية البادية في السور المكية. اما في يثرب فقد اصطدم بمقاومة ابناء اسرائيل. وسرعان ما شعر بعدم اتفاقه مع النصارى واليهود. فاخذ يرمي الى إقرار دين ابراهيم، والد اسماعيل جد العرب، ومؤسس الكعبة الذي «لم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، بل حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.»[1] وهكذا، بعد أن انحط اليهود والنصارى، ابناء الشريعة القديمة والوحي السابق، يتّجه الله نحو العرب «فيجعلهم امّةً وسطاً ليكونوا شهداء على الناس.»[2] وهكذا، كما ابنّا في بحث سابق[3]، يتحوّل الدين الموسوي — لا النصراني — الى شريعة جديدة في سبيل حاجة العرب.[4]

١) القرآن ٣ [البقرة] ١٢٩، ١٣٤ — وفي ابن هشام: السيرة ٣٨٤، ان نصارى نجران كانوا يقولون بنصرانية ابراهيم. وهو أمر ضروري لشرح الآيات المذكورة.

٢) القرآن ٣ [البقرة] ١٣٧

٣) راجع *Adaptation*, 186

٤) اوكما يقول رينان: «الى نشرة عن اليهودية مالّحة وفقاً لذوق العرب» Renan, *Marc-Aurèle*, 693

مطبوعات شرقية جديدة

L. Fanfani, o. p., **De jure parochorum ad normam Codicis Juris Canonici.** 2ᵉ édition révisée et augmentée. In-8°, XXIV+562 pp., Turin, Marietti, 1936. Prix : Liv. ital. 20

في حقوق خوري الرعية وواجباته

يرى الخوري في هذا الكتاب مجموعة حقوقه وواجباته على اسلوب واضح قريب المتناول . فلا عجب ان يكون نال رواجاً دفع صاحبه الى اعادة طبعه منقحاً ومزيدًا عليه . وقد اعاد النظر خصوصاً في ما يتعلق بتنقلات الخوارنة ، واستعفائهم ، وفصلهم . وكذلك زاد الكتاب تدقيقاً بشأن الاكليل والجناز وغير ذلك من شؤون الرعية ، وما يحق للخوري لقاء قيامه بهذه المراسيم.

وفي الكتاب جدول ابجدي عام ومجموعة لجميع الصلوات المرعية في الخورنيات . كل ذلك بطبع متقن وحرف واضح . ج . ل .

Josephus Gredt, o.s.b., **Elementa Philosophiae Aristotelico-thomisticae.** vol. I. Logica, Philosophia naturalis. Ed. 7ᵃ recognita. Freiburg im Brisgau, Herder, 1937. Prix : 6,40 M.

مبادئ الفلسفة بالاستناد الى ارسطو والقديس توما : الجزء الاول

هي الطبعة السابعة للجزء الاول من هذا الكتاب المهم . ولم يُدفع المؤلف الى تحوير شيء مهم فيها الّا تنقيح بعض الدقائق الثنوية في سبيل زيادة الايضاح ، وسهولة الانشاء . وقد تبع ، في ما خص ترتيب المواد ، اسلوب ارسطاطاليس والقديس توما ، بادئاً بالفلسفة الطبيعية ، ممهدًا بها للبحث في ما وراء الطبيعة . ولا يخفى ان درس الكائن الحي المتحرك يقودنا الى مدلولات الفعل والقوة ، فالى مدلول العلة التي تنال سمة جلائها في درس ما وراء الطبيعة . وعليه فكان لنا ، في هذا المجلد الاول ، بعد درس المنطق ، بحث تام شامل في الكائن المتحرك (علم الكون وعلم النفس) . ولم يفت المؤلف ان يستفيد

من الابحاث العصرية والمكتشفات الحديثة ولا سيّما في ما خصّ الإحساس ومظاهر علم النفس ، فاتى كتابه من أجلّ ادوات الدرس ي·ك·

M. T.-C. PENIDO, La conscience religieuse. [*Cours et Documents de Philosophie*] In-8°, 252 pp. Paris, Pierre Téqui.

الضمير الديني

اصل هـذا الكتاب سلسلة دروس في النفسيّة الدينية القاها المؤلّف في جامعة فريبورغ (سويسرة). ثم رأى ان يوضح «طبيعة النفسية الدينية ومتناولها». مجتهدًا في كشف ما يعلق بهذه المعلومات من غموض واضطراب . فاعاد النظر في محاضراته ، وعزّز نتائجه بعدة امثلة تناولها مما تظهره الحياة الدينية من ميزاتها الفارقة ، سواء اكان ذلك في منشأها كالاهتداءات مثلًا ، أم في تقدّمها كمظاهر الزهد والتقشّف ، أم في قمّتها السامية كالحالات الروحانية او الصوفية . فاتى الكتاب جامعًا مفيدًا. ي·ك·

C. SPRENGERS, Conferentiae ad usum sacerdotum pro recollectione menstrua. In-16, VIII+168 pp. Turin, Marietti. Prix : Liv. ital. 8.

مواعظ شهرية في سبيل الكهنة

ان من محاسن التقدّم الروحي في عصرنا بين الكهنة ، قانونيين وعلمانيين ، تلك التمارين الرياضية الروحية التي يقومون بها مرةً في الشهر ، والتي كاد يعمّ استعمالها جميع مناطق النصرانية . فيجتمع الكهنة يومًا بالشهر يصلّون معًا ، ويتأمّلون ، فيتخذون المقاصد الصالحة.

وكان لا بدَّ من ان يهتمّ ذوو الاختصاص بتعزيز هذه الظاهرة التقوية ، فاخذ بعضهم بوضع الكتب تسهيلًا للتمارين الروحية. وكان منها هذا الكتاب تبع فيه مؤلّفه الاعياد الكنسية : من زمن المجيء ، الى الآلام ، الى مواهب الروح القدس ، الى ذبيحة القدّاس ، الى القلب الاقدس . مردفًا ذلك بقسم ثانٍ جمع فيه ، في سبيل التأمّل ، منتخبات جمّة من حياة القديسين . ولا سيّما ما وافق منها حياة كهنة الرعايا.

BOURDALOUE, **Sermons choisis**, avec un avant-propos et des notes par LOUIS DIMIER. [*Classiques Garnier*]. In-12, 457 pp. Paris, Garnier Frères. Prix : 12 fr.

مواعظ منتخبة من آثار بوردالو

جمعت هذه الطبعة المتقنة افضل ما يُعرف من مواعظ بوردالو ، فمثلت تسع عشرة عظة درسها الناشر ، وضبط نصوصها مستفيدًا من المخطوطات الاصلية فكوّن عمله طبعةً مدرسية مستندةً الى مبادئ العلم في الطبعات النقدية.

ويزيد الكتاب قيمة مقدّمة وافية وترجمة حياة للخطيب المشهور ، مع تعليقات وحواشٍ في آخر الكتاب توضح ما قد يظهره النصّ من مشاكل لغوية وبيانية.

MATTEO CONTE DA CORONATA, O.M.C., **Le tiers-ordre franciscain, législation canonique.** Traduction française par le P. A. DE MOLIÈRES, O.M.C. In-8°, 484 pp. Turin, Marietti. Prix : 20 fr.

شركة مار فرنسيس الثالثة

لم نكن نعرف ، حتى اليوم ، عرضاً علمياً للتشريع المختصّ برهبنة مار فرنسيس الثالثة ، على كثرة المنتمين اليها . فقام بهذا العمل مؤلف الكتاب الحاضر ، وهو مَن عرفنا بالمقدرة القانونية واللاهوتية . واذاً فكتابه ثقة يستفيد منه على السواء جميع المنتمين الى الرهبنة المذكورة فيتحققون دقة واجباتهم ، ومديروهم ومرشدوهم فيهتدون بهذا الدليل الامين.

MGR A. BROS, **L'ethnologie religieuse.** Introduction à l'étude comparée des religions. 2ᵉ édition. In-8°, 312 pp. Paris, Bloud et Gay.

في علم السُلالات الدينية

ظهر هذا الكتاب ، لاول مرة ، سنة ١٩٢٣ ، جامعاً محاضرات المؤلف في المعهد الكاثوليكي . وكانت قد نفدت نسخه من مدة . فاعاد المؤلف نظره فيه واخرجه في طبعة متقنة منقّحة . وهو ، وان لم يُغيّر شيئاً في ترتيبه ، ولا في موادّه الاساسية ، تراه قد انتبه لكثير من التعاليق والايضاحات الثنوية ، واضاف ما استفاده من اهم الابحاث العصرية في درس السُلالات البشرية.

والمجلد يبدأ بتحديد هذا الدرس في ما خصّ المظهر الديني ، فيعرض تاريخه ، وهدفه ، فالاشارة الى العلوم المساعدة عليه . ثم يتبسّط في اهمية الملاحظة والمراقبة مشيرًا الى صعوبتها ، ذاكرًا بعض من اشتهروا بهذه الدروس الدقيقة.

بيد ان العالم لا يكتفي بعرض المظاهر وسرد الاحداث . بل يجب عليه ، فوق ذلك ، ان يدرسها ، ويناقشها ، ويأخذ منها ما تنتجه دون ضغط ولا تكلّف . وهكذا دُفع الكاتب الى درس نظريّات المذاهب المهمّة في الموضوع ، كمذهب تيلور (Tylor) في إيلا . كلّ كائن حيّ نفسًا مستقلّة ، ومذهب دوركهيم (Durkheim) في ما دعاه بعلم العمران . فاتى الكتاب مفيدًا لكل من تهمّهم هذه الابحاث ، ولا سيما من كان منهم كالمرسلين على قرب من مراقبة الاحداث الدينية . ج. ل.

. A. Rœogl, Pænitentia salutaris. Que dire à nos pénitents ? In-8°, 368 pp. Mulhouse, Editions Salvator. Prix : 18 fr.

في سبيل التائبين

شاء المؤلف ان يقدّم لملقّي الاعتراف مجموعة من الافكار والاعتبارات والتأمّلات ، صالحة لبثّ روح التقوى والتوبة في قلوب من يتقدّمون الى منابرهم كلّ اسبوع . وهو يتناول هذه الافكار من اناجيل الآحاد والاعياد المهمّة ، ويجمعها في ثلاث او اربع نقاط اساسية . وهكذا كان لكتابه فضل الدليل الى المواعظ ، وفضل الهادي الى التأمّلات الروحية الخاصّة . فنال بذلك ما رمى اليه ، كما نال شكر جميع المستفيدين من عمله.

Au service de Jésus prêtre. T. III, Les œuvres de Dieu. In-8°, XX + 420 pp. Turin, Marietti. Prix : 12 fr.

في خدمة المسيح الكاهن

يجمع هذا المجلد الرسائل المتبادلة بين الامّ كلاريه دي لاتوش (L.-M. Claret de la Touche) ومرشدها الروحي . يتأمل فيها المطالع فيستخرج منها عقيدة حيّة لمحبّة الله الرحيم ، عقيدة تتجلّى في شخصيــة الكاهن وهو اداتها الرسمية العادية واقرب المستفيدين منها.

Missionnaires de Saint-Paul. In-8°, 76 pp. illustrées. Harissa (Liban), Imprimerie de S. Paul.

المرسلون البولسيّون

كرّاس لطيف شائق يرمي الى تعريف المرسلين البولسيين الملكيين، المقيمين في حريصا (لبنان) منذ السنوات الاولى من القرن العشرين، والمنتشرين، في سبيل اعمال الرسالة، في اطراف لبنان وسورية. يفصّل الكرّاس تاريخ نشأتهم، ويعدّد اعمالهم وآثارهم في الارشاد، والتهذيب، ونشر الكتب، وكلّها صالحة جديرة بالتقدير والثناء.

R. Schneider et G. Cohen, **La formation du génie moderne dans l'art de l'Occident.** [Bibliothèque de synthèse historique. L'évolution de l'humanité. H. Berr]. In-8°, 492 pp., 20 pl. Paris, Albin Michel, 1936. Prix : 40 fr.

نشأة الملكة العصرية في فن الغرب

تقدّمَ ظهورَ هذا الكتاب مجلّدٌ من المجموعة نفسها درس مظاهر الفن السامي في القرون الوسطى. ولا يخفى انه في ذاك العهد، عهد الايمان والنظام الإقطاعي، كانت الثقافة تنتشر في مظاهر متنوّعة، حول الكاتدرائية الكبرى. وكان فنّ فرنسة الراقي يفرض طرقه واساليبه على سائر المناطق. حتى كان القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر، وهما موضوع الكتاب الحاضر، فاخذت عناصر الانتقــال تظهر شيئاً فشيئاً بين حضارة القرون الوسطى وحضارة عهد الانبعاث او النهضة. فرأينا، الى جنب آثار الفنّ « القوطي المشعّ »، آخر ازدهارات الحضارة المتوسطة، بوادر فنّ جديد اقرب الى الواقع منه الى التجريد، يتعلّق بالطبيعة وبالانسان خاصّة، ويكاد ينصرف الى الفرد عن المجموع.

ولقد كانت فرنسة الباعثة الاولى لهذا النوع الجديد في الادب وفي الفنّ. على ان الحركة امتدّت سريعاً الى ايطالية، والمانية، والفلاندر، واسبانية، وانكلترة، فاشتركت جميعها بهـذه الروح التي كانت منذئذٍ روح الملكة العصرية. وهكذا كوّن القرنان المذكوران عهد الانتقال الى زمن النهضة التي لم تظهر — كما يخالُ بعض السطحيين — دفعة واحدة، باعثةً فجأة ذاك التجديد في الفنون لدى الامثلة القديمة الخارجة من ارض ايطالية وحدها.

ويجب الّا ننسى ما اتصف به هذا الكتاب من تحليل دقيق تساعده رسوم غاية في الجمال والايجاز .
ر.م.

Hans Hummel und Wulf Siewert, **Der Mittelmeerraum zur Geopolitik eines maritimen Grossraumes.** [*Schriften zur Geopolitik*, Band II] In-8°, 196 pp. avec 36 cartes. Heidelberg-Berlin, Kurt Vowinckel Verlag, 1936.

في اتساع اثر البحر المتوسط

حددت قارات العالم القديم الثلاث هذا البحر المتوسّط ، فجعلته مسرحاً قريباً للمطامع البشرية . قد يفوت الاوقيانوس بعظمته ما يرمي اليه البشر من اهداف ورغبات فيلوي بها خائبة ، ويبعث بهم مخفقين. اما البحر المتوسّط فبشوش الضيافة ، حسن الاستقبال ، بما فيه من جزر عديدة وسواحل متقاربة. فلا عجب ان يكوّن ، منذ القدم ، موضوعاً لهذا العلم الجديد الذي يدعوه الالمان « Geopolitik ».

من الحقّ ان البحر المتوسّط ظلّ مدة طويلة في قبضة دولة واحدة ، فكان بحرًا لاتينيًّا حتى حقّ لرومة ان تدعوه « بحرَها الخاصّ ». اما اليوم فلدينا اثنتان وعشرون دولة تعيش بكاملها ، او بقسم من اراضيها ، على سواحله. وزاد هذا الامر مشاكل فتح ترعة السويس ، فتعددت المطامع المتنازعة اذ اصبح المتوسّط ، فوق ما كان عليه ، ممرًّا مهمًّا الى الشرق الاقصى.

هذه المادّة الغنية كوّنت موضوع الكتاب الحاضر فدرسها المؤلّفان على مختلف مظاهرها، بادئين بدرس طبيعة البلاد الواقعة على شواطئ المتوسّط، مشيرَين الى وحدة الزراعة والحاصلات النباتية ، منتقلَين الى القسم المهم ، وهو القسم السياسي . وفيه يبحثان في شؤون الدول ذات المصالح الكبرى كفرنسة ، وايطالية ، وانكلترة ، ثم يعرضان لبحر ايجه ومشكلة المضايق ، فابواب المتوسّط الشرقية كقناة السويس ، وفلسطين ، وسورية ، واصلين الى جبل طارق في الغرب. يوضح كل ذلك خرائط حسنة متقنة تساعد في تتبع دروس المؤلّفين. ويلتحق بكل فصل جدول بالمصادر والمآخذ . ثم ينتهي الكتاب بآراء في البحر المتوسّط منسوبة الى زعماء الدول ذات المطامع فيه.
ج.ل.

Blanche Daoud Ammoun, **Histoire du Liban.** In-12, 190 pp. illustrées. Beyrouth, Editions Le Jour, 1937. Prix: 15 fr.

تاريخ لبنان

يسرّنا ان نقدّم الى قرّاء « المشرق » باكورة مؤلّفة تُطمعنا من آثارها القيّمة بالشيء الكثير. نشأت الآنسة بلانش داود عمون على حبّ لبنان والاشادة بأمجاده وتقاليده، كما نشأت على احترام العلم الصحيح وتذوّق الفنّ الراقي. واذا بها تجمع هذه المواهب والمكتسبات في هذا الكتاب اللطيف المشعّ حياةً وحركةً. فيهتدي به السائر، بل الرحّالة المسرع في تلك المتاهات التاريخيّة تحفل بها الاحقاب المتراكمة على بلادنا، منذ فجر البشرية حتى المعاهدة الاخيرة. ولا خوف عليه ان يضلّ، وأمامه المؤلّفة ترفده بمعلوماتها الوثيقة، واسلوبها الظريف الوثّاب، وريشتها البليغة، والوانها الرشيقة الزاهية. واذا بمواكب الاجيال من سكّان الكهوف الى الانيوليين الى الفنيقيين، الى زحفات المكتسحين: بابليين، واشوريين وحثّيين، ومصريين، وفرس، ويونان، ورومان، وعرب، ومغول، واكراد وترك، وفرنجة، يستقبلهم لبنان بسهوله الباسمة وصخوره الواجمة المتأمّلة، فيستوقفهم مدّة، ويتمثّل ثقافتهم المتنوّعة مغذّيًا بها شخصيته المتزيدة ابدًا معارف واختبارات، المطلّة دائمًا الى الآفاق البعيدة في الشرق والغرب، الحاملة رسالتها الثقافية العالية فوق تطاحن الجيوش، وتضارب المصالح، وتقيّدات المتعصّبين بالعنصر الفرد والبلد الضيّق.

هذا بعض ما يستفيده اللبناني من تاريخ لبنان، وهذا ما يجب ان يهيب بنا جميعًا الى شكر المؤلّفة، ونشر كتابها اوسع نشر بين الناشئة المثقّفة.

ف ا . ب .

Edmond Rabbath, **Unité syrienne et devenir arabe.** In-12, 412 pp. Paris, Marcel Rivière et C^ie^, 1937.

الوحدة السورية والمصير العربي

في هذا الكتاب الجديد يخصّ المؤلّف، وهو نائب مسيحي في البرلمان السوري، مقدمة « بالنظام السياسي » في سورية ولبنان في عهد الانتداب، وفصلًا بكلّ من « سورية العربية » و« الاستقلال اللبناني »، وانظمة بلاد

العلويين والدروز والاسكندرونة ، « والولايات العربية المتحدة » ، وموقف « الدول من الشرق » . ويختم مناشداً فرنسة بوجوب العمل على تحقيق الوحدة العربية.

ولحسن الحظ ، قد وفّر الكاتب على المنتقدين ، تعب البحث عن مصادر يستندون اليها لتفنيد آرائه . فهو ، للبرهان على وجود امة عربية واحدة يتألف منها سكّان جزيرة العرب وجميع اقطار الضاد ، يقول حرفياً : « ان الاسلام قد سنّ ، في البلاد المتكلّمة العربية ، طرقاً متعادلة في التفكير ، والاحساس ، والحياة . . . لان الاسلام ، اكثر من ايّ دين آخر ، يتعدّى تدبير حياة الافراد الروحية والاخلاقية ، الى علائق هؤلاء بعضهم ببعض ، واجتهادهم العقلي والاجتماعي . » (ص ٥٩) ويزيد ان ابن سعود ، محطّ الآمال « العربية » ، واتباعه « اخوان » نجد : « . . . يحبسون ، بصعوبة ، تديّنهم الجنوني leurs) fureurs puritaines) الممزوج قلبياً بفكر السطوة العربية التقليدي . » (ص ٣٧).

ثم يقول الاستاذ رباط عن لبنان : انه « يرتكز على تناقض وعلى ظلم » . امّا التناقض فلانه يحاول ان يحقّق فكرتين متماكستين : لبنان علماني ، ووطن مسيحي . وامّا الظلم فلانه يضمّ جماعات متمرّدة ، لها عدد وقوة ادبية ، تقدر بها ان توازي ، بسهولة ، الفريق الآخر الذي أُلِّفت لاجله « الدولة » . (ص ١٦٨).

قلنا : امّا التناقض فغير موجود : ان للبنان اسباباً تاريخية وثقافية وعنصرية عديدة ، يقرّ بها المؤلّف ، جعلت لهذه البلاد « شخصية تكوّنت ونمت ، احيتها الحروب واليقظة الدائمة ، وحفظتها الطبيعة الصلبة » (١٤٧).

وقد شاءت الظروف ، وساعد نموّ هذه الشخصية ، ان اكثرية لبنان مسيحية . وهي اكثرية أبعد ما تكون عن الظلم كما يقرّ ثانية الاستاذ المستعرب فيقول : « تجاه سورية ، حيث كانت ، عملياً وبالرغم من تعاليم الاسلام ، حرية الضمير مفقودة ، يظهر لبنان ، منذ بداية تاريخه ، مظهر بلد تمارس فيه ، علناً ودون قيد ولا خطر ، جميع الاديان — انها لشاذّة نادرة نسبةً الى اوروبة نفسها » (ص ١٤٨).

واذا جاز لنا ان نبدي رأياً في التناقض قلنا : ان التناقض بادٍ عند ذاك المسيحي يشيد « بقومية » عربية رابطتها الاولى والاخيرة الدين الاسلامي ، وعند اولئك الراغبين في تكوين وحدة سياسية وطنية مبنيّة على الدين ، في عصرٍ يدّعون التمشي على مدنيّته ، وهي مدنية تفرّق تفريقاً تاماً بين الدين والسياسة.

امّا الظلم فيستدلّ الاستاذ رباط على وجوده بما اطّلع عليه من الاحصاء الاخير : « ٣٦٩،٠٠٠ مسلم تجاه ٤٠٢،٠٠٠ مسيحي من مختلف الطوائف (؟) »

يجدر بنا ان نقف بالكاتب عند هذه الارقام لنفرّق ما فرّقه التاريخ وحاول ان يجمعه هو ، فنجد بين من يسمّيهم « مسلمين » : ١٧٨،٠٠٠ مسلم سني فقط (بناء على احصاء الشيخ محمد المشهور) ، و١٩١،٠٠٠ شيعي ودرزي. ونترك الكلام ، في وصف علاقة الآخرين بلبنان ، الى المؤلف نفسه ؛ قال واصفاً تكوين لبنان الحديث : «... ان الدرزية لم تقدر على البقاء الّا بفرارها من مصر السنيّة ... وان الشيعيين ، بعد مطاردتهم من السهول (السهول السورية السنيّة طبعاً) ، التجأوا الى منعطفات لبنان حتى لا يهلكوا » (ص ١٤٩). وقد برهن الدروز والشيعيون ، في مناسبات عديدة ، على تعلّقهم بهذه البلاد وباستقلالها ، وقد كان لهم قسط وافر في بنائها.

وكان في امكان الاستاذ النائب ان يجد شيئاً من « الظلم » في الكيان السوري ، حيث يعيش دروز ، ونصيريون ، ومسيحيون يربو عددهم على السبعمائة الف . وكلهم اقليّات لم تذق الحلو في الماضي من الاكثرية ، ولم تسكت عن الحالة الحاضرة الّا املاً بوعود فرنسة ، وهي اشدّ ما تكون اليوم قلقاً على مصيرها . لاسيا وهي تشاهد ما شهد به المؤلف ، تلك الاكثرية تتجه اتجاهاً دينياً في السياسة ، وتريد ان تؤلف دولة « عربية » ، اي اسلامية ، لا يعلم غير الله ماذا ينتظر « الغير المؤمن » فيها.

ويزيد الاستاذ ربّاط ، على هذا التناقض الدائم في تأليفه ، تلاعباً بالالفاظ وبالتاريخ .

فهو يتّخذ مثلاً نظرية جدّ موافقة له فيقول ان جميع الساميّين قد اتوا

من جزيرة العرب . واذا اخفق في البرهان عن « عروبة » لبنان يقول متعزّياً : «سواء أكان ارامياً، او فنيقياً ، او فلسطينياً، او عبرياً، فان اصل الذرية القديم سامي اي عربي » . . . (ص ٧٣) . ولكن المؤلف لا يقول ان جميع الشعوب ، التي خرجت من جزيرة العرب ، من جنس واحد — اذا افترضنا ان نظريته صحيحة . وعلى هذا النمط يتكلم عن الحدود التاريخية بين سورية ولبنان محاولاً ان يقلل من قيمة براهين اللبنانيين التاريخية بالاستناد الى مؤلفين حديثين مثل ندرا مطران.

لذلك نجد كتابه متفاوت القيمة ما بين اقسامه . فالى جانب بعض الفصول الصادقة ، يجمع الاستاذ رباط فصولاً لم يرتفع فيها عن مستوى بيانات « المجلس الاسلامي الاعلى في بيروت » ، ومقامها من العلم والمنطق معروف.

ن . د .

Ansâb Al-Ashrâf of Al-Balâdhuri, published for the first time by the School of Oriental Studies, Hebrew University, Jerusalem. Vol. V edited by S. D. F. Goitein. In-8°, 507+94 pp. At the University Press, Jerusalem, 1936.

انساب الاشراف للبلاذري : الجزء الخامس

عند ضريح لڤي بليغ (Levi Billig) ، مدرّس العربية في جامعة اورشليم العبرية ، المقتول في حوادث الثورة الفلسطينية ، في ٢٥ آب ١٩٣٦ ، وضع السيد غويتين (S. D. F. Goitein) كتاب انساب الاشراف للبلاذري ، ذكرى للفقيد ، فابرزه كالراية البيضاء في جو العلم الصافي ، بعيداً عن مشاحنات السياسة ، فخدم العرب وتاريخهم.

درس الناشر نسخة الكتاب الوحيدة على ما فيها من خطأ وتصحيف ، وذهب يقوّم معوّجها بالمقابلة بينها وبين المصادر الادبية والتاريخية التي استند اليها البلاذري . وكلما وجد في المصادر القديمة ما يوافق نصّ كتاب انساب الاشراف ، ذكر ذلك الموضع في تعاليقه . فكان جهده مخصباً في تقدير اتصال المتن بالسند ، وتعريف قيمة التعليمات التاريخية ، فاذا رواها شاهد عيان اثبتها بحجة اولى مما لو كان السند بعيداً بمراحل عن زمان وقوع الحادث ومكانه . وقسم الكتاب

قسمين : نشر في الاول منها مقدّمة باللغتين العبرية والعربية (٢٧ ص) . ثم اخذ بنشر المتن العربي (٤٣٩ ص) واضعاً في ذيله فهارس ابجدية للاعلام والاماكن والأمم . واخيراً وضع مقدّمة باللغة الانكليزية (٣٨ ص) . اما القسم الثاني ففيه لائحة المراجع والاصطلاحات ، والتصليحات ، والتعاليق (٨٨ ص) .

ان المؤرخين البيزنطيين يربطون الحوادث بتتابع السنين، والمؤرخين الساسانيين يربطونها بتعاقب الحكام . اما البلاذري فقد اخذ من العصبية العربية مادة الصلة في سرد الاخبار . وذلك لان مركز الجد في الاسرة العربية كالارومة من الشجرة منها تتفرّع الجذوع والاغصان . ومهمة المؤرخ العربي هي ان يلفت النظر الى تسرّب السلطة من الجد الى احفاده . وفي الامر الواقع كان شأن الخلافة المتسلسل من عثمان الى ابن عمه مروان بن الحكم داعياً بالبلاذري الى تدوين اخبار مروان بعد عثمان كما جاء في هذا الجزء الخامس .

لقد قرأناه واعدنا قراءته في مواضع كثيرة . ولم نتمالك الاعجاب بصبر الناشر على العقبات التي اعترضت طريقه في ضبط القراءات وقد وفق فيها ، الا في النادر .

واشتهر البلاذري في اختصاره وهذا الاختصار يصلح في التاريخ على ان لا ينتج الغموض والابهام . واليك اهم عناوين الجزء الخامس :

عثمان بن عفان : سيرته ، بيعته وما أنكر عليه ، وسبب قتله — ولد عثمان — مروان بن الحكم وخبر مرج راهط ويوم الربذة — عبد الملك بن مروان — امر عبدالله بن الزبير في ايام مروان وعبد الملك — امر المختار بن ابي عبيد الثقفي وقصصه — اخبار مصعب بن الزبير . اما الجزء الرابع فهو قيد الطبع .

ف . ت .

Abou-Bekr Abdesselam, Dictionnaire arabe-français des termes juridiques et dogmatiques. In-12, 273 pp. Beyrouth, Impr. Catholique, 1935-1937.

معجم عربي – فرنسوي بالالفاظ الشرعية والقانونية

مؤلّف الكتاب من اساتذة الشريعة في مدرسة تلمسان . عانى ما يعانيه كلّ مشتغل بهذه الأبحاث من صعوبة نقلها من العربية الى الفرنسوية وبالعكس ، على

الحاجة الى هذه النقوّل يوماً فيوماً ، وقد اخذت الثقافتان العربية والفرنسوية تتفاعلان وتتساندان ، ولا سيا في بلاد المغرب. فقاده الشعور بالحاجة الى التفتيش والدرس. واذا به ينشر هذا المعجم القيّم جامعاً فيه كلّ ما يطلبه دارس الشرع الإسلامي،بل دارس التاريخ العربي ايضاً،لأننا نرى،الى جنب المفردات الشرعية على تنوّع مظاهرها، مفردات تاريخية واجتماعية تتعلق باحوال العرب قبل الإسلام وبعده، وتنبسط على الكثير من مناحي تفكيرهم ومظاهر عاداتهم وتقاليدهم.
فأتى بالفائدة الجمّة، واستحقّ الشكرَ الجزيل. ف٠١٠ب٠

ZALOZIECKY, Die Sophienkirche in Konstantinopel... [*Studi di Antichità cristiana, Pontif. Ist. di arch. crist.*, XII]. In-8°, 271 pp.; album de 24 pl. Rome et Freiburg i. B., Pont. Ist. et Herder, 1936.

كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية

هذا بحثٌ قيّم في كنيسة القديسة صوفيا الكبرى التي بناها الامبراطور يوستنيانوس في القسطنطينية ، يظهر في حينه ، وقد باشر المعهد البيزنطي الاميركي جلاء فسيفساء الهيكل ، بعد ان حُوّل من جامع اسلامي الى متحف للاثريات.

يهتمّ المؤلف بدرس هندسة الأثر خاصة ، فيصف خارجه اولاً ، ثم يعدّد مزايا الداخل الفارقة . ويقوم بعد ذلك بمقابلة شاملة بين عناصر البناء المهمّة في الكنيسة المذكورة وما يقابلها في البنايات الرومانية الراقية الى اواخر عهد الامبراطورية ، والتي اكتشفت آثارها في الولايات الشرقية والغربية . وفي هذا القسم ينشر المؤلف ويدرس كثيراً من تصميمات الكنائس السورية. اما النتيجة فهي ان هندسة القديسة صوفيا لم تستوحِ الطريقة الشرقية ، كما كان يؤكد ستزيغوفسكي سنة ١٩١٠ ، زاعماً ان كل بناء مقبّب يرقى الى فكرة مأخوذة عن هندسة ما بين النهرين . يستنتج المؤلف رأيه المذكور مشيراً الى ان القباب الشامخة في كنيسة القديسة صوفيا ليست الّا توسّعاً في فن هندسي برزت مظاهره الاولى في حمّامات پومپيي الرومانية ،وفي غيرها من الآثار التي لا شك في رومانيتها.
وهنا يجب ان نشير الى انه بينما كان كتاب الاستاذ زالوزيكي لا يزال تحت الطبع ، قام عالمٌ آخر هو الاستاذ سيلدمَير (H. Seldmayr) فنسب الى هندسة الحنايا والاروقة الرومانية ، والى تصميم المظالّ الغربية كذلك ، ما امتازت به

الكنيسة المذكورة من مزايا فارقة في هذا المظهر.

ويظهر المؤلف على حقّ عندما يرى في قصر الاندرين آثاراً بيزنطية خالصة في الهندسة والاستيحاء. وكذلك قد يمكننا القول عن نتائج الحفريات المجرّبة اخيراً في كاتدرائية بُصرى، والتي لا يبعد ان تدلّ على امثلة غربية قديمة.

ر. م.

A. Christensen, **L'Iran sous les Sassanides.** Gr. in-8°, 559 pp., 1 carte, 59 fig. Copenhague, Levin et Munksgaard, 1936. Prix : 26 Kr.

إيران في عهد الساسانيين

ليس هذا الكتاب طبعة جديدة للمؤلَّف النفيس الذي نشره قديماً الاستاذ كريستنسن، مدرّس علم اللغة الايرانية في جامعة كوبنهاغ. انما هو كتاب حديث رتّب فيه المؤلف كل ما يُعرف عن اهمّ ملوك الساسانيين، بفضل المكتشفات والابحاث المتتابعة منذ ثلاثين سنة الى اليوم. واهم الاسانيد رقمُ بَيكولي، والآثار المانوية المكتشفة في آسية الوسطى او المترجمة عن القبطية، وأبحاث الاختصاصيين في الأفستا، وزرادشت (الذي عاش في رأي كريستنسن في القرن السابع ق. م.) وفي الحركة المزدكية (التي كثيراً ما خلط مؤلفو العرب بين منشئها مزدك، وزرادشت) وفي الانظمة الدينية، والعسكرية، والادارية على عهد اوائل الساسانيين، ولاسيما كسرى الكبير. كل هذا يتناوله المؤلف ويناقشه، ويستفيض في بحثه النفيس. كما يستغلّ عدداً من الصور، يأخذها على الغالب من مجموعات سار (Sarre) او هرزفلد (Herzfeld) فيشرحها جالياً لنا بواسطتها رسوم الملوك المحفورة على قطع النقود، وحفلات التتويج، وكثيراً من مشاهد الانتصار والصيد.

ويجب ان نشير الى ما يهمّ المشتغلين بالادب العربي خاصّة. وذلك باطلاعهم على اسلوب المؤلف في الاستفادة من الاصول العربية كتاريخ الطبري، وبوقوفهم على ما يبذل من عناية في درس اصول «كليلة ودمنة» الذي نقله الى البهلوية الطبيب برزُويه عن مجموعة من الامثال الهندية القديمة تُدعى، باللغة السنسكريتية، بانشاتنترا (ص ٤٢٤).

ر. م.

Mohamed Madi, Jahja b. al-Husain b. al-Mu'ajjad al-Jamanī's « Anbā' az-Zaman fī Ahbār al-Jaman ». [*Studien zur Geschichte und Kultur des islamischen Orients*, Heft IX]. In-8°, 32+80 pp. Berlin-Leipzig, de Gruyter et C°, 1936.

انباء الزمن في اخبار اليمن

هو القسم الأول من هذا التاريخ الجليل تناول اخبار مدة ٤٢ سنة (٢٨٠-٣٢٢ هـ = ٧٩٣-٩٣٤ م) حافلة بالاحداث الدينية والسياسية في العالم الإسلامي ، من دعوة الامام الهادي وحروبه في اليمن ، الى ثورات القرامطة وغزوهم مكة واحتمالهم الحجر الأسود الى هجر ، الى ظهور دعوة عبيدالله المهدي في اليمن وفي المغرب ، الى مظاهر الضعف في الخلافة العباسية وظهور دولة بني بويه . كل ذلك على شيء قليل من التفصيل . يزيده قيمة ما علّق عليه الناشر ، الاستاذ محمد عبدالله ماضي ، من الحواشي وما اردفه به من الفهارس ، وما قدّم عليه من مقدمة في المصادر التاريخية ، وفي احوال الخلافة العباسية ، والدولة الزيدية في اليمن ، ثم في النصّ المطبوع وشروحه. ف . ا . ب .

Actes de la Conférence de Montreux concernant le régime des Détroits (22 juin - 20 juillet 1936). Compte-rendu des séances plénières et procès-verbal des débats du Comité Technique. Genève, Société des Nations, octobre 1936. In-folio. Prix : 65 frs. fr.

اعمال موءتمر مونترو الخاصّ بشأن المضايق

مونترو مدينة صغيرة على شاطيء بحيرة ليمان شهيرة بطيب مناخها ، ومن يقصدها ، زمن الصيف ، من طلّاب الراحة والهدوء . ولقد كان من هوءلاء بعض السياسيين عقدوا فيها ، في الصيف الماضي ، اجتماعات مهمة دامت شهرا كاملا من ٢٢ حزيران الى ٢٠ تموز ١٩٣٦ . وكان الداعي الى هذا الموءتمر حكومة الجمهورية التركية ، فسهّلت على ارباب السياسة المجتمعين البحث والمناقشة في كثير من المشاكل ، فخرجوا منها ، بعد كثير من الاجتماعات العامة والمحاورات الخاصّة ، الى اتخاذ عدد من القرارات عُرفت « باعمال مونترو » فوقّعوا عليها مساء ٢٠ تموز ١٩٣٦ .

وقد دُوّنت تفاصيل تلك الاجتماعات في تقارير الجلسات العامة ومحاضر

اللجنة الفنية الخاصة. وها هي تظهر الآن بالطبع بعناية جمعية الأمم، فيسهل على من يهتم الامر، الوقوف عليها كاملةً. ج. ل.

Gonzague de Reynold, **Portugal**. In-12, 348 pp. Paris, Spes. Prix : 18 fr.

البرتغال

صاحب المؤلف من كبار كتّاب سويسرة دعاه اصدقاؤه في البرتغال لزيارة بلادهم، فاغتنمها فرصةً يدرس فيها الشعب والبيئة، ويطّلع على مظاهر التقدّم منذ السنة ١٩٢٦، وفيها تخلّصت البرتغال من قبضة الضغط الماسوني. فاتى بكتاب يرتفع كثيرًا عن ذاك النوع من الرحلات يكتبها الصحفيون سطحية ظريفة، الى محيط الدرس العلمي والنظر الشامل. استعدّ لسفره بدرس تاريخ البلاد وجغرافيتها. ثم قام برحلته على طريق بعيدة كل البعد عن الخطّ المستقيم، ولكنها منظّمة. فامكنه ان يرى، ويدرس، ويقابل، ويحكم، واضعاً هدفه الاساسي بلاد البرتغال، متجاوزها احياناً الى مقاطعة بروڤنسة الفرنساوية، والى بلاد اسبانية.

كانت البرتغال، منذ السنة ١٩١٠، تئنّ تحت نير جمهورية ماسونيّة، فتسلسل محاولة التخلّص. حتى كانت السنة ١٩٢٦، فتخلّصت بقيادة ثلاثة من كبار رجالها اشهرهم سَلازار المولود سنة ١٨٨٩. كان سلازار استاذًا في جامعة كايمبرة عندما عُهِد اليه بادارة الشؤون المالية المتداعية الى الانهيار والافلاس. فطلب من حكومته السلطة المطلقة في تلك الدائرة، وعندما نالها اقبل على العمل. ولم تمض بضعة اشهر حتى اعاد للحالة المالية نظامها وسيرها الطبيعي. وفي السنة ١٩٣٣ اصبح رئيساً للوزارة فشمل باهتمامه دوائر الدولة بكاملها. وها هي تتقدّم اليوم الى الاستقرار والرقي في جميع مناحي الحياة. ج. ل.

J. Catry, **Le fascisme de la libre pensée**. In-12, 69 pp. Paris, Spes. Prix : 3 fr.50.

فاشستية الفكرة الحرّة

يرى المطالع في هذا الكتاب موجزًا واضحاً دقيقاً لكل ما يتعلق بحرّية التفكير او بالفكرة الحرّة من حيث كونها حركةً سائرة. يدرس المؤلف تاريخها،

ومظاهرها المتنوّعة وتأثيرها في الشعوب ، حتى لقد ينسب اليها كل الحركات الثورية في عالمنا الحاضر، مهما يكن من متنوّع غاياتها واختلاف البلدان الناشبة فيها . والغريب ان جميع الثورتين يتكلّمون الكلام نفسه ، مستخدمين التعابير ذاتها ، معتقدين انهم جاؤوا في الدقيقة الحرجة والزمن الموافق. على ان الزمن الموافق يهرب سريعاً تاركاً الثورة تفترس ابناءها . . . ج. ل.

M. Rat, **Anthologie des poètes latins.** [*Classiques Garnier*]. 2 vol. in-16, 748 et 680 pp. Paris, Garnier Frères, 1937. Prix : 25 fr. le vol.

منتخبات من آثار الشعراء اللاتين

لم يكن في متناول القرّاء الفرنسويين ما يقوم لديهم مقام مجموعة « لوب » (Loeb) الانكليزية التي تسهّل على ابناء انكلترة ان يقرأوا ، في لغتهم ، اشهر آثار المؤلفين القدماء . حتى قامت مكتبة گارنيه فسدّت الخلل بهذا المجلّد الجميل الحاوي منتخبات قيّمة من آثار ٦٨ شاعرًا لاتينيًا منذ اقدم العصور حتى القرن السادس بعد المسيح . ومنهم من لم يكن قد تُرجم قطّ الى الفرنسوية . وقد تولّى صاحب المجموعة ، الاستاذ موريس را ، اظهارها على افضل ما يمكن ، موزّعاً الصفحات بحسب اهمية الشعراء ، منتخباً النصوص القديمة وَفقاً لأدق الطبعات ، ملحقاً بها ترجمته الخاصة . وهي أثر غاية في الدقة والضبط . ر. م.

Mario Meunier, **Apollonius de Tyane.** In-8°, 2[illegible] pp. Paris Bernard Grasset. Prix : 30 fr.

أفولونيوس

عُرف المؤلّف بعدة ترجمات جديدة لآثار الكتبة اليونان اخرجها حافلة بالمقدّمات والشروح . وها هو يتحفنا اليوم بكتاب عن افولونيوس ، مستندًا الى ترجمة حياته الشعرية التي خطّها فيلوستراتوس . وغايته ان يقرّب من الاحتمال تلك الاسطورة في حياة أحد ممثّلي الحكمة القديمة المتأخرين ، فيلقي نورًا جديدًا على عقائد العالم الوثني في القرن الثالث للمسيح ، وعلى آرائه ، وعاداته ، وطرق معيشته . وقد قدّم على الترجمة مقدّمة في ٢٣ صفحة تعرض لكل ما يثيره اسم افولونيوس من مشاكل ومناقشات . ج. ل.

ALBERT CONDAMIN, S. J., **Voltaire, le « Grand Homme » de M. Albert Bayet.** In-12, 107 pp. Paris, Spes, 1936. Prix : 5 fr.

ڤولتير

لا تمرّ بنا حقبة من الزمن الّا ويقوم بعض الادباء والنقّاد فيعلقون باحد مفكّري الماضين، ويعرضونه على الجمهور بمظهر جديد. هذا ما يصيب ڤولتير من وقت الى آخر. وقد رأى المؤلّف ان يقدره حقّ قدره فيردّه الى مركزه، منزلًا اياه عن تلك المرتبة المنتصبة التي رفعه اليها بعض المتهوّسين المتعصّبين او السطحيين من ارباب البحث الادبي، ومنهم البر بايه، فقال ان ڤولتير: « من عظام الرجال لأنـه عمل، وجاهد، وتعذّب في سبيل صلاح الانسانية، وفي سبيل السهولة والانصاف في الحياة ».

هـذا ما اثار حبّ المؤلّف للانصاف، فأقبل يدرس حياة ڤولتير واخلاقه واعماله بدقّة ما وراءها دقة، وتتبّع بفرض جلدًا عظيماً، مظهرًا في عشرة فصول ايّ فرق يجب ان نقرّ دائمًا بين كاتب كبير ورجل عظيم، واية عظمة في من عاش حياةً مزدوجةً مكتنفة بالكذب والرياء وما يتفرّع عنهما من مساوىء حاطّة مخجلة. كل ذلك باسلوب منطقي صادم ولهجة قويّة تفرض الكتاب فرضًا على المطالعين دون شكّ. ج. ل.

RENÉ BAZIN, **Etapes de ma vie** Extraits de ses Notes Intimes. Paris, Calmann-Lévy. Prix : 12 fr.

من مراحل حياتي

كتاب نفيس جامع بين المذكّرات واليوميات الخاصة. فيه من المذكّرات تلك الاحاديث العديدة الشائقة التي جرت بين الكاتب والكثيرين من مشاهير عصره في السياسة والأدب والفنّ. وفيه من اليوميّات الخاصّة تلك الميول والنزعات الروحية الظاهرة في تأمّلات الكاثوليكي العميقة وآرائه السامية في العالم وخالقه، وفي نفسه هو وسلوكه الخاص.

تبدأ الصفحات الاولى من هذه المراحل بالسنة ١٨٨٦. وكان بازن قد نشر قصّته الاولى، واتجه زائرًا هنري لاڤدان، مدير مجلّة « المراسل »، اذ ذاك. فحوّله لاڤدان الى زيارة هاليڤي... وهنا بدأت رحلة اولى في اوساط باريس الادبية،

عاد منها المؤلف بكثير من الرسوم الدقيقة يمتّز بهـا محدثيه وما يحيط بهم ، وكأنه يحفظ ذاك الجوّ الخاص بالمحادثة المقصودة، فلا يطالعه القارئ، بعد مرور السنوات ، الّا ويؤلف لنفسه ، في صورة رائعة حيّة ، خطوط المشهد القديم الذي نقله الكاتب. وهكذا ترك لنا بازَن صفحات دائمة حافلة بأحكام دقيقة عـلى پيير لوتي ، واناطول فرانس ، وجول لوميتر ، وخوسي-ماريا دي هيريديا ، وجول كامبون ، والمرشال فوش. . . وغيرهم ممّن اختلط بهم وناقشهم في المنتديات الادبية كالأكادمية ، والمجتمعات السياسية ، و « الصالونات » الخاصة.

وكان ممّا يولم بازَن الكاثوليكي الحيّ الايمان تلك الحملات التي قام بها رجال السلطة العلمانية على الرهبان والراهبات ، زمن فصل الكنيسة عن الدولة. فكان المؤلف يشهد مظاهر الظلم هذه فيتألم في وداعته الفطرية ، ولكنه لا يدع فرصة الّا ويظهر فيها جرأته واندفاعه في سبيل الذود عن اعزّ الأمور لديه. وكثيرًا ما حمي النقاش بينه وبين خصومه كلاون بورجوا ، وادوار هريو ، وغيرهما من رجال الثورة والشيوعية.

والخلاصة ان هذه المراحل تأتينا بموادّ جليلة في تاريخ الحقبة الاخيرة من زمننا هذا ، مرافقةً الاوساط الادبية والسياسية العالية في فرنسة مـدة نصف قرن ، صابغةً كل ذلك بلونٍ فائق من سموّ الاخلاق ، وصحة الايمان ، والاخلاص في سبيل المبدأ السامي. ذاك الإخلاص الذي رافق المؤلف طول حياته ، حتى اذا شعر بقرب الرحيل ، صاح بل، قوته: « بين يديك ، يا الهي، استودع روحي ! »

Chateaubriand, Les Martyrs. Avec introduction, variantes du manuscrit autographe et des premières éditions, notes critiques par Victor Giraud. [*Classiques Garnier*]. In-12, 594 pp. Paris, Garnier Frères. Prix : 9 fr.

الشهداء

طبعة متقنة كل الإتقان قام بها نقّاد معروف ، فاتى يشاهد جديد على اهتمام مكتبة گارنيه بهذه الآثار المدرسية الفرنسوية. ولا شكّ في ان رواج الكتاب يأتي على قدر اتقانه ، فيُقبل عليه لا الطلّاب وحدهم ، بل كل من شاء ان يدرس

شاتوبريان في آثاره على اسلم طريق واهون سبيل. فيرى في المقدمة كلّ ما تهم معرفته عن الكاتب، كما يرى في التعاليق، واختلافات النصوص وضبطها، ما يسهّل عليه درس الكتاب.

F. Brunot et Ch. Bruneau, **Précis de grammaire historique de la langue française.** Nouvelle édition revue et corrigée. Paris, Masson et C^ie^. Prix : 60 fr.

غراماطيق تاريخي للغة الفرنسوية

ترقى الطبعة الاولى من هذا الكتاب الى قبل خمسين سنة. فوجب من ثمّ ان تُعاد منقّحة ومزيدًا عليها. فأُعيدت على غاية الاتقان حتى ظهرت كأنها كتاب جديد. ولا تخفى فائدته للطلّاب الفرنسويين وغيرهم من دارسي اللغة الفرنسوية، اذ يطّلعون فيه على تطوّر المفردات والتعابير عصرًا فعصرًا. وهي من افضل الطرق للدرس اللغوي.

G. K. Chesterton, **La Sphère et la Croix.** Roman traduit de l'anglais par Charles Grolleau. In-16, 400 pp. [Collection « *Intermède* »]. Paris, Desclée de Brouwer, 1937. Prix : 12 fr.

الكرة والصليب

رواية عجيبة غريبة للقصصي الانكليزي الأشهر ج. ك. شسترتون، تناول فيها النزاع الدائم بين العلم السطحي والايمان العميق. وقد رمز الى الأول بالكرة مثال « الاستقرار الهندسي »، والى الثاني بالصليب. واخذ يعدّد المشاهد والمشاكل والعقبات دائرةً كلّها حول رجلين: تورنبول الكافر المتغذّي بأساليب « العلم » العصري، صاحب جريدة « المُلحد » في لندن؛ ومَكيان الكاثوليكي المؤمن المتمسّك بعقائد آبائه واجداده في اسكتلندة. يقف مَكيان أمام ادارة الجريدة الملحدة فيلفت نظره ما على الواجهة الزجاجية من كتابة كفرية. فلا يتردّد لحظة في انزال القصاص بالكافر، واذا بزجاج الواجهة يتطاير تحت نبوته، واذا به يطلب الملحد الى البراز، فيقبل برباطة جأش. على ان البراز ممنوع في انكلترة. وهنا تبتدئ رحلات الخصمين في اطراف بلادهم برًّا وبحرًا، هاربَين من وجه النظام المرعي، مفتّشَين عن مقرّ أمين يمكنهما فيه ان يتبارزا في سبيل

الله » والعلم » . وهما لا يحملان الّا سيفين ، وما يكفيها الجوع والعطش .
ومن السهل ان يتصوّر المطالع ما تولّده مخيلة شسترتون العجيبة من عقبات ومشاكل يضعها في سبيل الرجلين ، وما يثيره من احاديث علمية ، ولاهوتية ، وفلسفية ، واجتماعية ، بين الخصم وخصمه ، وبينهما وبين من يلتقيان به من رجال ونساء من مختلف طبقات المجتمع . حتى يؤدي بهما المسير المضنك بعد الايام ، والاسابيع ، والاشهر ، الى حديقة ساكنة يحيط بها سور عالٍ ، فيختالان في تسوّره مطمئنَّين الى انهما سوف يتمكنان من حسم ذاك الخصام الدائم . واذا بهما في مستشفى للمجانين يجدان فيه كل مَن عرفاه وصادفاه في رحلاتهما المتواصلة . واذا بتلك المؤسسة من آثار ابليس ورجاله يجمعون فيها كلّ من يتحدّث بالخلاف بين الله والعلم ، او بين الصليب والكرة ، على انهم مجانين . وسبب ذلك انه لا وجود لله ولا تاريخ للصليب في نظر ابليس ورجاله ، مديري تلك المؤسسة .

وكانت مصاحبة الخصمَين القسريّة ، واشتراكهما في الهرب من وجه النظام البوليسي ، وتعاونهما على الحياة ، ومناقشاتهما الدائمة ، قد عملت شيئاً فشيئاً على التقريب بين عقليّتيهما المتباينتَين . واذا بكل منهما يشعر بالميل الى الآخر شعوره بوجوب مبارزته في سبيل العقيدة السامية . وكان في الظواهر الحيويّة المتتابعة في هذا الكون ما يعجز « العلم » عن شرحه ؛ فيقف تورنبول واجماً في تأمله ، بينا يظهر مَكيان مطمئناً ، في كل ذلك ، الى العناية الالهية وتدبيرها شؤون الكون على افضل ما تراه موافقاً لخير الانسانية . وهكذا أخذت مُدّعيات « العلم » تتضاءل شيئاً فشيئاً ؛ حتى اذا احترق مستشفى المجانين بكل ما فيه من ادوات وآلات مرتّبة وموقّعة على احدث الاساليب الميكانيكية ، لم يبق في رماده المتكاثف الّا سيفا تورنبول ومَكيان ، وقد تعارضا صدفةً على شكل « الصليب » .

كل هذا يشعّ حياةً وثّابة ، وحركة دائمة حافلة بظرف شسترتون المتهكّم ، ونقداته اللاذعة ؛ مما يجعل الكتاب من اروع والذّ ما يُقرأ ، على طوله ، وعلى ما تضمّنه من الافكار والنظريات الدقيقة الصحيحة .

ف . ا . ب .

كتاب الاغاني

تأليف ابي الفرج الاصبهاني

الجزء الثامن : ٤٦٤ ص. — الجزء التاسع : ٤٤٠ ص. بقطع الربع
القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ و١٩٣٦

وصف « المشرق » الاجزاء السابقة من هذا الكتاب النفيس ، حال ظهورها ، واجتهد في الدلالة على ما في هـذه الطبعة الجديدة من محاسن ظاهرة تنمّ عن عناية بالغة واهتمام جدير بالثناء . وها ان اللجنة ماضية في عملها حتى النهاية ، ان شاء الله. وقد اتحفتنا مؤخرًا بالجزءين الثامن والتاسع من مجموعة قد تبلغ الثلاثة والعشرين او الاربعة والعشرين جزءًا ، اذا اعتبرنا نسبة الاجزاء الظاهرة حتى الآن الى الاجزاء المطبوعة قديمًا في بولاق ، وهذا الجزء التاسع الحاضر ينتهي بآخر الثامن القديم . بيدَ ان الطابعين تلافوا الضرر الذي قد ينشأ من الاختلاف في تقسيم الاجزاء بين الطبعتين ، فوضعوا ، بناء على ملاحظة الاب صالحاني ، اشارة على هوامش الطبعة الجديدة تشير الى صفحات الطبعة السابقة .

اما الجزءان الحاضران فيحويان موادّ مهمّة في تاريخ الادب العربي . من ذلك ، في الجزء الثامن ، اخبار جرير ، وجميل بن مَعْمَر ، ويزيد بن الطَّثْرِيّة ، وعنترة ، والاخطل[1] ، والعبَّاس بن الاحنف . واخبار عدد من المغنين والمغنيات كسائب خاثر ، والبُرْدان ، وجميلة ، وسلاّمة القَسّ ، وجرادتَي عبد الله بن جدعان وغيرهم. ويحتوي الجزء التاسع على اخبار كثيِّر عَزَّة ، وعبيدالله بن عبدالله ابن طاهر ، ومسافر بن ابي عمرو ، وامرئ القيس ، والأعشى الأكبر ، والشمّاخ ابن ضرار ، وقيس بن ذَرِيح ، وعديّ بن الرقاع ، والأُقَيْشِر بن رميلة ، وبعض اخبار الفرزدق ، من الشعراء . وعلى شيء من اخبار معبد وابن سريج وغيرهما من

١) نشير ، بشأن الاخطل ، الى ان ناشري الطبعة ضبطوا اسم احد جدود الشاعر «غُنم» ، بضمّ اوله (٨ : ٢٨٠ ؛) . والصواب « غَنم » بالفتح ، كما في نسخة بطرسبرج الأصلية ، والنسخة الاخيرة المكتشفة في طهران . وكان الاب صالحاني قد طبع «غُنم» كذلك في اول صفحة من ديوان الأخطل ، لكنه عاد فاصلحها في الملحق : وجاء في لسان العرب (١٥ : ٣٤٢) : « بنو غَنم قبيلة من تغلب ».

المغنين . وعلى فصل تيم في اغاني الخلفاء ، واولادهم ، واولاد اولادهم ، من الوليد بن يزيد الى الواثق .

وينتهي كل من المجلدين بالفهارس المعتادة الواسعة للتراجم ، والشعراء ، والمغنين ، ورجال السند ، ورواة الألحان ، والأعلام ، والأمم والقبائل والأرهاط والعشائر ، والأماكن ، والكتب ، والقوافي ، وانصاف الابيات ، والأمثال ، والموضوعات .

هذا ولا بدّ ، اذا ما انتهى طبع الكتاب كلّه ، من اعادة النظر في هذه الفهارس وجمعها كلّها في مجلّد واحد ، وان ضخماً ، تسهيلاً على طلّاب المعلومات وضنّاً بوقتهم . ولا شك في ان اللجنة راغبة في هذا التسهيل ، ان شاء الله .

ف . ا . ب .

فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية

تأليف عيسى السفري

٢٨٠ + ٢٠٠ ص . متوسطة – يافا ، مكتبة فلسطين الجديدة ، ١٩٣٧ – الثمن : ٣٠٠ ل

لقد دخلت فلسطين مسرح الحياة العالمية دخولاً دامياً في اوائل الصيف الماضي ، فلفتت اليها انظار اقطاب السياسة في الشرق والغرب ، لما اثارته اضطراباتها من مشاكل بين العرب واليهود ، وبينهما وبين الانكليز . فكانت فرصة للوطنيين من العرب ليعيدوا الكرة بمطاليبهم ، ويبرزوا وثائقهم ومستنداتهم ، وكانت فرصة للحكومة الانكليزية لتعيد النظر في مقرراتها وتدابيرها . ومن ثمّ كثرت المقالات والتآليف مختلفة باختلاف النزعات . وقد اشرنا في الجزء الماضي الى ما جمعه الاستاذ وديع البستاني من حجج وحقائق ووثائق في سبيل حلّ المشكلة الفلسطينية بعنوان « الانتداب الفلسطيني باطل ومحال » . وها اننا نشير اليوم الى هذا السفر الجديد يشمل تاريخ القضية الفلسطينية منذ الاحتلال البريطاني (كانون الاول ١٩١٧) حتى مجيء اللجنة الملكية (تشرين الثاني ١٩٣٦) موزّعة مواده في كتابين جمع الأول منهما ملخّص التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الطارئة على فلسطين منذ اعلان الثورة العربية الشهيرة بقيادة الامير فيصل ، الى نشوب ثورة فلسطين الخاصة في ١٩ نيسان ١٩٣٦ ،

مفصلًا ماكان بين ذلك من حركات عربية وصهيونية ، ومشاريع ، وتشكيلات ومؤتمرات ، واحتجاجات ، ولجان درس ، وتقارير ضافية كوّنت إضبارة ضخمة في تاريخ القضية الفلسطينية. اما الكتاب الثاني فيحتوي على وصف الاضطرابات منذ ١٩ نيسان ١٩٣٦ حتى وصول اللجنة الملكية ، مفصلًا « دقائق الثورة وتطوراتها خلال ستة اشهر الإضراب ، مع ذكر المعارك الهامة ، وحوادث المظاهرات ، وهدم الجسور ، وتخريب الخطوط الحديدية ، وقلب القطارات ، وقطع أسلاك البرق والتلفون ، والاغتيالات ونسف البيوت ، وفرض الغرامات الخ . . . بطريقة جذّابة ، ووصف حقيقي رائع ».

والخلاصة ان الكتاب « يكاد يكون سجلًا جامعاً للقضية الفلسطينية في عشرين عاماً » ، على قول الحاج امين الحسيني ، كاتب المقدمة. ولا شكّ في ان المشروع الجديد بتقسيم فلسطين سيُتيح للمؤلّف اصدار ملحق شائق لهذا الكتاب الجامع . ف. ا. ب.

ادباء العرب

تأليف بطرس البستاني

الجزء الثاني : في الأعصر العباسية — ٤٨٠ ص . متوسطة

الجزء الثالث : في الاندلس وعصر الانبعاث — ٣٥٠ ص . متوسطة

بيروت ، مكتبة صادر ، ١٩٣٤ و١٩٣٧

تقدّم لنا كلام (المشرق ٢٩ [١٩٣١] ١٥٨) في الجزء الأول من هذا السِفر القيّم يخصّه المؤلف بطلّاب البكالوريا اللبنانية ، ملخصاً فيه ، على طريقة واضحة واسلوب لطيف ، نتائج ابحاث جمّة في ماضي ادبنا وحاضره ، ومؤالفات طويلة لكبار كتّابنا وشعرائنا . يعرض لتاريخ الأديب اولًا فيختصر حياته ، مدقّقاً في ذكر صفاته البارزة ، مستفيضاً في تحليل آثاره من شعر ونثر ، مستشهداً بما يدلّ منها على شخصيته ، وما يسهّل على الطلّاب تصوّر هذه الشخصية تصورًا حقًا .

وقد خصّ الجزء الثاني بالاعصر العباسية دارساً فيه بشار بن برد ، وابا نواس ، وابا تمام ، والبحتري ، وابن الرومي ، والمتنبي ، وابا فراس ، من الشعراء ؛ وابن المقفع ، والجاحظ ، وبديع الزمان ، وابا الفرج الاصبهاني ، والحريري ، وابن

الأثير من الكتّاب ، ملمّاً ببعض الشعراء الشنوبين كدعبل ومَن اتى بعد عصره من المولّدين ، وبعددٍ من علماء اللغة كالخليل والاصمعي وابي عبيدة ومن اليهم .

واما الجزء الثالث فيتناول عصرين مهمّين من عصورنا الادبية ، لا بقيمتها الفنيّة ، بل بطرافتها ، وبقلّة الباحثين فيها ، هما عصر الادب الاندلسي وعصر الانبعاث. وكان لا بدّ من اطالة المقدّمات التاريخية والادبية، ولاسيما في ما خصّ الأندلس ، فاطالها المؤلف وحسناً فعل ، مجتهداً في تلخيص الاحداث السياسية في تلك الدويلات المتشاحنة المتعاقبة ، وفي رسم الخصائص والميزات الفارقة لانواع الشعر الاندلسي، ولاسيما الموشّحات ، ولطرق النثر في المغرب واسبانية . حتى اذا ادرك عصر الانبعاث تبسّط في ذكر اسبابه السياسية والاجتماعية وتعيين مواطن الادب فيه ، ومركز لبنان منها . ثم انتقل الى درس فنون الشعر وانواع النثر ، خاصّاً بالبحث العميق شاعراً واحداً هو احمد شوقي ، واربعة كتّاب هم الشيخ ابراهيم اليازجي، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وولي الدين يكن، وسليمان البستاني، متقيّداً في هذا الاختيار ايضاً بمنهاج البكالوريا اللبنانية . فاتى مؤلفه من افضل ما يوضع بين ايدي الطلّاب من كتب الأدب ، ومن افضل ما يرجع اليه جمهور المثقفين كذلك . ف . ا . ب .

الشيوعية الالحادية

رسالة عامة للبابا بيوس الحادي عشر

عرّبها الاب شارل ايلا اليسوعي

٥٥ ص . متوسطة - بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٧ .

وسط هذه الاضطرابات الاجتماعية الجارفة ، الناشئة ، من جهة ، عن استبداد المتكالبين من ارباب رؤوس الاموال ، ومن جهة اخرى ، عن تطرّفات الشيوعية الالحادية ، كان العالم التائق الى الهدوء والطمأنينة بحاجة الى من يسمعه صوت الحقّ والعدالة . واذا بهذا الصوت يرتفع صارخاً من قمة الفاتيكان مُعطياً كل ذي حقّ حقّه ، سانّاً للضمائر الحيّة صراطاً مستقيماً ، فيصغي اليه العالم ويسير بوجه المؤمنون .

يقسم الاب الاقدس رسالته الى خمسة اقسام يوضح في الاول منها موقف

الكنيسة ازاء الشيوعية منتقلًا الى درس التعليم الشيوعي واثماره في الشخص والأسرة والمجتمع ، معلّلًا انتشار الشيوعيــة ، دالًا على نتائجها الوخيمة في روسية ، والمكسيك ، واسبانية ، موجّهاً عاطفة ابوية الى الشعوب المرهقة في روسية . بعد هذا يُقرّ تعليم الكنيسة النيّر ، في القسم الثالث، منحدرًا من الحقيقة السامية : الله ، الى ذكر ماهية الانسان ، والأسرة ، والمجتمع ، محدّدًا الحقوق والواجبات في النظام الاقتصادي والاجتماعي ، مشيرًا الى محاسن تعليم الكنيسة في هذه الموضوعات جميعها . وفي القسم الرابع يصف معالجة الداء ووسائلها من تجدّد في الحياة المسيحية ، ودرس المبادىء الاجتماعية ونشرها في سبيل العدل ، واتقاء خدائع الشيوعيين ، والعكوف على الصلاة واعمال التوبة . ويأتي القسم الخامس في خدم الكنيسة واعوانها في مساعيها الاجتماعية كالكهنة ، وارباب العمل الكاثوليكي ، والمنظّمات المهنية . وينهي بنداء الى العملة الكاثوليك ، فالى كل المؤمنين بالله ، فالى الابناء الضالّين جميعاً .

رياضات القديس اغناطيوس دي لويولا مؤسس الرهبنة اليسوعية

عرّبها عن اللاتينية الاب خليل اده اليسوعي والخوري يوحنا طنوس الماروني
٢٢٦ ص . قطع ١٦ – بيروت، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٧

هذا كتاب صغير وجيز المواد ، غزير المعاني ، كثير الفوائد يحوي خلاصة نسكيات القديس اغناطيوس ، ولبّ دستور الرهبانية اليسوعية . فإن يكن لها فضل في التعليم والتهذيب وفي نشر الايمان والقيام بخدمة المؤمنين والدفاع عن حقوق الكنيسة ، فذلك الفضل كله يعود الى كتاب الرياضات . وقد قدره الاحبار الاعظمون حق قدره ، وقالوا فيه انه ، على صغر حجمه ، من اهم المؤلّفات الروحية الملخصة الكتاب المقدس وتعاليم الآباء والقديسين . ليس المقام للاسهاب في تعريف الكتاب . وحسبنا لفت النظر الى ظهوره لاول مرة مترجماً باللغة العربية ، فيُقبل على اقتنائه الكهنة والمؤمنون ، وكل انسان تحدّثه نفسه في الطموح الى بلوغ المستوى الادبي والعقلي والروحاني الذي يرتفع اليه كتاب الرياضات بالذين يمارسونها عن اخلاص وصدق سريرة . فير

مصوِّب البصيرة ، ومقوّي الارادة ، وممهّد الطريق الى بلوغ الغـاية القصوى باقرب الوسائل وانجعها. وهو آية في تعليم الانسان ان يتدبر شؤونه بنفسه، وخليقٌ ان يدرسه ليس المسيحي فقط ولكن كل عاقل من الناس ايضاً.

لم يكن النجاح في تعريب الكتاب من الامور القريبة المنال لان في المتن الاسباني الاصلي المنقول الى اللاتينية، منذ عهد القديس اغناطيوس وبعده، عقبات كؤودًا تحول دون تأدية معانيه بالعربية وليس فيها من المصطلحات الخاصة ما يقوم بمجى المتن الاصلي معنىً ومبنىً . ولذلك لم يكن بالكثير على الكتَبَ ان يعكف على درسه ونقله رجلان لهما سابق العهد في التآليف العربية، صرفاً ونحوًا وادباً وبياناً. فتضافرا وجمعا جهودهما فاخرجا هذه الترجمة النفيسة. ولعلها من خير ما نقلته المطبعة الكاثوليكية الى اللغة العربية، بعد ترجمة الكتاب المقدس المعروفة باليسوعية . ف. ت.

رياضة روحية للكهنة حسب طريقة القديس اغناطيوس

للاب لويس معلوف اليسوعي

٢٦٥ ص. قطع ٨ – المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٧

ان عشرات السنين التي قضاها في التأليف مدير البشير سابقاً، وواضع قاموس المنجد، لم تحل دون اهتمامه بشؤون النفوس مباشرةً في القاء المواعظ على الشعب، وفي ارشاد الكهنة في الرياضات. فتيسّر له، مع الاستعدادات المألوفة في الرهبانية اليسوعية، استعدادات خاصّة استمدت من مواهبه الغريزية والمكتسبة، ومن الظروف التي ساعدت على انمائها، صفات صلحت للانتاج العقلي ليس في اللغة والادب فحسب ولكن في الدينيات ايضاً. وما هذا الكتاب الّا ثمرة من اثارها ترجع عناصره الى موارد ثلاثة: الاول والاصيل انما هو رياضة القديس اغناطيوس التي وصفناها سابقاً، والثاني هي المؤلفات الروحية واخصها كتاب الاب جيرو اليسوعي، وقد اقتبس عنها الاب معلوف ما رآه مفيدًا لموضوعه . والثالث هو تحصيله الروحي واسلوبه الشخصي في تلقين النفوس طرق الكمال على اختلاف النزعات والمشارب.

مضت الاعوام على مؤلفات الاب فروماج فبرمت وخيّم عليها الاهمال لبعد اسلوبها اللغوي من اساوبنا العصري. اما رياضة الاب جنـو اليسوعي المعرَّبة فقد

عزّت نسخها ولم يبق لنا فيها طمعة المستحدث المشوق الى مطالعتها. ولا مانع من ان يردفها في صنفها كتاب جديد يزيد في ثروة الروحيات المسيحية العربية. ولذلك اتت رياضة الاب لويس معلوف في الوقت الموافق فسدّت الحاجة اليها وادّت للكهنة وللمرشدين موادّ غزيرةً وفوائد سهلة المنال، باساوب وضاح ولغة انيقة، ووسائل تسير بهم الى باوغ الغاية القصوى في الكمال المسيحي. ف. ت.

الطرفة في مخطوطات دير الشرفة

تاليف الخورفسقفوس اسحق ارملة السرياني

٥٥٤ ص. قطع ٨ – جونيه، مطبعة الاباء المرسلين اللبنانيين، ١٩٣٦ – الثمن: ١٠٠ فرنك

في السنة ١٧٨٦، أسّس البطريرك مخائيل جروه دير سيدة النجاة في شرفة كسروان، واستودعه مجموعة ثمينة من الكتب الخطية كان قد حصلها في رحلاته في حلب، وماردين، وبغداد، ودمشق، فصارت نواة المكتبة البطريركية التي نمت وازدادت مع الايام بما دخل فيها من كتب الشبانية وغيرها. ثم عاثت بها يد الدهر فافقدتها شيئاً من مخطوطاتها لكن الرؤساء الحاليين بذلوا العناية في تعزيزها. وللاب اسحق ارملة الفضل في وضع فهارسها هذه وتقريب منالها من العلماء.

ان التأليف في المواضع البعيدة عن المراجع العلمية الاصيلة تكون في الغالب محرومة من التعليمات المكتسبة من حركة الدروس الواسعة. وليس بالامر اليسير ان يصف المؤلف المخطوطات مقابلاً بينها وبين ما تحفظه من امثالها المكاتب الكبرى. فيعرف هل طبعت او لم تطبع، وهل لها نسخ نادرة او عديدة في العالم، فيأتي كتابه مرجعاً ممهداً لتاريخ الآداب. ومع ذلك فان معارف الاب اسحق الشخصية وتضلّعه من العلوم السريانية والعربية، وطول باعه في التأليف مكّنه من وصف مخطوطات الشرفة الوصف المسهب الوافي. ولا شك في ان المستشرقين سوف يقدرون عمله حق القدر. واننا نأتم بالمؤلف ذاته في الاشارة الى اهم المخطوطات المحفوظة في الشرفة وبعضها صورت منها صفحات وطبعت في صدر الكتاب. من ذلك مجموعة قديمة لرسائل الحاكم بامر الله الخليفة الفاطمي (٩٩٦–١٠٢٠) وإمام الدروز، ترقى كتابتها الى عهد الحاكم او تكاد (٤٢٢هـ=١٠٣٠)

وتحوي الاخبار عن معتقدات الدروز وهي من اقدم اثارها ــ ولذلك القرن يرتقي المخطوط المعروف « بالشيخ » وفيه الصلوات القديمة الشاهدة لوحدة الطقوس في اصلها بين السريان والموارنة والملكيين ــ وفي مكتبة الشرفة شرح ابن العبري للكتاب المقدس باجمعه لغةً ومعنىً وهو منقول في القرن السادس عشر عن نسخة المؤلف ــ وفيها نسخ عديدة للعهد الجديد ومنها واحدة تحوي بعض فصول من الدياطسرون ــ ومن مخطوطات الشرفة كتاب المرشد ليحيى ابن جرير ومنارة الاقداس لابن العبري والايثيقون. وهذه الثلاثة استنسخها المرحوم الاب شيخو للمكتبة الشرقية لعظم اهميتها . ومنها المؤلفات في اللاهوت ، والفلسفة ، واللغة ، والتاريخ ، والطبّ ، والفلك ، والهيئة ، والحساب ، في اللغتين العربية والسريانية . وهي كنز ثمين لا بد من الكشف على دفائنه لمعرفة تطور اللغة العربية ، ودرس العنصر السرياني فيها . ويصف الكتاب ١١٥٥ مخطوطاً ولكن ليس فيه الا فهرس عمومي واحد مقتضب ، مع كونه يحتاج الى فهارس باسماء الكتب ، واعلام المؤلفين والنساخ والامكنة وغير ذلك مما يزيد بقيمة وصف المخطوطات ، عسى ان يردف المجلد بذيل يطبع بعده ويفي بالمطلوب .

ف . ت .

اعلام الفكر الفرنسي

١٨٢ ص . صغيرة — دار « الشرق والغرب » ، بولاق (مصر) — الثمن : ٥ غ . م .

واضع هذا الكتاب مستشرقتان هما السيدة « كاترين هنري » ، والسيدة « بنت الحارث » ، وكاتب فرنسي هو « اكريه » تقاسموا المواضيع واستقلّ كل واحد منهم في انشاء موضوعاته فكان للاولى ديكارت (ص ١) ، ڤولتير (ص٥٥) ، روسّو (ص ٧١) ، كونت (ص ٨٩) ، وكان للثانية پسكال (ص ٢٠) ، پاجي او بيگي (Ch.Péguy) (ص ١٥٥) . وكان للثالث رينان (ص ١١٣) ، وبرگسون .(ص ١٢٩) . وينتهي الكتاب عن ثمانية من اعلام الفكر الفرنسي كلٌّ منهم كان صاحب مدرسة وزعامة في عصره . فمن ديكارت صاحب المدرسة الفلسفيّة العقليّة التي جرت مجراها الخصب في الفلسفة

العالميّة والتي سعى فيها صاحبها الى الحقيقة واليقين عن سبيل العقل الشاكّ ، الى ڤولتير زعيم الجرأة الساخرة حتى الوقاحة في الدين والاجتماع والادب ، الى روسّو شيخ « الرومنتسم » ، الى « كونت » العامل الاكبر في نهضة الفلسفة الحديثة ، الى پسكال المفكّر المتأمل ، الى الرجل الغريب ، القصصي الفيلسوف الشاعر شارل پيگي ، الى رينان المثنىّ الهدّام ، الى برگسون ، حامل لواء الفلسفة الروحيّة اليوم .

وكلّها ابحاث عليها مسحات من الجمال الفني ، وفيها الكثير من سموّ النقد المعاصر ورشاقته ، التي خرجت بالنقد عن التقسيمات المملّة المضجرة التي لا نغتفرها للكاتب الّا في الكتب المدرسية حيث يكون للتبويب المنطقي السهل شأنٌ كبير .

نقل الكتاب الى العربية الاستاذ حبيب سعيد . فقدّمه الى الشباب الحرّ المثقّف راجياً لهم منه الاستفادة ، شارحاً بعض المسائل الهامّة عن تسمية الكتاب ، وقيمة ابحاثه ، تدلّ على فهم الرجل رسالته ممّا يجرّنا الى الفأل به وبكتابه .

وقد قدّم الكتاب الاديب احمـد زكي ابو شادي بمقدّمة صغيرة لم يخرج بها عن اسلوب المقدّمات العادية البسيطة .

اما الترجمة فموفّقة بالاجمال لولا بعض التعقيد والغموض احياناً . ورغبتنا لو ان الناقل اشار الى مصادر بعض المقاطع التي كان ينقلها على سبيل الاستشهاد من مؤلفات المنقودين،اذاً لأمكن الرجوع اليها ، ولتمّت فائدة لا تتمّ بدونها .

ونلفت انظار الناقل الى اخطاء قد لا تكون جميعها مطبعيّة وردت هنـا وهناك في الكتاب فيتّقيها في الطبعة الثانية ؛ ومن اثقلها على آذان العارفين هذه : « Discours de Méthode » التي وردت ، غير مرّة ، على هذا الشكل المهشّم .

وبعد ، ليس لنا سوى ان نستزيد الاستاذ حبيب سعيد من هذه الاثار التي يكون لها شأنها في بلاده ، والتي تقف بالمرصاد لسرّاق الادب الغربي .

ا . ح .

محاضرات في التربية والتعليم

تأليف واصف بارودي

الجزء الثاني : ١٧٥ ص. متوسطة — بيروت ، مطبعة الكشاف ، ١٩٣٧

لقد اصبحت محاضرات الاستاذ واصف بارودي موارد سائغة لرجال التربية والتعليم يرتادونها كلّ سنة ، اذا اشتدّ عليهم الحرّ واقفلت المدارس ابوابها ، فانتقلوا الى الجبال وهم أبعد ما يكون عن المشاغل المسلكية والمهمّات التربوية ، ألّا اذا دعاهم المحاضر فلبّوا دعوته ، مجتمعين في زحله او تعلبايا او غيرهما من مناطق الاصطياف ، يتناقشون والمحاضر في الصلة بين التربية والأدب ، والقراءة الصارخة والصامتة ، ودَور المعلّم في القرية ، والزراعة في مدارس القرى ، والثقة في التربية ، والتربية والحياة ، ومستقبل النشء الحاضر ، وغير ذلك من الموضوعات التي تجمع بين التربية ، والأدب ، والاجتماع ، وتمهّد امام المعلّمين سبيل القيام بواجباتهم ، فيشعرون الشعور الحقّ برسالتهم السامية ويعملون ، لا على اعداد تلاميذهم لنيـــل الشهادات الرسمية فقط ، بل على تهيئتهم لخوض الحياة رجالًا مثقّفين. وقد احسن المؤلف صنعاً بجمع هذه المحاضرات تعميماً لها ، وافادةً لمن لم يحضرها صوته ، بعد ان اضاف اليها ابحاثاً القاها على طالبات دار المعلّمات في مهنة التعليم واهميتها ، والمثال الاعلى والقضية النسائية ، واللغة ، فألفت الجزء الثاني من محاضراته. اما الجزء الاول فقد اشرنا اليه (المشرق ٣١ [١٩٣٣] ٣١٨) وكذلك أشرنا الى تأليف آخر دعاه « مقالات في التربية والتعليم » (المشرق ٣٢ [١٩٣٤] ٤٧٧) ذاكرين ما امتازا به — وهو ما يمتاز به هذا الجزء — من عمل على نشر المبادئ الحديثة في فنّ التربية والتعليم. ف. ا. ب.

قميص الصوف

مجموعة قصص لتوفيق يوسف عواد

١٢٢ ص. متوسطة - بيروت ، منشورات « المكشوف » ، ١٩٣٧ — الثمن : ٢٥ غ. ل. س.

في مؤلف هذه المجموعة ميل غريزي الى التوقّف لدى المظاهر المرضية في البشر ، سواء أكانت هـــذه المظاهر عاهة جسدية (الصبي الاعرج)[1] ام نقصاً

(1) اطلب ، في وصف « الصبي الاعرج » ، المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٥٠

اجتماعياً (الوسام ، الرفيق كامل) ام شذوذاً خلقياً (ميثاق الموت) . بل قد يكون هذا الشذوذ تطرفاً او تضخماً في عاطفة عاديّة او خلق طبيعي . فيعلق به الكاتب ، ويتأمل فيه ، دائراً في حناياه ، ناعماً بمظاهره النافرة ، متذوقاً ، على ما يظهر ، انحرافاته البارزة في غبطة غريبة أحسن بالايضاح عنها عندما سمّاها « شهوة الدم » . واذا امامنا « احد الشعانين » ، و« توها » ، و« قميص الصوف ».

لا يهمنا ان يكون للكاتب غاية وراء القصة او لا يكون — وهو الارجح ! — انما يهمنا ذاك الجوّ الخاصّ الذي يرمي فيه باشخاصه — وبقرائه — فيسير بهم بين ادواء البشرية ، وكأنهم في مستشفى متعدّد الاختصاصيات . فيستغربون لاول وهلة. ثم يوخذون بتلك الغرابة حتى المؤالفة ، وهم لا يتمالكون الشعور ، في بعض القصص ، بما يشعرون به في روايات مورياك ، مصوّر العوارض المرضية في الانسان ، وباسط ما يتناوب النفس من عواطف ونزوات تخرج في اكثرها عن الطبيعي المحتمل عادة . ولكنها لا تخرج عن الانسانية . وانسانية المؤلف حيّة شاملة ، على اخذه ببيئته اللبنانية ، وبعصره من القرن العشرين ، بل من هذا الثلث الاول من القرن العشرين.

وكم وددنا لو لم يُدفع الى المبالغة في اوصاف وعبارات يأنف منها المتأدبون اللبنانيون ، ولا سيما الناشئون منهم . ولا شك في ان الخفر اللبناني سيعود مسيطراً ، فيخفّف من ذلك في المجموعات المقبلة ف. ا. ب.

تدمر

او مدينة الاعمدة وملكتها زينب

ابحاث تاريخية اثرية صدرت اولاً في مجلة « المنارة » ثم في هذه المجموعة

بقلم الاب جرجس ابي سمرا المرسل اللبناني

١٤٠ متوسطة — مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية ، ١٩٣٦

يبدأ الاب الباحث كتابه بمقدمة وجيزة تضمّنت حكماً في التاريخ والآثار، وتأكيداً بأن هذه الدروس مجلوّة « بحلة عربية قشيبة » ، وبأنها « في عيني أدابنا كريمة غالية » . ويزيد حضرة الاب ، متواضعاً ، انه لا يدّعي بأنه « اتى بها الفتح

المبين ». على انه لا يرى مندوحة من التصريح انها « خطوة اولى في هذا المضار الوعر » . اما الخطوة الثانية فلعلها بحث الاب رونزفال الظاهر في المشرق سنة ١٨٩٨ . وكثيرًا ما استند اليه المؤلف في الكلام عن زينب واسمها واصلها وحروبها ، واتساع مملكتها ، الى غير ذلك من الموضوعات المشتركة بين البحثين.

الّا ان الاب ابي سمرا يورد فوق ذلك ، اتمامًا للفائدة العلمية، قصيدة للشاعر شبلي ملاط ، ومقالين لجريدتي « البيرق» و« المدى » اليوميتين » وصورة الاستاذ ملحم فرحات الحدثي.

فالكتاب اذًا ، من اوله الى آخره ، ثمين للغاية . وحسنًا فعل حضرة الاب الفاضل اذ قال في الختام : « انتهى ولله الحمد اولًا وآخرًا ». ن.د.

الحكيم وليلى

تأليف توفيق حسن نادر الشرتوني

١٦٠ ص . متوسطة كبيرة — ، بيروت ، مطبعة صادر ، ١٩٣٧

« قصّة تحليلية تبحث في المعضلات الزوجية والمشاكل الاجتماعية . »

يدرك المطالع ، من مجرّد قراءة عنوان الكتاب ، بُعد صاحبه عن القصّة العصرية كما يفهمها اصحابها في بلادهم ، وكما بدأ ان يفهمها بعض اصحابنا في بلادنا .

« قصّة . . . تبحث » ونرغب اليوم في ألّا تكون القصة بحثًا ، مكتفين بان تكون صورة تمثل لنا — بالتصوير ، او الايحاء ، او العَرْض — بيئة من البيئات البشرية والجغرافية المتنوعة ، او رجلًا من الرجال الذين نرغب في معرفتهم ، إمّا لأنهم يحملون رسالة عالية حلوة ، وإمّا لأنهم يتألمون من تصرّفات دهرهم معهم ، وإمّا لغير ذلك من الاسباب الكثيرة . وبقدر ما يجيد الروائي القصّاص العَرْض ، والتصوير ، والايحاء ، فيقف بالقارئ تجاه مشاهد نابضة حياة ، وصور خفّاقة مرتعشة ، وايحاءات مستثيرة رائعة ، جاعلًا بينها جميعًا تلاؤمًا ووحدة ، بقدر ما يكون روائيًا قصّاصًا مبدعًا . وبالضدّ ، فهو روائي فاشل بغيض ان هو بحث ومدّ للفلسفة — التي رغبناها صالحة في هذا الكتاب ! — اصبعًا حيث لا نريد لها الّا كل اصبع مبتور .

ونتقدم في القراءة فلا نرى ما يفرق «الحكيم وليلى» عن «الحكيم وسلمى»[1] — اختهما البكر — من حيث الاساوب والتفكير، اللهمّ بعض الجرأة في القول رغبناها لو لم تكن، اذًا لنجا صاحبها من التهوّر، والاسفاف، واضطراب الآراء حتى الفساد في الدين والاجتماع. ا. ح.

شهران في اوربا

رحلة الصحافي العجوز في صيف سنة ١٩٣٥

٢٣٠ ص. متوسطة — مطبوعات جمعية نشر الثقافة بالاسكندرية — الثمن: ١٠٠ مليم

قام الكاتب المصري الاستاذ توفيق حبيب، المعروف «بالصحافي العجوز»، برحلة في صيف السنة ١٩٣٥، قادته الى ايطالية، فسويسرة، ففرنسة، فبلجيكة. عاد منها، وقد ملأ عينيه بمناظر الغرب وعجائبه وغرائبه، فدوّن مشاهداته وآراءه في هذه الرحلة الشائقة، يرافقه فيها المطالع فيُعجب بالبساطة والرشاقة تقترنان بالملاحظة العميقة والنظر الشامل.

فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية

لغاية سنة ١٩٣٢

الجزء السادس: ٢١٦ ص. كبيرة — القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٣

يشمل هذا الجزء فهارس فنون الآثار، والجغرافية، والأطالس والخرط، والزراعة والري، والتجارة، والصناعات، والمعارف العامّة بما فيها من اصطلاحات العلوم ومباديها، والكلام على البسملة والحمدلة واما بعد؛ وتعبير الرؤيا ودوائر العلوم والمعارف والموسوعات، والردود والانتقادات، والشطرنج، والمسائل المتنوّعة.

اللؤلؤ المنثور

تأليف الاب يوسف علوان اللعازري

٢٦٣ ص. متوسطة — طرابلس، مطابع خياطة، ١٩٣٧ — الثمن: ٢٥ غ. ل. س.

عُرف المؤلف الفاضل، فوق اعماله الرسالية والادبية، باهتمامه الجزيل بمفاخر الجمعية الدينية التي ينتمي اليها، وقد طالما قرأنا له ترجمات الكثير من ابنائها

[1] راجع رأينا في «الحكيم وسلمى» في المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٤٧٨

وبناتها . وها هو يخصّ بحثه الاخير بقديسهم الأكبر ومؤسس جمعيتهم وجمعيات راهبات المحبة ، القديس منصور دي پول ، « مفصّلاً اعماله واعمال بنيه المرسلين اللعازريين ، وبناته راهبات المحبة منذ الابتداء الى اليوم ، مع مختصر تاريخ اديرتهم في الشرق الادنى ، ونبذة في الشركات المنتمية اليه. »

قصص فكاهية للاطفال

بقلم كامل كيلاني

القصة الاولى : عمارة — ١٦ ص. متوسطة
القصة الثانية : الارنب الذكي — ١٦ ص. متوسطة
القصة الثالثة : عفاريت اللصوص — ١٦ ص. متوسطة
القصة الرابعة : نُعمان — ١٦ ص. متوسطة
القصة الخامسة : المَرْنَدَس — ١٦ ص. متوسطة
القصة السادسة : ابو الحسن — ١٦ ص. متوسطة

مصر — مطبعة المعارف ، شارع الفجالة ، ١٩٣٤ و١٩٣٦

مجموعة قصصية لذيذة للاطفال بما فيها من سهولة النصوص وتدرّج الوقائع ، وجمال الصُوَر ، وحسن الطبع . ولا شكّ ان الاستاذ كامل كيلاني اصبح من كبار الاختصاصيين بهذا الفنّ .

* تساعية سيدة التلة شفيعة دير القمر * ٣٦ ص. صغيرة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٧ – وضعها الاب افرام حنين الديراني ، رئيس انطوش سيدة التلة الحلبي اللبناني في دير القمر ، بمناسبة تعيين العيد الرسمي السنوي الواقع الاحد الاول من شهر آب .

* زنبقة الشرق ووردة الغرب ، وتحفة البرّ ودرّة البحر * ٨ ص. متوسطة ، بيروت ، مطبعة السلام ، ١٩٣٧ – من نظم الخوري لويس فرح الغنالي ، مرفوعة لصاحب الغبطة مار انطون بطرس عريضه ، بمناسبة سفره الى اوربا .

* الخطاب الذي القاه الخوراسقف يوحنا المنداري النائب العام لابرشية طرابلس المارونية ، ترحيباً بعودة صاحب السيادة المطران انطون عبد ، بمناسبة عودته من رومية وباريس * ١٠ ص. متوسطة – طرابلس ، مطبعة « صدي الشمال » ، ١٩٣٧ .

* تذكار اليوبيل الذهبي لاخوية الميتة الصالحة لطائفة الاقباط الكاثوليك * ٢٤ ص. متوسطة مصوّرة – مصر ، كاتدرائية الاقباط الكاثوليك بدرب الجنينة .

* خلاصة اعمال الجمعية الخيرية الكلدانية للفقراء في بغداد سنة ١٩٣٦ * ٨ ص. كبيرة – بغداد ، مطبعة الامّة ، ١٩٣٧ .